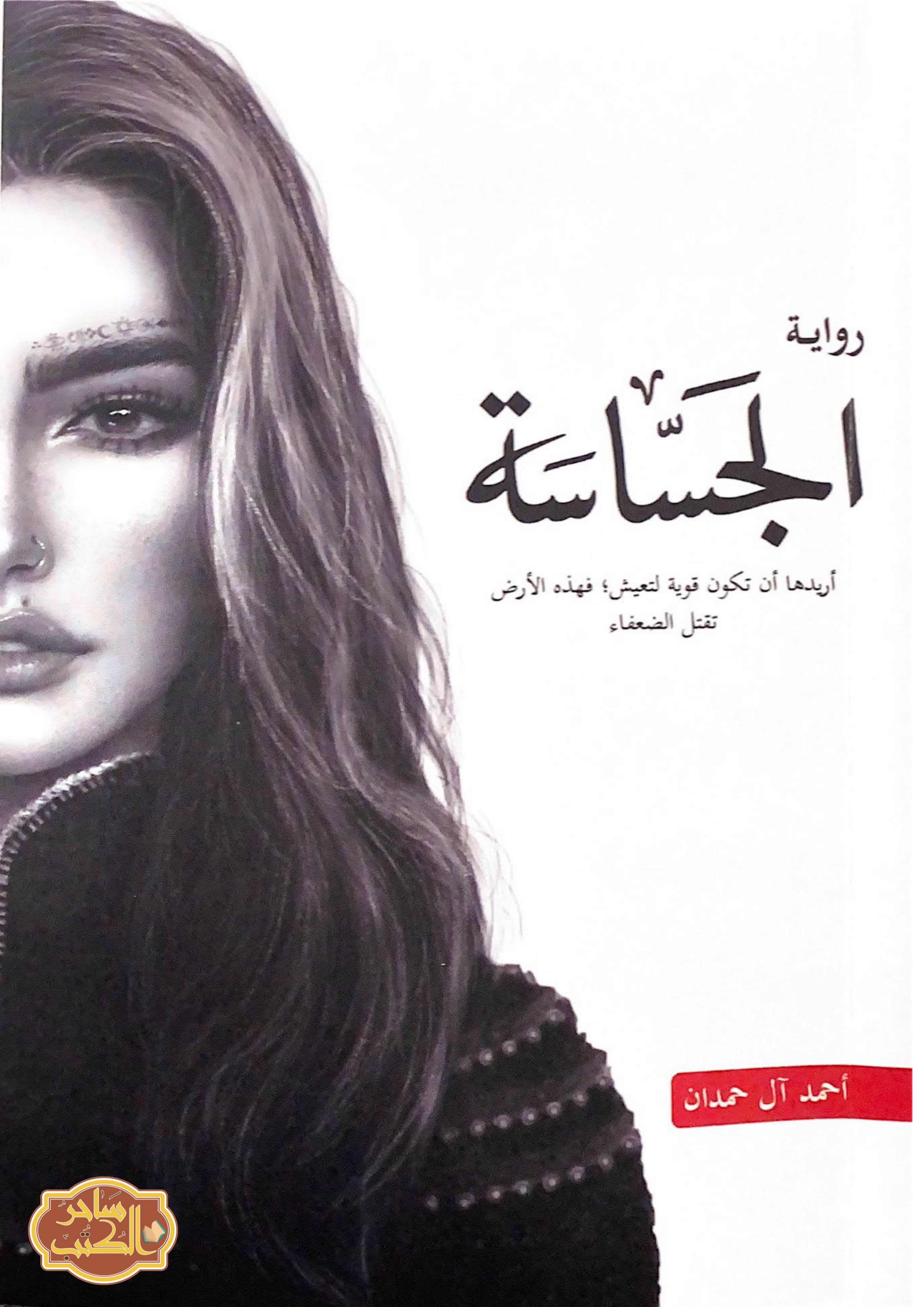

رواية
الجَسَّاسَة
أريدها أن تكون قوية لتعيش؛ فهذه الأرض
تقتل الضعفاء
أحمد آل حمدان



خريطة لمملكة أبابيل تُظهر مواقع الأحداث التي يدور حولها هذا الجزء من السلسلة

قبل الآف السنين كان ثمَّة مملكة تُدعى أبابيل يعيش فيها الجنُّ والإنس جنبًا إلى جنب وكأنهم مخلوقون من مادةٍ واحدة.. ورغم ذلك إلا أنّ جنسًا منهم لم يُفكر أبدًا بالزواج من الجنس الآخر..

كان ذلك قبل أن تأذن السمـاءُ ذات يوم بلقاء الجنية جومانا بالإنسي بحر ويوحّدُ الحُب مصيرهما وتبدأ ملحمة النار والطين..

الباب الأول

١

صخرة الميعاد المقرسة

بعد مُنتصف الليل بقليل يُفتح الباب الكبير للجناح الملكي، ويخرج منه رجل أسود ضخم الجثة حاد الملامح يحمل بيده سراجًا تنبعث منه إضاءة خافتة تُعينه على الرؤية:

إنه أمين سر القصر "**أيوب**" وهو ذاهب الآن لتنفيذ المهمة السريّة التي أوكلها إليه ملك مملكة أبابيل..

**

بخطواته المتمهلة الثابتة تجاوز أيوب البوابة الخارجية لباحة القصر وواصل سيره في الطرقات الضيقة المظلمة لجزيرة الأرباب حتى وصل كوخًا خشبيًا عتيق وطرق بابه..

فتحت له الباب الجنية "**الوزيرة خيزران**" وما أن رأته أمامها حتى ارتسمت في عينيها نظرة قلِقة وأدركت أنّ هناك أمرًا هامًّا دفع أمين السر للقدوم إليها في مثل ذلك الوقت المتأخر من الليل:

- ماذا هناك؟!

- الملك..

- ما به؟!

- يطلب رؤيتكِ..

قال أمين السر ذلك بصوته الأبح والأشبه بهمهمة ذئب عجوز، ثم استدار وسار مبتعدًا دون أن يخبرها عن السبب الذي تم استدعاؤها من أجله فسألت:

- ألم يخبرك عن السبب؟!

أجاب دون أن يلتفت لها:

- اتجهي لباحة القصر، وهُناك ستعرفين..

هتفت:

- وأنت أين ستذهب؟!

قال وهو يغوص في عُمق الظلام:

- لاستدعاء البقية..

لم يكن الأمر يحتمل المماطلة أو التأخير؛ لذا فإنها اتجهت نحو باحة القصر وقد غاب عن بالها أن تُبدل اللباس الشفاف القصير الغير اللائق الذي كانت ترتديه..

**

حين وصلت هُناك وجدت أمامها رهطًا كبيرًا من كُبراء عائلة الأباطرة الملكية وقد استطاعت أن تلمح بينهم شخصًا كان من أشد الأصدقاء قربًا للملك إنه "**الحكيم**" ومن المؤكد أنه كان يعرف شيئًا بخصوص ذلك الاجتماع..

دنت منه وسألته:

- ما الذي بظنّك يريده منّا الملك الآن؟!

متجاهلًا جدية الموقف علّق الحكيم بسخرية كعادته وهو يطيل النظر بشهوة، لتفاصيل جسدها الفاتن من خلال لباسها الشفاف القصير:

- في الحقيقة لا أعلم..

ثم أضاف يمازحها بنبرة ماكرة وهو يعض شفته السُفلى:

- ولكن إن أردتِ أستطيع أن أخبركِ بما أريده أنا منكِ الآن..

أحسّت الوزيرة بالاستياء من ذلك التلميح الفاحش؛ فسددت لوجهه لكمة خاطفة.. لكن وقبل أن تصل تلك اللكمة إليه كانت هناك يدٌ سريعة قد امتدت في الهواء لتعترض طريقها..

التفتت الوزيرة نحو مصدر تلك اليد فوجدته "**الشمالي**" وقد أرسل إليها نظرة حادة مُهددة تعني:

"أنا لا أسمح لأحد بأن يؤذي أصدقائي"

ثم أنزل لها يدها وقال بأدب:

- أعتذر لكِ بالنيابة عن صديقنا الحكيم أيتها الوزيرة؛ فأنتِ تعلمين بأن لسانه طويل جدًا وهو بحاجة لأن يُخرجه من فمه أحيانًا دون أن يُلقي اعتبارًا للكلام الذي يصدر عنه..

أما الحكيم الذي ضمن أن الوزيرة لن تستطيع أذيته طالما أن صديقه معه، فإنه انفلت عليها يُهاجمها ليسترد بعض كرامته:

- ليس لساني هو الطويل فقط، هناك أيضًا آآ...

سارع الشمالي بإغلاق فمه؛ لأنه يعلم أن الأمور لن تسير على ما يرام لو أنه سمح له بإكمال تلك الجملة..

ثم وللتخفيض من حدة التوتر أكثر فإن الشمالي التفت نحو الوزيرة بلطف وأجابها عن سؤالها السابق قائلًا:

- أما عن أمر استدعاء الملك لنا فلا أحد يعلم شيئًا بشأنه؛ لقد طلب أيوب منّا جميعًا الحضور إلى هنا دون أن يُخبرنا عن السبب..

في تلك اللحظة فُتحت البوابة المُطلّة على الباحة الأمامية للقصر، فصمت الجميع ونظروا نحوها بترقب..

خرج أيوب لهم وقال:

- اتبعوني، الملك سيُلاقيكم عند صخرة الميعاد المُقدسة..

تضاعف الاهتمام لديهم أكثر؛ فهم يعلمون أن الملك لن يطلب منهم الحضور لصخرة الميعاد المُقدسة إلا إن كان هناك أمرٌ خطير جدًّا يستدعي ذلك..

سار أيوب باتجاه حديقة القصر الخلفية يتبعه الجميع..

**

واصل الجميع سيرهم وسط الضباب الكثيف والأشجار الطويلة للحديقة يتبعون بقعة الضوء المنبعثة من السراج الذي يحمله أيوب وما أن وصلوا لهُناك حتى شعروا بالدهشة مما شاهدوه أمامهم..

لقد شاهدوا طفلة صغيرة لم تتجاوز العام من عمرها وقد كانت تستلقي على ظهرها فوق منتصف صخرة الميعاد المُقدسة، وتنظر ببراءة نحو السماء السوداء الشاسعة الممتلئة بنجوم متلألئة وهي لا تعلم شيئًا مما يحدث حولها..

ولكن دهشتهم تلك لم تطل كثيرًا وذلك عندما سمعوا وقع خطوات أقدام تقترب منهم، وحين التفتوا نحو مصدر الصوت شاهدوا الملك "**عاصف**" والملكة "**سرابي**" يسيران نحوهم، وفوقهما بعدة أمتار كان يطفو في الهواء بجناحيه الطويلين طائر العنقاء الأحمر "**إكليل**"..

لقد حان الوقت ليعرف الجميع لماذا طُلب منهم الحضور في ذلك الوقت المتأخر جدًّا من الليل وبكل ذلك القدر العاليَ من التكتم والسرية..

٢

قَسم ملوك أبابيل

توقف عاصف عند طرف رأس الصخرة وإلى جواره وقفت زوجته الملكة بينما حام طائر العنقاء في الهواء لبعض الوقت قبل أن يتخذ من غصن إحدى الأشجار العالية مكانًا يهبط فوقه..

قال عاصف وهو ينظر للوجوه المُتطلعة إليه:

- لقد طلبتكم الليلة؛ كي تقسموا بأرواحكم على حماية زوجتي..

وأضاف وهو يشير بيده للطفلة المُستلقية فوق الصخرة:

- وعلى حماية ابنتي جومانا..

**

في تلك الفترة كانت أبابيل تشهد وقتًا عصيبًا للغاية؛ فقبل زُهاء العام تقريبًا وعندما أحسّ الملك السابق جبّار بأن الموت يُناديه فإنه عقد اجتماعًا طارئًا لكُبراء العائلة كي يختار من بينهم وليًّا لعهده..

ثم وبينما كان الكُبراء المستحقون لولاية العهد في انتظار أن يقع الاختيار على أحدهم، إذ فاجأهم جبّار عندما صوّب نظره باتجاه حفيده عاصف وقال:

- **أنت.. ستكون الملك**

بدا حينها عدم القبول واضحًا على وجوههم ليس فقط لأنه اختار للعرش صبيًّا متهورًا لم يتجاوز عامه العشرين بل لأنهم كانوا يعتقدون بشأن عاصف أنه ذو دماء ملوثة؛ فهو ليس جنيًّا نقيًّا مثلهم بل مخلوقٌ هجين: **كانت أمه جومانا تنتمي لعالم النار "الجن".. بينما كان أبوه بحر ينتمي لعالم الطين "الإنس"..**

عندما رصد جبّار أمائر عدم القبول في وجوههم آنذاك، فإنه همس في قلبه يستمهل الموت:

"**امنحني قليلًا من الوقت أيها الموت ما زالت أمامي مهمة أخيرة**".

لقد كان عليه أن يتأكد قبل مغادرته الحياة من أن مملكته ستكون بخير من بعده؛ لذلك فإنه قال بوجه صارم يحادثهم:

- أريد أن أسمع منكم أنكم قبلتموه ملكًا؛ حتى أغادر وأنا مطمئن.

ورغم عدم القبول الذي كان لا يزال واضحًا عليهم، إلا أن أحدًا منهم لم يتجرأ على عصيان الأمر الأخير فانحنوا جميعًا أمام الحفيد يرددون له "**قَسم ملوك أبابيل**"..

وأخيرًا وعندما اطمأن جبّار لكل شيء فإنه نظر باحترام شديد نحو حفيده وقال مستأذنًا: "والآن اسمح لي بالانصراف يا مولاي الملك عاصف"..

ثم أغمض عينيه وهمس للموت في قلبه:

"**أيها الموت أمسك يدي، خُذني إليك**".

بعد أيام وحين انتشرت أخبار وفاة الملك عمّت الفوضى كُل أنحاء القصر، وتجرأت الجنية "**سُندس**".. في اجتماع خاص عقدته العائلة على أن تقول:

- لقد أُصيب جبّار بالخرف في لحظات حياته الأخيرة ولم يكن في كامل وعيه وهو يوصي بولاية العهد لحفيده الهجين؛ لذلك فإني أطالب بعزله عن الحكم وتنصيب حاكم آخر غيره..

.ولكن في الجهة المقابلة تصدى لتلك الادعاءات الكثير من كُبراء العائلة ليس لاقتناعهم بجدوى عاصف كملك، بل وفاء للراحل جبّار وإنفاذًا لأمره السامي الأخير..

**

لم تكن المشاكل تدور داخل أسوار القصر فقط بل امتدت لخارجه أيضًا فقد بدأت بعض الممالك المجاورة باستغلال فرصة انشغال العائلة الحاكمة بمشاكلها الداخلية، وسارعوا بالتآمر لاحتلال العرش: فقاموا بجمع فلول أفراد "**منظمة الجاثوم**[١]" وأعادوا إرسالهم لأبابيل كقوات مرتزقة لتَعيث فيها الدمار.. ثم ولزيادة الخراب أكثر فإنهم أثاروا الفتن والأحقاد بين قبائل الطين والنار؛ الأمر الذي تسبب في اندلاع الكثير من الحروب الأهلية والتي ذهب ضحيتها العديد من الأرواح البريئة..

١- يُقصد بفلول منظمة الجاثوم: أولئك الجنود الذين كانوا ينتسبون للمنظمة لكنهم هربوا وتشتتوا في الأرض بعد أن قام عاصف بهزيمة قائدهم طاغين في الجزء الأول من هذه الرواية..

كان الملك الشاب عاصف يُدرك كُل تلك الأخطار والكوارث التي تواجهها أبابيل ويعلم جيدًا بأنه في حاجة للتحرك السريع بالجيش لإنقاذ الموقف..

ولكنه أولًا وقبل كُل شيء هو بحاجة لأن يشعر بأن قلبه مُحصن بشكل كافٍ وأنه يقف فوق أرضٍ صلبة يستطيع الانطلاق والتحرك منها بأمان، وهذا لن يحدث إلا بعد أن يتأكد من أن عائلته ستكون بخير أثناء غيابه..

لذلك فإنه قام تلك الليلة بدعوة جميع من يثق بهم من الأصدقاء وكُبراء العائلة وطلب منهم أن يقسموا له بقُدسية صخرة الميعاد المُقدسة على حماية زوجته وابنته وأن يكونوا عونًا له في حربه القادمة والتي سوف يسعى من خلالها لتأمين شعبه ومملكته..

أما هُم "الأصدقاء وكُبراء العائلة" فإن أحدًا منهم لم يتردد لحظة واحدة حيث اقتربوا جميعًا من الصخرة ووضعوا أياديهم عليها تباعًا وأقسموا له على ذلك..

**

الذين ظنوا أن هذا هو الأمر الوحيد الذي قام الملك باستدعائهم من أجله تلك الليلة قد أخطؤوا كثيرًا، فما أن انتهى الجميع من تأدية القسم وهمّوا بطلب الإذن بالانصراف حتى سمعوا وقع خطوات أقدام شخص مجهول تقترب من موقعهم..

٣

العرّافة سِربيل

لقد كانت رائحة ذلك القادم غريبة وكان يملك هالة خطيرة شديدة القوة؛ لهذا شعر الجميع أن ثمّة خطرًا ما يقترب منهم فتأهبوا للتصدي له إلا أن صديقيّ عاصف "الحكيم والشمالي" حين نظرا باتجاه طائر العنقاء ووجداه هادئًا بينما كان يستريح فوق غصن الشجرة؛ عرفا أن القادم المجهول ذاك ليس عدوًّا وإنما جاء بناء على طلب الملك، وإلا لكان طائر العنقاء هو أول من توثب للهجوم عليه..

لحظات ثم تظهر لهم من بين الأشجار امرأة طاعنة في السن ذات قوام نحيل ووجه لا يزال يحتفظ بملامح جمال غابر، تملك عينيّن زيتونيتيّن أشبه بحقول أشجار زيتون مهجورة ولديها شامة تُشبه القمر ترتسم على جبينها الطويل إنها "**سِربيل**" عرّافة مملكة أبابيل..

لم يُخرج أحد منهم همسًا ولكن وجوههم أفصحت عمّا يدور داخل نفوسهم، إنهم يتساءلون عن سر حضور العرّافة لاجتماعهم السريّ ذاك تقدمت العرّافة حتى وقفت مقابل الملك وسألته:

- أأنت متأكد مما تريد فعله؟!

- لو لم أكن متأكدًا لما طلبتُ منكِ القدوم..

- حسنًا، أحضرها لي إذًا..

حمل عاصف ابنته من فوق الصخرة ووضعها برفق بين يدي العرّافة فما أن أحسّت الطفلة بأنها استقرّت بين يدَي شخص غير مألوف بالنسبة لها حتى تغضن وجهها وأوشكت على البكاء إلا أن والدها مسح بيده على رأسها وهمس يُطمئنها:

- لا تخافي، أنا هنا معكِ يا صغيرتي..

وبالرغم من أنها كانت أصغر سنًا من أن تفهم ما قيل لها للتو إلا أن صوت والدها الدافئ كان كفيلًا بأن يُهدئ من روعها، ويُنزل السكينة على قلبها..

**

بدأت العرّافة بفعل ما جاءت من أجله فقرّبت فمها من عند أُذن الطفلة وجعلت تُتمتم عليها بكلمات ذات نطق غريب وذات معنًى غير مفهوم..

فهمست الوزيرة خيزران التي فطنت لما كانت العرّافة تقوم به:

- رباه، إنها تُلقي عليها تعويذة المروج!!

سألها الشمالي:

- وماذا من شأنها أن تعمل تلك التعويذة؟!

- يريد عاصف أن يتأكد مما إذا كانت ابنته هجينة مثله أم لا..

**

تدخل أيوب:

- ليس هذا بالتحديد ما جئناكِ من أجله يا سِربيل..

قالت وقد نفد صبرها:

- هلّا توقفتما عن التحدث بالألغاز؟!

- إنه يُريدكِ أن تنتزعي قوتها في حال تبيّن لكِ أنها هجينة..

التفتت نحو عاصف وقد اعترتها الدهشة:

- ولماذا تريد انتزاع القوة من قلب ابنتك؟!

امتنع عن الإجابة؛ لقد كان يخاف أن يكون القدر قريبًا منه تلك اللحظة فيختلس السمع للكلام الذي سيقوله لها ذلك أنه عاش من المصائب ما يكفي ليُدرك أن الأقدار تَحيك لنا كُل المخاوف التي في لحظة ضعف نضطرّ للبوح بها..

أطالت العرّافة النظر لعينيه البُندقيتي اللون واللتين كانتا تعكسان بوضوح إضاءة اللهب المتراقص في مدفأتها، تمتمت وهي تحاول أن تقرأ فيهما الإجابة:

- أنت تخاف أن تموت..

رد عليها بنبرة صوت عاصية وكأنه يُبعد عن نفسه تُهمة خطيرة:

- نحن لا نخاف الموت، بل نخاف على الذين سوف يضيعون من بعدنا إن مُتنا..

كان في عينيه الكثير من التوجس والقلق مما جعل قراءة العرّافة لهما أمرًا صعبًا، ورغم هذا إلا أنها لم تستسلم وأعادت التفتيش فيهما عن الإجابة الصحيحة..

قالت بعد أن وجدت ما كانت تبحث عنه:

- أنت تخاف أن تموت فيقوم أحدهم باستغلال قوة ابنتك لتحقيق أطماعه الشخصية، تمامًا مثلما فعلت جدتك تاج معك واستغلت قوتك عندما كنتَ صغيراً..

لم يعلّق على نبوءتها فكان صمته ذاك دليلًا كافيًا يؤكد لها أن ما قرأته في عينيه كان صحيحًا.. قالت:

- لقد سُميّ الماضي بهذا الاسم يا ولدي؛ لأنه لا ينتهي عند الأمس كما يعتقد البعض بل لأنه يمضي سائرًا في يومنا الحاضر وفي مستقبلنا..

ثم سألت وهي تقلب بيدها الحطب في مدفأتها:

- وأين سيكون الاجتماع الذي سيُعقد ليلة الغد؟!

أجاب أيوب:

- سنُقيمه داخل إحدى قاعات القصر..

- لا.. اجعلاه عند صخرة الميعاد المُقدسة - وأضافت تُبرر اقتراحها: فهكذا كان يفعل جبّار مع كُبراء العائلة، كلما أراد الاجتماع معهم لأمر مهمّ..

تبادل أيوب مع عاصف نظرة قصيرة كما ليقيس بها مدى رضاه عن ذلك الاقتراح، وعندما لم يعلّق عاصف بشيء اعتبرها أيوب إذنًا بالموافقة فقال:

- لا بأس.. سنقيم الاجتماع عند الصخرة..

أشارت العرّافة لهما نحو الباب وهي تحرك يدها في علامة انصراف وتقول:

- تستطيعان العودة من حيثُ أتيتما، سأحضر اجتماع ليلة الغد..

**

بعد أن غادرها عاصف وأيوب بوقت ليس بطويل طرق أحدهم باب الكوخ.. وحين فتحت العرّافة الباب وجدت شخصًا هزيلًا كان يقف أمامها، يرتدي ثيابًا مُهلهلة ويُخفي رأسه تحت قلنسوة قماشية ثقيلة الطبقة..

تعجبت العرّافة من المنظر وسألت بحذر:

- من؟!

نزع ذلك الشخص القلنسوة القماشية عن رأسه فتحرر شعره الطويل وانساب كشلال ليل فوق كتفيه.. تفاجأت العرّافة مما رأته أمامها فذلك الشخص لم يكن رجلًا بل كانت فتاة..

نظرت إليها مليًّا قبل أن تسألها:

- ما الذي جاء بكِ؟!..

٥

كوبرا أفعى الجن تارا

بالعودة لصخرة الميعاد المُقدسة:

كانت وجوه الجميع – باستثناء أيوب – مُصابة بالدهشة بعد ما سمعوا الملك يطلب من العرّافة ذلك الطلب الغريب حتى أنهم لفرط الدهشة راحوا يتهامسون فيما بينهم عما إذا كان ما سمعوه للتو حقيقيًا أم أنهم كانوا يتوهمونه..

بدت الملكة سرابي غير راضية ولكنها في الوقت ذاته كانت تضبط تعابير وجهها بشكل جيد؛ مما أوحى للجميع أنها أيضًا كانت تعلم بشأن ذلك القرار..

أما الحكيم فإنه كان الشخص الوحيد بينهم الذي يُدرك مدى خطورة تلك الخطوة على الطفلة؛ إنها لا تزال صغيرة جدًا وقد لا يحتمل جسدها كُل هذه التعاويذ، قال بصوتٍ عالٍ وهو يأخذ خطوة للأمام:

– لحظة، أنا لست موافقًا..

ومع تقدم الحكيم تقدم الشمالي خطوة حتى أصبح يقف كتفًا بكتف إلى جانبه، هو لا يعرف ما كان يدور داخل رأسه ولكنه يعرف جيدًا أن الصداقة تعني أن يقف الصديق بجوار صديقه أولًا، والأسئلة تُطرح لاحقًا..

أجاب عاصف مُنهيًا النقاش قبل أن يبدأ:

- هذه ابنتي وأنا أعرف بمصلحتها أكثر من أي شخص آخر..

رد عليه الحكيم بعناد:

- وأنا أقسمتُ قبل قليل على حمايتها..

وأضاف صارخًا دون أن يضع اعتبارًا إلى أنه كان يُخاطب الملك:

- ولن أسمح لك بأذيتها حتى لو اضطررت لاستخدام القوة لردعك!!!

رغم برودة الطقس إلا أن تلك المشاحنة بينهما جعلت الجميع فجأة يشعرون بالحر..

أما عاصف الذي لم يتوقع إلى أي حد كان الحكيم يقصد حرفيًّا الكلام الذي نطق به للتو، فإنه التفت دون اكتراث نحو العرّافة وهمس لها:

- لا تهتمي لأمره، وافعلي كما اتفقنا..

- أمر جلالتك..

وهمّت العرّافة بالبدء بقراءة التعويذة..

وعندها لم يجد الحكيم حلًّا آخر غير تنفيذ تهديده فقام على حين بغتة بانتزاع السيف الطويل والأشبه بسيوف الساموراي والذي كان مُعلقًا على ظهر الشمالي وراح يهجم به باتجاه العرّافة دون أن يدع مجالًا لأحد بأن يوقفه..

لكن وقبل أن يقترب الحكيم منها بالشكل الكافي الذي يُتيح له تسديد طعنة مباشرة لها كان هناك شيء خاطف وسريع وحاد ضربه بقوة من الخلف وجعله يُفلت من يده السيف ويسقط على وجهه أرضًا والدماء تتفجر من ظهره:

إنه طائر العنقاء إكليل والذي لم يكن ليسمح لأحد - أيًّا كان - بأن يهاجم ضيف الملك..

لم يحتمل الشمالي بشاعة ما حدث أمامه فاعتراه الغضب والتقط سيفه بحركة سريعة من فوق الأرض، وقام بالهجوم على عاصف لأنه هو من أعطى الإذن لطائر العنقاء بمهاجمة الحكيم..

وهناك وجد عاصف نفسه متورطًا بضرورة وضع حد لتلك الحماقات صحيح أنهم أصدقاؤه ولكنه إن لم يقم بوضع حد لهم فإن هيبته كملك ستتحطم أمام الجميع؛ لهذا اصطبغت عينه اليُسرى باللون الأحمر القاتم وبرزت أنيابه ومخالبه المعقوفة، وراح يركض باتجاهه شانًّا عليه هجومًا مُضاد يتبعه طائر العنقاء من السماء..

لكن وقبل أن يصطدم الجميع ببعضهم البعض وتنشب بينهم معركة لا أحد يعرف كيف ستنتهي، كان هناك مخلوق أسود مخيف قد خرج فجأة من بين الأشجار واعترض طريقهم إنها: "**كوبرا أفعى الجن تارا**"..

كشرت عن أنيابها في وجوههم وقالت بفحيح مرعب:

- **أوقفوا هذه اللعبة حالًا أيها الأولاد!!**

توقف الجميع مكانهم ولم يجرؤ أحد منهم على أن يفعل شيئًا من شأنه إثارة غضبها..

هرول الشمالي نحو الحكيم ليطمئن عليه:

- أيها الحكيم هل تسمعني؟!

لم يكن الحكيم باستطاعته أن يتكلم لأن فمه كان ممتلئًا بالتراب وبعض قطرات الدم ولكنه حرك رأسه دليلًا على الاستجابة..

قال له الشمالي وهو يُعينه على النهوض:

- أسند ذراعك فوق كتفي سنغادر، فلم يعد لنا مكان هنا.

لقد كان جرحه مُضاعفًا؛ ذلك أن الخيبات تكبر ويتضاعف حجمها بمقدار حُبنا لليد التي تسببت لنا فيها..

ورغم أنه كان بحاجة للمساعدة كي ينهض من مكانه، إلا أن كبرياءه كان أكبر فتمتم بصعوبة هامسًا:

- لا عليك، أستطيع النهوض وحدي..

التفت الشمالي نحو أيوب وسأله معاتبًا:

- نحن أصدقاؤك أيضًا يا أيوب، هل ترضى أن يعتدي أحدهم على أصدقائك؟!

لم يُجب أيوب، فصرخ عليه الشمالي:

- لم أعهدك جبانًا، تكلم!!

هز أيوب رأسه نافيًا وهمس: لا أرضى..

قال له الشمالي:

- تعال معنا إذًا سنغادر هذا المكان، ونعود لقرية الجساسة..

صحيح أن أيوب أصبح مؤخرًا لا تعجبه بعض تصرفات عاصف وأنه بات في أحيان كثيرة يشعر بأنه يتعامل مع شخص غريب لا يعرفه إلا أنه كان مضطرًّا للبقاء معه..

ليس من أجله بل من أجل والديه "**جومانا وبحر**" واللذين رغم رحيلهما عن الدنيا، إلا أنه كان يعتقد أنهما ينظران إليه من الأعلى عند بداية كُل فجر جديد، ويطلبان منه بحق رابطة الصداقة التي جمعتهم قديمًا أن يعتني بابنهما الوحيد..

سأله الشمالي:

- هل سترافقنا أم تبقَى هنا؟!

- بل أبقَى..

تمتم الحكيم وهو يتكئ على ذراعيه ويهم بالنهوض:

- لا بأس أيتها الغوريلا، ابقَيّ حيث تشائين..

وحين نهض من فوق الأرض واستوى واقفًا على قدميه نظر باتجاه عاصف بحقد، ثم بصق التراب من فمه ليُتيح مجالًا للحروف بأن تخرج بشكل واضح وقال:

- **هنا تنتهي صداقتنا..**

لقد آلمت تلك الكلمات عاصف؛ إنه يُحب أصدقاءه كثيرًا غير أنه يُصبح وحشًا كاسرًا لا مكان للعاطفة بقلبه حين يتعلّق الأمر بشأن ابنته.. كان يُريد أن يطلب منهما البقاء، لكنه حين فتح فمه وجد نفسه يقول: "افعلا مثلما تشاءان"..

وهكذا غادر الحكيم والشمالي نحو قرية الجساسة..

**

بدأت العرّافة طقوس انتزاع القوة فقامت أولًا بقراءة طُلسم بسيط تسبب في تنويم الطفلة، ووضعتها بعد ذلك فوق التراب ورسمت حولها خطًّا دائريًّا بأصبعها ثم بدأت بتلاوة تعويذة لاستدعاء:

"يا رَاعي ذِي شَلَّع وَذي .. بِحق مَن وَليتني،

وأَمرِ أُشعوذة ولي .. من أَرضكم لأرضنَا

طوفوا إلي"

وظلت ترددها مرات ومرات حتى بدأت حبات الحصى بالاهتزاز من تحت أقدام الجميع وما هي إلا لحظات حتى انشقت الأرض وانبثق فجأة منها ثلاثة رؤوس حمراء كبيرة تُشبه اليقطين: إنهم ثلاثة من خدّام الجن وقد جاؤوا يلبون النداء..

صعدوا فوق الأرض وأخذوا يطوفون حول الأميرة النائمة وهُم يهزون أجسادهم مثل كلاب مسعورة أُصيبت فراؤها الجرباء بالبلل ويرددون بصوت واحد مُخيف هذه الترنيمة ذات الكلمات الست:

"من أرضنا لأرضكم جئنا نُلبي أمركم"

واستمروا يرددون تلك الكلمات وهم يطوفون حولها بتلك الطريقة الملعونة حتى أُضيء الخط الدائري الذي كانت ترقد الأميرة وسطه بلون أزرق وهّاج..

وبعد لحظات قليلة بدأت عروق زرقاء دقيقة تُشبه خيوط البرق تنتشر في كُل شبر من جسدها وهي لا تزال نائمة لا تشعر بما يحدث لها..

**

أخيرًا وحين انتهت تلك الطقوس وعاد الخدّام الثلاثة للمكان الذي جاؤوا منه حملت العرّافة بين يديها الطفلة ورفعتها عاليًا أمام الجميع وقالت تُعلن لهم الخبر بصوت مُهيب:

- **لقد أصبحت أميرتكم إنسية..**

نظر عاصف إليهم فردًا فردًا كما ليتأكد أن المعلومة تلك وصلتهم جميعًا؛ فيعرفوا أن ابنته أصبحت عادية ولا تملك قوة يمكن لأحد استغلالها في المستقبل..

وحين تأكد من ذلك جاء الدور ليأمرهم بالخطوة التالية:

- جهزوا الجيش، سنتحرك عند الفجر..

أخيرًا وعندما لم يعد هُناك حاجة لبقاء العرّافة أكثر، فإنها حملت الطفلة نحو والدتها ووضعتها برفق بين يديها وقالت لها:

- ضعي الحليب في فمها وأسقيها الكثير من الماء، ابنتكِ مُرهقة ولن تسترد عافيتها قبل سبعة أيام..

كان من المفترض أن تنصرف العرّافة بعد تلك الجملة لكنها ظلت تُحدق النظر في عينيّ سرابي لبعض الوقت كما لو أنها بتلك النظرة كانت تُريد إخبارها بأمر هام ثم انصرفت..

وربما بسبب الإنارة الغير كافية في المكان فإن أحدًا لم ينتبه للسر الخطير الذي كان ينطوي خلف تلك النظرات بين العرّافة والملكة غير شخص واحد فقط:

"كوبرا أفعى الجن تارا"..

٦

الوعد

بعد الانتهاء من تلك الليلة الصعبة وفي الجناح الملكي لقصر الحكم وضع عاصف ابنته فوق السرير وغطاها بلحاف ثقيل كي لا يتسلل البرد الشديد إليها..

أخذ يتأملها لوقت طويل وكأنه أراد الاحتفاظ بصورة لها في الذاكرة؛ فيتحصن بها كلما كشَّرت له وحوش الحنين عن أنيابها.. إنه يُحبها للحد الذي كان مستعدًّا معه أن يوقف تدفق الهواء عن الأرض لو أنه شعر فقط بأن الهواء قد يؤذي عظامها..

أحنى رأسه مقتربًا منها وأخذ ينشق رائحة الياسمين العالقة فوق جلدها، كان يؤمن في أعماقه بأنه إذا ما مات يومًا فإن رائحة الياسمين تلك ستكون كفيلة بأن تبعثه للحياة مرة ثانية..

همس في أذنها:

- تذكري طوال عمركِ يا بُنيتي أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه..

وصمت للحظات يُنصت لهدير أنفاسها المنتظمة يخالها تسأله بصوتها الملائكي اللطيف: "أي دعوة يا أبي؟!".. طبع قبلة على جبينها الصغير وقال:

- نعم أي دعوة..

حين انتهى من توديع ابنته التفت ينظر نحو زوجته التي كانت تقف بالقرب منه وتُرسل إليه نظرة تطالبه فيها بالبقاء وعدم الرحيل:

- لماذا لا ترسل الجيش وتبقَى هنا معنا؟!

قال لها بحنو:

- ليت هذا ممكنًا ولكني لا أستطيع يا سرابي.. لا أستطيع أن أطلب من الجنود توديع عوائلهم وديارهم والزج بأنفسهم نحو الخطر بينما أبقَى أنا هنا في انتظارهم حتى يعودوا..

- ولكني أخاف عليك من الأذى..

قال بلهجة مرحة كي يهوّن عليها الأمر ويطرد عنها مخاوفها:

- لا تقلقِي فعندما يراني الأعداء سوف يستسلمون فورًا بدون قتال، يبدو أنكِ تنسين مدى قوتي..

- مهما كنتَ قويًّا لن يطمئن قلبي إلا إذا كنتُ معك - ثم أردفت قائلة كما لو أنها استحسنت فكرة ذهابها معه:

- لماذا لا تأخذني معك للمعركة، أنا قوية مثلك أيضًا .. انظر..

وبدأت أمامه تفتعل بعض الحركات القتالية الغريبة والتي لم تكن لتثير إلا رغبته في الضحك.. ثم ولتُبرهن له أكثر على مدى قوتها فإنها تناولت من خَزينة السلاح خاصته سيفًا.. أمسكته بكلتا يديها وبدأت تتخيل أمامها خصومًا وهميين يهاجمونها فتقاتلهم وتنتصر عليهم..

ولم تتوقف عن فعل ذلك إلا عندما فقدت توازنها فجأة فأُفلت السيف من يديها وكاد أن يسقط عليها فيؤذيها لولا أن قام عاصف باجتذابها نحوه بسرعة وأنقذها..

تمتمت بحياء وهي تدس وجهها في صدره:

- لقد فقدتُ توازني ليس أكثر، أرجوك خُذني معك..

- أنا أستمد قوتي منكِ يا سرابي - قال ذلك وأضاف: بقاؤكِ هُنا لا يقل أهمية عن المشاركة في المعركة، سأكون أكثر اطمئنانًا لو أنكِ اهتممتِ بابنتنا جومانا.. اتفقنا؟!

هزّت رأسها بحزن ورسمت على شفتيها كلمة اتفقنا..

لم يكن عاصف يملك الخبرة في التعامل مع الإناث فزوجته سرابي كانت أول فتاة يتعامل معها.. إنه يتمنى في تلك اللحظة لو أنه يستغرق في تقبيلها من شفتيها غير أنه يجهل فعل ذلك خارج حدود العلاقة الحميمية..

انسحب من أمامها كي يُخفي حرجه عنها وذهب نحو زاوية الجناح حيث توجَد الخزينة الخشبية التي تحوي أسلحته الخاصة وهو يقول:

- يجب أن أبدأ بارتداء أسمال الحرب، فبعد قليل سنتحرك بالجيش..

نزع من فوقه الجُبة الحريرية التي كان يرتديها وبقِيَ جسده عاريًا إلا من قطعة قماش قصيرة كان يُغطي بها ما بين فخذيه..

لحقت به سرابي إلى هناك وهمست له:

- دعني أُساعدك..

اختارت له من الخزينة زيًّا صُنع من جلد الثعبان، ثم غطت أكتافه العريضة بمعطف طويل مَحُاك من فرو الماعز ليُبقي جسده دافئًا وسط الطقس البارد..

وحين انتهت من مساعدته على ارتداء اللباس قالت:

- جاء وقت الدروع..

- لا أحتاج للدروع؛ إنها تجعل جسدي ثقيلًا في الحركة..

- ولكنها تُبقيه آمنًا، ارجوك ضعها من أجلي..

هز رأسه وهو يُتمتم: لأجلكِ فقط..

وضعت سرابي على صدره درعًا حديديًّا مُجوفًا كان حدادٌ من الجن قد فصّله على مقاسه ليغطي كامل الصدر والبطن ويُثبت بواسطة أحزمة جلدية تُشد على الظهر..

وبينما كانت منشغلة بتحصين جسده بالدروع كان هو يراقبها بافتتان ويتمنى لو أنه يُجيد نظم الشعر أو التعبير بالكلمات ليُخبرها لأي حدّ هو مجنون بها..

لقد أرادِ في تلك اللحظة أن يقول لها إنها **غيمته المُمطرة عندما تجف كُل بحور الأرض ويهلك جميع من في العالم عطشًا**.. لكنه لم يستطع قول ذلك ليس لشيء عدا أنه لم يكن يعرف كيفية ترتيب الجملة وصياغتها بالشكل الذي يضمن له ألَّا يجعل شكله أضحوكة أمامها..

أنه ممتن لوجودها بالقرب منه ليس لأنه يُحبها فقط؛ بل لأنها وسط كُل الدمار الذي يحاصره والخراب كانت هي الشيء الوحيد الذي يُبقيه ثابتًا ويمنعه من السقوط والانهيار..

- لقد جاء وقت الخوذة..

قالت سرابي ذلك وهي تُخرج الخوذة من الخزينة..

ثم وقفت على أطراف أصابع قدميها كي تصل بالخوذة لمستوى رأسه ولكنها كانت أقصر قامة من أن تستطيع فعل ذلك دون مساعدة؛ فركع عاصف على ركبة واحدة..

حين بات رأسه في متناولها أدخلت فيه الخوذة وسوّتها عليه حتى أصبحت ثابتة مكانها ثم تراجعت ثلاث خطوات للوراء وأخذت تتأمله بشكل كامل - من رأسه لأخمص قدميه - كأم عند فجر العيد تتأكد مما إذا كان هناك شيء ينقص زينة ابنها..

هتفت:

- لقد عرفتُ ما ينقصك..

ثم اتجهت نحو تسريحتها وأحضرت قارورة زجاجية بداخلها سائل ثقيل بنفسجي اللون..

قال وهو يُشاهدها تقترب منه وفي يدها تلك القارورة:

- أنتِ لستِ جادة في ذلك، أتنوين تعطير محارب ذاهب لمعركة؟!

- أثمَّة قانون يمنع ذلك؟!

صمت؛ إذ أنه لا يعرف كيف يشرح لها أن الذاهبون للموت لا يضعون العطر خوفًا من أن تغري رائحتهم الموت فيخطفهم:

- حسنًا - تمتم مستسلمًا: افعلي كما تشائين..

والابتسامة مُرتسمة على وجهها خضَّبت سرابي لحيته الكثيفة ببعض قطرات من زيت زهرة السوسن، ثم مررت العطر على عُنقه ووجهه الجميل الحاد الملامح والذي بدا لفرط قسوته وكأنه نُحت بواسطة شفرة موس دقيقة..

وحين انتهت همست كالمنتصرة:

- رائحتي باتت عالقة فيك؛ هكذا تحارب وأنا معك..

كانا قريبيّن من بعضهما تلك اللحظة حدَّ أن كُل واحد منهما كان يأخذ شهيقه من زفير الآخر.. إنه لا يزال يريد أن يهبط بشفتيه على غُصن شفتيها كطائر مهاجر عاد لعشّه الأول ولكن لأنه لم يكن يملك الذريعة المناسة فإنه لم يفعل؛ لقد كان صغيرًا في الحُب ولا يُدرك أن أكثر الأفعال جمالًا فيه هي تلك التي تُقترف دون مناسبة أو سبب..

سألته بعد لحظات:

- أتعدني أن تعود بخير؟!

- لا داعي للقلق إنها ليست المرة الأولى التي نخوض فيها حربًا..

ألحّت بسؤالها:

- أتعدني أن تعود بخير؟!

قال بتأنٍّ وكأنه يشرح لطفلة صعوبة إعطائها ما تُريد:

- للحرب أحكامها يا سرابي، وفي الحرب لا تُقطع الوعود..

- كنت على الأقل تستطيع أن تكذب لكي تُطمئنني عليك..

- آسف - قال - أنا لا أُعطي وعودًا زائفة..

قالت ببراءة لتُغريه بالعودة:

- **إن عُدت، سأعطيك قُبلة..**

كان سيبتسم لبراءتها في وقت آخر ولكنه لفرط حُبه لها عبرته رعشة الخوف عندما تخيل المصير المجهول الذي ينتظرها وينتظر ابنته لو أنّ مكروهًا ما أصابه في المعركة، فأمسك رأسها بكلتا يديه وقال بصوت مُتهدّج:

- إن حدث لي مكروه..

قاطعته بانفعال:

- لا تقل ذلك، لن يُصيبك شيء!!

أغلق فمها بيده وصرخ عليها وعينه اليُسرى تومض باللون الأحمر من خلف الخوذة الحديدية التي كانت تُغطي أغلب ملامح وجهه:

- إن حدث لي مكروه يومًا ما يا سرابي فخذي معكِ جومانا، واهربي بها بعيدًا لمكان آمن تستطيعان فيه بدء حياة جديدة.. اتفقنا؟!!

أبعدت يده عن فمها:

- ألم تقل إنه لا داعي للقلق؟!!

قال بنبرة جادة حنونة:

- نعم قلت.. ولكننا لا نعلم ما الذي تُخبئه السماء لنا، ولا نُدرك خلف أي صخرة لعينة ينصب لنا الموت كمينه..

ثم قال وكأنه يُملي عليها وصيته الأخيرة:

- إن لحق بي مكروه.. لا أريد لحياتكِ أن تتوقف؛ فهذه الحياة وإن بدت في بعض لحظاتها قاسية وكئيبة ومملة إلا أن فيها الكثير من الأشياء الرائعة والتي تستحق منّا أن نواصل الاستيقاظ كُل يوم من أجلها..

ثم كف عن الكلام، لكن عينيه قالت لها من خلف الخوذة الحديدية:

"اصنعي معروفًا في حق هذا العالم وابتسمي دائمًا؛ فأنتِ لا تعرفين أي ظلام أبدي دائم سيغرق العالم فيه لو أن ابتسامتكِ الزاهية انطفأت عنه يومًا"

سألها:

- أتعدينني أن تكوني بخير في غيابي؟!

- آسفة - قالت - أنا لا أعطي وعودًا زائفة..

عانقها بكل قوته كما لو أنه بذلك العناق أراد إدخالها جسده وتخبئتها في مكان قصي لا تطاله يد الأذى أبدًا وتساءل بينه وبين نفسه وهو في حضنها: "لماذا يبدو الكون.. كُل الكون ضيقًا من غيرها، ولماذا في ضيق حضنها ينطوي اتساع العالم"..

سألت:

- ماذا أفعل حين أشتاق إليك؟!

مُستحضرًا إجابة قديمة كان قد سمعها من والده ذات مرة همس في أُذنها قائلًا:

"غني لي يا سرابي، غني وسيحضر طيفي ليراقصكِ"

**

في تلك اللحظة قطع عناقهما صوت نقر على باب الجناح تلاه الصوت الأبح لنداء أمين السر وهو يقول من وراء الباب مستأذنًا:

- أيها الملك الجميع في انتظارك لبدء وضع الخُطة..

ابتعد عاصف عنها وسار متجهًا نحو الباب قام بفتحه لكنه قبل أن يغادر التفت ينظر إليها فابتسمت له وسط دموع خوفها وقلقها.. تردد قليلًا وكأنه تاه ما بين ثغرها وعينيها..

وقرر في تلك اللحظة أنه سيتحدَّى الأخطار وكُل الظروف وأحكام الحروب وسوف يبذل كُل ما بوسعه ليعود إليها بخير، ابتسم لها بلطف وقال قبل أن يغادر:

- **جهزي قبلتكِ، أنا عائد من أجلكِ..**

الباب الثاني



١

طبول الحرب

قبل بزوغ الفجر بساعات قليلة كان الجميع يجلسون حول طاولة حجرية كبيرة منصوبة في إحدى قاعات القصر بانتظار قدوم الملك للبدء برسم الخطة..

لحظات ثم يُفتح باب القاعة ويدخل عاصف القاعة وقد كان أيوب يسير إلى جواره بينما طائر العنقاء إكليل يطفو في الهواء فوقهما..

جلس فوق كُرسي مُنتصب عند قمة الطاولة بعد أن نزع عن رأسه الخوذة ووضع جانبًا الترس الحديدي الذي كان يُمسكه والأشبه بصدفة سُلحفاة كبيرة..

نهض أحد كُبراء عائلة الأباطرة واسمه "**بُركام**" وقام باستعراض رقعة جلدية قديمة مرسوم عليها بحبر أسود متآكل خريطة مملكة أبابيل وقال:

- سننزل بالجيش كله لملاحقة الأعداء - وأضاف متوعدًا: وسوف نحرق كُل شجرة يختبئون خلفها، ونُدمر كُل قرية أو بيت أو رقعة أرض يقفون عليها..

لم يكن الأباطرة معتادين على التعامل مع الحروب الداخلية؛ لذلك فإن خطة الأرض المحروقة التي وضعوها لم تكن جيدة بما فيه الكفاية لضمان نجاح المهمة وهذا ما دفع أيوب لأن يعترض:

- هذه الخطة مليئة بالثغرات..

التفتت رؤوس الجن نحوه فقال لهم موضحًا:

- نحن نواجه عدوًّا ينتشر فوق أرضنا، وهذا يعني أننا سوف نتقاسم معه ألم كُل ضربة نوجهها إليه..

في تلك اللحظة اقتحمت عليهم الاجتماع الجنية "**سُندس**" وقد بدا وجهها الطويل المُجعد غاضبًا لأنها ورغم كونها من أحد كُبراء العائلة إلا أنها لم تُستدعَ للحضور..

علّقت بنبرة صوت من جاء يبحث عن المشاكل:

- انظروا إلى أين وصل بكم الذُّل والعار يا كُبراء الأباطرة، لم يكن ينقصكم إلا بشريٌّ أسود حقير يعترض على كلام أسياده الجن ويضع لكم خططًا تسيرون عليها!!

ضرب عاصف الطاولة الحُجرية بقبضة يده ليمنع اللغو في ذلك الكلام، ثم قال وهو يتفادى النظر لوجهها ولكن من الواضح أنه كان يعنيها بكلامه:

- من يرى أنه يشعر بالذل والعار، يستطيع مغادرة هذا المكان..

لم تُغادر سُندس بل انتبذت لها كرسيًا حول الطاولة الصخرية وجلست عليه، وقد بدت أنها ستفتش طوال فترة حضورها عن المزيد من المشاكل..

وحين هدأ الوضع بعد قليل، أكمل أيوب الخطة قائلًا:

- يجب أن ينقسم الجيش لفيلقيْن.. **الفيلق الأول** تكون مهمته اصطياد الأعداء..

قاطعته سُندس بطريقة مُتعجرفة:

- وأين يذهب الفيلق الثاني أيها الأسود؟!

لم يكن أيوب يُحب تعليقات الحكيم غير اللائقة أخلاقيًا لكنه تمنى تلك اللحظة لو أنه كان حاضرًا معهم الاجتماع فقط من أجل أن يُخبر الجنية سُندس بطريقته البذيئة القليلة الأدب عن أي مكان في جسدها سيذهب إليه الفيلق الثاني..

صمت لبعض الوقت ريثما يضبط أعصابه ثم أجاب بأدب:

- **الفيلق الثاني** سوف يبقى يا سيدة سُندس فوق جزيرة الأرباب؛ لحماية القصر من احتمال أي هجوم مضاد قد تشنه تلك القوات المُرتزقة عليه أثناء غيابنا..

أمسك عن الكلام قليلًا لكن من الواضح أن خطته لم تنتهِ بعد، قال بعد لحظات وهو يرسل إليهم نظرات تحذيرية كما ليدلل بها على أهمية ما هو بصدد قوله:

- إننا أيها السادة لا نواجه جيشًا منظمًا، بل نواجه مجموعة كبيرة من عصابات الإنس والجن المدربة بشكل جيد وماهر على القتال..

قاطعته سُندس قاصدة أن تظهره كالجبان أمام البقية:

- لا تقلق فمهما تكن قوتهم كبيرة سنكون لهم بالمرصاد..

متجاهلًا نيتها في التشكيك بشجاعته، أكمل أيوب قائلًا:

- سوف يكون الفيلق الأول كبيرًا ومكشوفًا للأعداء؛ لذلك فإنه سوف يكون من السهل عليهم توجيه الضربات إليه والهرب قبل أن تتعامل قيادة الفيلق معهم..

سأله عاصف: وماذا تقترح لحل هذه المشكلة؟!

أجاب: يجب أن نحدد معهم ساحة للقتال جلالتك..

وهُنا تدخلت الجنية سُندس مجددًا:

- يبدو أنك تقول كلامًا وتنساه، ألم تقل قبل قليل إننا لا نواجه جيشًا منظمًا؟!.. فكيف تُريد منّا إذًا أن نُحدد معهم ساحة للقتال؟!

أخفض أيوب صوته قليلًا وكأنه يخشى من أن تسمع الحيطان الكلام الخطير والحساس الذي سيقوله فتشي به للأعداء:

- سوف نصطادهم كما تصطاد الكواسر طرائدها..

وأردف يشرح لهم الخطة بذات نبرة الصوت المنخفضة:

- صحيح أننا نواجه عصابات من القوات المُرتزقة والمتفرقة ولكننا نعلم جيدًا الرابط الوحيد الذي يشتركون فيه، إنهم جميعًا يسعون لقطف رأس الملك ونحن سنقدمه لهم كهدية..

سألت الوزيرة خيزران باهتمام وانتباه:

- ماذا تقصد بأننا سنقدمه لهم كهدية؟!

أجاب وهو يشير بإصبعه الضخم كما حبة الكوسة على منطقة في شمال الخريطة تُسمى "**مزَار الشُّهب**".. وهي قطعة أرض واسعة ومُنبسطة تحفها الجبال العالية والبحيرات وتتميز بكونها بعيدة عن المدن والقرى المأهولة بالسكان وقال:

- سوف نُطلق إشاعة تقول إن الملك سيعبر من منطقة "مزَار الشُّهب" ومعه فصيل صغير من الحراسة.. هذه الإشاعة ستكون كفيلة بأن تجعل الأعداء.. كُل الأعداء يتجهون إلى هُناك للنيل من الملك دون أن يخطر في بالهم أنهم ذاهبون لمصيدة الموت..

وأضاف مُختتمًا الخطة:

- بهذه الطريقة أيها السادة نحن لا نحدد معهم ساحة القتال فقط، بل ونحدد معهم أيضًا الزمن الذي سوف تبدأ فيه معركتنا..

كان صمتهم يشي برضاهم عن الخطة غير أن ذلك الصمت لم يستمر طويلًا حتى تساءلت الجنية سُندس وهي تنظر نحو الملك:

- من ستعيِّن لقيادة كُل من الفيلق الأول والثاني؟!

أجاب سريعًا وكأنه قد اتخذ قراره أثناء ما كان أيوب يشرح الخطة:

- أنا سأقود الفيلق الأول الذي سيخرج لمطاردة الاعداء، أما الفيلق الثاني والذي سيُرابط فوق الجزيرة لحماية القصر فسوف تقوده الوزيرة خيزران فهي صديقتي وأنا أثق بكفائتها للقيام بهذه المهمة..

قالت سُندس معترضة:

- ولكنك لم تترك لي دورًا مهمًّا للقيام به..

- ومن قال لكِ إنكِ لا تملكين دورًا مهمًّا للقيام به؟!

لقد أرضى كلامه غرورها فتساءلت في زهو وافتخار:

- ماذا سوف تكون مهمتي؟!

قال لها جادًّا:

- البقاء محبوسة في إحدى زنازين القصر السُّفلية؛ فأنا لا أثق بكِ..

حسب التراتبية الملكية لعائلة الأباطرة كان يُفترض أن تصبح سُندس هي الملكة بعد وفاة جبّار ولكنه حرمها ذلك حين أوصى بخلافة العهد لحفيده عاصف؛ لهذا السبب كانت طوال الوقت تَحيك له الدسائس والمؤامرات كي تُزيحه عن العرش وتأخذ ما تظنه حقًّا من حقوقها..

ولهذا السبب أيضًا لم يكن هو يطمئن لها بشكل عام، وبالتالي فإنه استبعد مشاركتها في المعركة وقرر حبسها في إحدى زنازين القصر السُّفلية كي يضمن أنها لن تُقدم على شيء يُفسد الخطة..

لقد جرحها في كبريائها لا شك إلا أنّها كانت تملك من الدهاء ما يجعلها ترد له الجرح بحركة بسيطة.. قالت وهي تنهض من فوق كرسيها:

- يبدو أن أمك قد أغفلت تعليمك احترام من هُم أكبر منك سنًّا عمومًا عندما تعود من معركتك هذه سأُخصص لك حصة من وقتي لأُعيد فيها تربيتك من جديد..

لقد نجحت في استفزازه فتحولت عينه اليُسرى للون الأحمر القاتم، وكاد أن يُهاجمها لكن أيوب أمسكه من يده في آخر لحظة وهمس له في أذنه ناصحًا:

- لا تسمح لها أن تستفزك بالكلام إنها تحاول جرّك لقتالها؛ تريد أن تُحدث بذلك انقسامًا بين صفوف العائلة..

ولكنه لم يُصغِ إليه وانطلق بسرعة نحو سُندس حتى وقف أمامها، كوَّر قبضته فيما يُشبه اللكمة وأعادها للخلف كي يكون اندفاعها مؤثرًا حين ترتطم بجسدها.. ثم أطلقها..

ولكن قبل أن تصل اللكمة لهدفها كان أيوب قد ظهر أمامه وأوقف انطلاقها ثم قال:

- كُبراء العائلة قد يغضون الطرف عن حبسك إياها، ولكنهم لن يرضوا عن هجومك عليها وسوف يُسبب ذلك الأمر انقسامًا بين الصفوف مما سوف يجعلك ضعيفًا في المعركة..

هدأ عاصف حين سمع ذلك الكلام واقتنع به وعادت عينه للونها الطبيعي، لقد تنازل عن فكرة الهجوم عليها لكنه بالتأكيد لم يتنازل عن حقه في الرد:

- لقد كنتِ مع الذين أقسموا لجبّار على مبايعتي بالملك يا سُندس ومع ذلك فإنه حين مات حنثتِ بقسمك وحاولتِ عزلي - ثم رفع صوته أكثر وهو يقول الجملة التالية:

- وأمي قد علمتني أن أحترم الجميع، ولكنها علمتني أيضًا أن أطأ بحذائي على كُل حانث للوعد..

ولأنها تعلم بأن جولتها ستكون خاسرة مع الملك لا سِيَّما وأيوب يقف خلفه، فإنها ابتلعت ردها واكتفت بأن قالت بنبرة صوت من يُبطن أمرًا خبيثًا:

- معك حق، أنا لا أستحق إلا الوطء بالحذاء..

ثم غادرت مصحوبة بحراسة الجُند..

بعد مغادرتها القاعة عاد عاصف لمكانه، ارتدى الخوذة وتناول في يده الترس الحديدي الأشبه بصدفة سُلحفاة كبيرة وقال للذين حوله:

- لنتحرك، فهُناك الكثير من الطرائد تنتظرنا..

**

ما أن بدأت طبول الحرب تُقرع وينتشر في الأرجاء أثيرُها حتى ركضت سرابي نحو شرفتها المُطلة على الساحة الفسيحة المقابلة لأسوار القصر تتأمل جيوش الجن والإنس المُصطفين أمامها..

لم تستغرق وقتًا طويلًا كي تعثر عليه وسط كُل تلك الجحافل من الجنود، كان يكفيها فقط أن تنظر لرأس الجيش كي تراه منتصبًا فوق جواده الأبيض المُجنح "**سابح**"..

أما هو فإنه كان يعلم بأنها لن تفوت فرصة النظر إليه للمرة الأخيرة قبل انطلاقه، ولذلك فإنه عندما نظر بعد لحظات نحو شرفة الجناح كان واثقًا أنه سيكون على موعد مع عينيها: كانت تنظر إليه برجاء وكأنه وعد السماء، وكان ينظر إليها بشغف وكأنها العالم..

ورغم المسافة الشاسعة بينهما وهمهمات الجُند المتعالية وأصوات صهيل الأحصنة المُجنحة ودقات قرع الطبول المتتالية إلا أنه استطاع سماعها حين حركت شفتيها من لهفتها متسائلة:

- هل سيطول غيابك؟!..

ابتسمت لها شفتيه من خلف الخوذة الحديدية، هو لم يقل شيئًا ولكن نسمة هواء دافئة لامست تلك اللحظة بلطف أُذنيها فخُيل إليها أنها تسمعه يُجيبها قائلًا:

"لا، لأنكِ تحملينني في قلبك، كيف أغيب وأنا حاضر بين أضلعك؟!"

فابتسمت حياءً لوهمها اللذيذ..

وما أن فعلت ذلك حتى اعتبر عاصف ابتسامتها شارة الانطلاق؛ فركل بكعب قدميه خاصرة حصانه المُجنح سابح وصرخ معطيًا الأمر لفيلقه المكون من ثلاثين ألف مقاتل بالانطلاق..

***

ظلّت سرابي تشيّع زوجها ببصرها حتى اختفى مع فيلقه في الأفق وعندما لم يعد هناك داعٍ لوقوفها فترة أطول في الشرفة فإنها همّت بالدخول للجناح ولكنها ما أن التفتت للوراء حتى شاهدت أمامها شيئًا لم تكن تتوقع أبدًا أن تراه: لقد وجدت نفسها تقف وجهًا لوجه أمام كوبرا أفعى الجن تارا والتي كانت تحدق فيها بعينيها السوداوين المخيفتين..

٢

سرابي

تجمدت سرابي مكانها من شدة الهلع بينما زحفت إليها تارا وقامت بلف جسدها الضخم ذي الحراشف الدقيقة الخشنة حول جسدها بشكل أفعواني:

- دعينا نتحدث بشأن تلك النظرة التي استمرّت للحظات بينكِ وبين العرّافة..

أجابتها متظاهرة بالبراءة: إإإ.. إنها نظرة عادية

قرّبت تارا لسانها السام الطويل المُنتهي بشعبتين من عند أذنها، وقالت لها بأسلوب ساخر:

- عندما كنتِ ترضعين من ثدي والدتكِ أيتها الملكة، كان عمري قد ناهز السبع مئة عام فهل تظنين أن بمقدوركِ الكذب عليّ؟!!

"سبع مئة عام؟! إنه عمر طويل" هكذا فكرت سرابي في تلك اللحظة وفكرت أيضًا أن القصص التي تُحاك عن كوبرا أفعى الجن تارا والتي تقول إنها تحوي داخل جسدها على أرواح متعددة ربما تكون حقيقة وليست أسطورة..

قاطعت تارا حبال أفكارها: انظري لعينَيَّ وأخبريني..

نظرت سرابي لعينيها المُخيفتيّن: ماذا تريدين أن أُخبركِ؟!

- هل انتزعت العرّافة سِربيل القوة من قلب ابنتك، أم أنها لا تزال هجينة؟!

كانت تُدرك أنها لن تستطيع الكذب عليها فقالت معترفة:

- نعم، إنها لا تزال هجينة..

**

كان الخبر مفاجئًا لكوبرا أفعى الجن للحد الذي جعلها لا إراديًا تلف نفسها بقوة أكبر على جسد سرابي وتطرح السؤال التالي:

- كيف وقد شاهدها الجميع بمن فيهم أنا وهي تقوم بانتزاع القوة منها؟!

- حرري جسدي أولًا.. حرريه كي أتحدث معكِ.. إني أكاد أختنق يا تارا..

حررت تارا جسدها.. فأخذت سرابي بعض الوقت ريثما تستجمع أنفاسها، وبعد أن استعادت شيئًا من قوتها بدأت برواية القصة منذ البداية فقالت:

- أخبرني عاصف تلك الليلة أنه ذاهب برفقة أيوب للعرّافة كي يطلب منها انتزاع القوة من قلب ابنتنا؛ لذلك فإنهما ما أن غادرا القصر حتى قمتُ باستدعاء إكليل وطلبت منه أن يُرافقني..

- يُرافقكِ إلى أين؟!

- إلى جبل غُراب؛ كي أُقابل العرّافة أنا أيضًا..

في تلك الليلة وبعد مغادرة عاصف وأيوب القصر، قامت سرابي باستدعاء طائر العنقاء إكليل الذي لم يتأخر في القدوم إليها..

قال وهو يهبط أمامها ويطوي جناحيه إلى جسده:

- كيف أخدمكِ يا سيدتي؟!

- سوف تعدني أولًا أنك لن تخبر عاصف بما سأقوله لك..

كانت سرابي تُدرك أن طائر العنقاء لا يُخفي شيئًا على سيده لذلك فإنها أردفت تقول بنبرة متوسلة: أرجوك يا إكليل فأنا لا أستطيع الاعتماد على أحد آخر غيرك..

- حسنًا أعدك - وأضاف لكي يكون واضحًا منذ البداية: ولكن هذا لا يعني أني أوافق على المساعدة، والان اخبريني ما الأمر..

- عاصف.. يريد انتزاع قوة النار من قلب جومانا..

- وهل هي هجينة؟!

- نعم، ولكنه ليس متأكدًا من هذا الأمر..

- وأنتِ كيف تأكدتِ من أنها هجينة؟!

قالت معترفة:

- إنها تنمو بشكل أسرع من الأطفال العاديين، ثم إن عينها اليُسرى أحيانًا وبدون سبب واضح تتحول للون الأحمر مثل اللون الذي تتحول إليه عين عاصف عند الغضب..

- وأنتِ لماذا تريدين الذهاب للعرّافة؟!

- سأطلب منها ألّا تنتزع القوة من قلب ابنتي..

- وكيف ستدفعينها لعصيان أوامر الملك؟!

- سأُحاول إقناعها بالكلام في بداية الأمر..

كانت طريقة نُطقها للجملة السابقة تدل على أن لديها خطة بديلة جاهزة في حال فشلت الخطة الأولى:

- وماذا إن لم تقتنع بالكلام؟!

وهي تكشف عن معدن لامع كانت تُخفيه أسفل ثيابها:

- حينها تكون قد اختارت مصيرها بنفسها..

نظر إكليل بعينين مذهولتين للخنجر الحاد الذي كانت الملكة تخفيه أسفل ثيابها وعرف أنها جادة فيما تنوي القيام به..

قالت وهي تضم يديها في إيماءة رجاء:

- ساعدني أرجوك، أنا لا أستطيع الذهاب إلى هُناك وحدي..

لم يعلّق بشيء وطار من النافذة مبتعدًا فأدركت أنه بذلك التصرف قد أعرب لها عن رفضه مساعدتها، فجلست على طرف السرير وأخذت تفكر بحل آخر لكنها قبل أن تتوصل لشيء كان إكليل قد عاد إليها من النافذة وقال:

- لقد عثرتُ على معبر آمن للخروج من الجزيرة، ولكن يجب أن نُسرع في الذهاب والعودة قبل أن يكتشف أحد أمر غيابنا..

قالت مبتهجة:

- شكرًا إكليل، أنا أدين لك بهذا المعروف..

- أريدكِ أن تعرفي شيئًا هامًّا، أنا لم أوافق على مساعدتك لأنكِ الملكة بل لأنكِ صديقتي، ويجب عليّ كصديق أن أقف معكِ حتى ولو كنت غير مقتنع بما سوف تفعلينه..

وعندما انتهى من كلامه قال دون أن يترك لها مجالًا للتعليق:

- والآن هيا يجب علينا أن نسرع..

**

سارعت سرابي بارتداء بعض الثياب المُهلهلة، عقصت شعرها الطويل فيما يُشبه الكعكة وأخفت رأسها تحت قلنسوة قماشية ثقيلة الطبقة كي تخفي ملامحها، ثم تسللت بعد ذلك لخارج القصر وواصلت سيرها دون أن يراها أحد..

حين وصلت أخيرًا للحدود الغربية من الجزيرة توقفت ولم تعد تعرف الخطوة القادمة، هبط إليها إكليل وقال وهو يُشير بمنقاره نحو غابة كانت تقع في الضفة الأخرى:

- تلك غابة الأخدود يا سيدتي، يجب أن نصل إليها أولًا وهُناك سوف يُلاقينا سابح ويأخذكِ على متنه نحو جبل غُراب..

- حصان عاصف المُجنح يعلم بأمر ذهابنا إلى هناك؟!..

- المسافة لجبل غُراب طويلة وخطيرة وسوف يكون من الصعب عليكِ قطعها ركضًا؛ لهذا طلبت مساعدته..

- ولكني قلقة من أن..

قاطعها قبل أن تُكمل:

- لقد شرحتُ له الأمر وطلبت منه ألّا يُخبر الملك..

فكرت بالأمر قليلًا ثم قالت بعد اقتناعها:

- ولماذا لم تطلب منه لقاءنا على الجزيرة ألم يكن ذلك أسهل؟!

- بلى.. ولكننا حينها قد نُعرض خطتنا للاكتشاف فربما رصدكِ أحد الحرّاس وأنتِ على متن سابح وأخبر الملك؛ لهذا طلبت منه لقاءنا في الغابة..

- وكيف سأقطع المسافة إلى الغابة، ألم تفكر بهذا الأمر؟!

أشار بمنقاره نحو مجموعة من القوارب الشراعية الراسية بالقرب من الشاطئ وقال:

- ليس أمامكِ إلا أن تستقلي أحد تلك القوارب..

- لا؛ فالقوارب ربما تُلفت انتباه الحرّاس أيضًا

- وكيف ستقطعين المسافة إذًا؟!

- سأقطعها سباحة..

كانت المسافة التي تفصل الضفة الغربية عن الغابة تقترب من الألف وسبعمئة وثلاثة وخمسين مترًا، وبطبيعة الحال لم تكن تلك بالمسافة التي يستحيل قطعها سباحة ولكن الحكايات تقول إن قدماء الأباطرة قد ملؤوا البحر المُحيط بجزيرة الأرباب بالكثير من الوحوش المائية المرعبة؛ كي يجعلوا من الماء حصنًا طبيعيًا يصعب على الأعداء اختراقه..

قال إكليل:

- ولكن السباحة لهُناك أمر خطير يا سيدتي..

- عندما يتعلق الأمر بتحقيق الأهداف، فإنه لا توجد خيارات آمنة..

**

كان البحر هائجًا أمامها وكأنه بهيجانه ذاك يريد تحذيرها من الوحوش المتجولة في الأعماق، ولكن لأنها أُم فإنها لم تخف وقذفت بنفسها للماء مُتسلحة بحُبها الشديد لابنتها ورغبتها الجامحة بتوفير غد أفضل لها..

جعلت سرابي تُجدف بيديها وقدميها بكل قوة غير عابئة بالمخلوقات المفترسة الضخمة التي كانت تسبح تحتها ولا بالأيادي الملساء الناعمة التي كانت تلمس بطنها وفخذيها وساقيها من حين لحين وتحاول جذبها للأسفل..

لم تتجاوز الأخطار مصادفة وليس لأن طائر العنقاء كان يُحلّق طيلة الوقت فوقها كملاك حارس فيُخيف بجناحيه الطويلين وحوش الماء، ولكنها تجاوزت الأخطار لأن إيمانها الطاغي بنفسها كان يُحيطها بهالة من القوة تمنع أي خطر من الاقتراب منها..

ما أن وصلت للضفة الأخرى بسلام حتى وثبت على قدميها وراحت تواصل الركض نحو عمق الغابة دون أن تسمح للظلام الدامس أو تيار الهواء البارد الذي كان يلدغ جسدها المبلول بإيقافها..

كان الحصان المُجنح ينتظرهما داخل الغابة، وما أن رآهما يقتربان حتى ثنى قائمتيه الخلفيتيّن كي يُسهّل على سرابي امتطاءه..

صعدت سرابي على متنه وهتفت:

- هيا؛ فالوقت يُداهمنا..

نخر الحصان من أنفه بقوة فعرفت سرابي أنه يريد منها أن تتشبث به جيدًا..

وما أن ضيقّت ساقيها وفخذيها على ظهره وأمسكت شعره المُجعد الطويل بكل قوتها حتى قفز سابح عاليًا ثم ضرب الهواء بجناحيه وطار مبتعدًا يتبعه طائر العنقاء..

**

حين وصلوا أخيرًا لمدخل جبل غُراب استوقفتهم جثث السحرة المُلقاة على الأرض.. شمشم سابح المكان قبل أن يعلّق قائلًا:

- رائحة سيدي الملك، وأمين سر القصر لا تزال عالقة هُنا..

قال إكليل مستنتجًا وهو ينظر نحو جثث السحرة:

- يبدو أنهم حاولوا اعتراض طريق الملك، فلقوا حتفهم..

ثم اقترب من إحدى الجثث ولعق بلسانه دمها وقال:

- إنه لا يزال دافئًا..

سألته سرابي: وهذا ما معناه؟!

- معناه أنه لم يمضِ وقت طويل على القتال الذي دار هنا..

وأضاف وهو يرفع رأسه وينظر نحو قمة الجبل:

- يبدو أنهما لا يزالان في طريقهما للعرّافة..

- وماذا نفعل في هذه الحالة؟!

- يجب علينا أولًا يا سيدتي أن نتحقق من مغادرتهما الجبل؛ كي لا نُصادفهما في منتصف الطريق..

اختبؤوا خلف جذع شجرة سيكويا عملاقة كانت مُنتصبة بعيدًا عن المدخل، ومكثوا هناك لبعض الوقت حتى تأكدوا من رحيل عاصف وأيوب، ثم أكملوا بعد ذلك الطريق صعودًا لقمة الجبل حتى وصلوا أخيرًا للكوخ الخشبي الذي كانت أساساته غاطسة في أكوام الثلج وطرقوا بابه..

فتحت العرّافة الباب وتعجبت من منظر ذلك الشخص الهزيل الواقف أمامها والذي كان يرتدي ثيابًا مُهلهلة ويُخفي ملامحه أسفل قلنسوة قماشية ثقيلة الطبقة وسألت بحذر:

- من؟!

كشفت سرابي القلنسوة القماشية عن رأسها فتحرر شعرها المعقوص الطويل وانساب مثل شلال ليل فوق كتفيها..

نظرت إليها مليًّا قبل أن تسألها:

- ما الذي جاء بكِ؟!..

أجابت بكلمات خرجت من بين أسنان ترجف لشدة البرد:

- دعينا نتحدث في الداخل، البرد يكاد يفتك بي هُنا..

افسحت العرّافة لها مجالًا للدخول وقالت:

- ادخلي..

ثم أضافت وهي تنظر لطائر العنقاء وللحصان المُجنح:

- ابقيا أنتما في الخارج..

**

دخلت سرابي الكوخ واتجهت لفورها نحو المدفأة بينما اقترب إكليل وسابح من النافذة الخارجية وجعلا يُصيخان السمع للكلام الذي يدور في الداخل..

قالت العرّافة بعد أن طال صمت سرابي ولم تُفصح عن سبب قدومها:

- لا أظن أنكِ قطعتِ كُل هذه المسافة كي تجلسي صامتة أمام المدفأة..

حوّلت سرابي وجهها نحو العرّافة وقالت:

- جئت أطلب منكِ ألّا تنفذي ما طلبه منكِ زوجي..

تفرست العرّافة في عينَيها لبعض الوقت تبحث فيهما عن أسباب طلبها ذاك، بيد أن عينَيها كانتا مُمتلئتين أكثر مما ينبغي بأشجار القلق وبروق الخوف وزوابع الشك، فلم تستطع أن تقرأ فيهما إجابة واضحة:

- لماذا تريدين مني عدم انتزاع القوة من قلب ابنتك؟!

لقد عانت سرابي كثيرًا لتهزم أشباح الماضي وتدفنهم في مقابر ذاكرتها وإنها لتخاف أن تتحدث لها عن ماضيها فتعيد بذلك بعث الروح للأشباح من جديد..

قالت متهربة من الإجابة:

- إنه شأن خاص لا أستطيع البوح به..

- افعلي أموركِ الخاصة بعيدًا عني إذًا..

- ماذا تقصدين؟!

- أقصد أني لا أفعل شيئًا لستُ مقتنعة به..

- إنني الملكة وأنا آمركِ بفعل ذلك..

أرسلت إليها العرّافة نظرة عاصية قبل أن تمسكها من تلابيب ثيابها وترفعها بقبضتها بضعة أشبار للأعلى وتقول لها:

- أنتِ ملكة أبابيل، لكنكِ الآن في منزلِي وأنا ملكة منزلي..

ثم أفلتتها لتسقط أرضًا، وتُردف لها قائلة:

- غادري لقد انتهى لقاؤنا..

وهكذا لم يعد أمامها حل آخر غير أن تنفذ الخطة البديلة لتمنعها من قدوم اجتماع ليلة الغد.. فمدت يدها خلسة نحو الخنجر الذي كانت تُخفيه أسفل ثيابها ولكنها لم تجده هُناك فتحسست نفسها علّها تكون قد غيرت مكانه دون أن تتذكر إلا أنها لم تجده في أي مكان آخر!!

قالت لها العرّافة وهي تُمسك بشيء ما في يدها:

- هل تبحثين عن هذا؟!

اتسعت عينا سرابي حين رأت الخنجر في يدها وأحست بادئ الأمر بالخجل من نفسها، ثم شيئًا فشيئًا اختفى ذلك الخجل وحلّ مكانه خيبة شديدة ثم بكاء..

واحتارت العرّافة من ردة الفعل تلك:

- هل تبكين لأني أخذت منكِ الخنجر؟!

- لا - قالت وهي تشهق - بل لأني ضعيفة جدًّا..

وأمسكت عن الكلام قليلًا ريثما يهدأ نشيجها وبكاؤها.. ثم مدت كمها لوجهها كي تمسح عنه المخاط والدموع.. وعندما شعرت بعد مرور بعض الوقت أن بوسعها الكلام قالت:

- لقد اختُطِفتُ في صغري.. ومزق التاجر ملابسي وقام بعرضي في سوق الجواري والعبيد وسمح لزبائنه أن يتلمسوا جسدي بأعينهم وأياديهم ليتأكدوا مما إذا كانت البضاعة تستحق السعر المعروض عليها للبيع أم لا.. حدث كُل هذا لأني كنتُ ضعيفة جدًّا..

عبرتها رجفة البُكاء مجددًا لكنها تمالكت نفسها، وأكملت:

- لقد ماتت والدتي أمامي يا سِربيل.. ماتت وهي تحاول الدفاع عني وإنقاذي من أطماع ذلك التاجر ورجاله.. لو أني كنتُ قوية لما حدث كُل هذا..

أصغت العرّافة إليها باهتمام، بينما أكملت تقول:

- سيأتي اليوم الذي تكبر فيه جومانا وتقرر أن تنطلق بمفردها في هذه الحياة، وحين يأتي ذلك اليوم أريدها أن تكون قادرة على حماية نفسها من أي خطر قد يعترضها.. **أريدها أن تكون قوية لتعيش؛ فهذه الأرض تقتل الضعفاء..**

ابتسمت العرّافة وقالت:

- هذه الإجابة التي كانت تنقصني لأغير رأيي..

هتفت بعدم تصديق:

- حقًّا؟!

- حين أحضر اجتماع ليلة الغد سوف يعتقد الجميع أني أنتزع القوة من قلب ابنتكِ، بينما في الحقيقة سأقوم بتحريك قوة النار في قلبها دون أن ينتبه أحد..

- ولكن كيف ستفعلينها دون أن ينتبه إليكِ أحد؟! ألن يتطلب منكِ الأمر أن تحرقي طائر عنقاء وتغطي جسد ابنتي بالرماد لتحركي النار في قلبها، كما فعلت تاج في الماضي عندما حركت قوة النار في قلب عاصف؟!!

أجابت توضح لها الأمر:

- لقد اضطرت تاج لفعل ذلك لأن عاصف حينها كان قد كبر وأوشك على تجاوز مرحلة البلوغ؛ فكان بحاجة لمحفز قوي يحرك النار بداخله ولكن ابنتكِ لا تزال صغيرة وأستطيع تحريك القوة في قلبها بتلاوة بعض التعاويذ البسيطة..

أعادت العرّافة لها الخنجر وقالت لها:

- عودي من حيث جئتِ، غدًا يحدث ما تريدين..

٣

النبوءة

بعد أن انتهت سرابي من رواية الحقيقة كاملة صمتت وأطرقت برأسها نحو الأرض تنتظر كلام العتاب الذي ستقوله لها تارا بسبب مخالفتها أوامر الملك..

قالت تارا بعد لحظات من الصمت:

- لا ينبغي علينا إطاعة الأوامر، عندما نُدرك أنها خاطئة..

رفعت سرابي رأسها وقالت بدهشة:

- أنتِ لستِ غاضبة مني إذًا؟!

- لقد فعلتِ الصواب ولكنني أخشى عليكِ العقوبة..

- أتعتقدين أن عاصف قد يُعاقبني عندما يكتشف الأمر؟!

- قد يغضب منكِ ولكنه لن يُعاقبكِ - وأضافت:

فالحب يغفر ما تقدم وتأخر من الذنوب..

- من سيعاقبني إذًا؟!

- الأباطرة؛ فهم لن يسكتوا حين يعرفون أن الملكة عصت أوامر الملك.. لهذا يجب علينا إخفاء قوة ابنتك في الوقت الراهن إلى أن نجد حلًّا آخر في وقت لاحق..

- كيف نخفي قوتها؟!

- نلجأ للسحر..

- لم أكن أعلم أنكِ تستخدمين السحر..

- لا أستخدمه ولكني أحفظ بعض التعاويذ لأوقات الحاجة..

وأضافت متسائلة: ألم تفكري في تعلم السحر أيتها الملكة؟!

- لا أُفضل التعامل مع الشياطين..

زحفت تارا مقتربة من الطفلة وقرأت عليها تعويذة من شأنها أن تُخفي قوتها الخاصة لبعض الوقت.. وما أن انتهت من ذلك حتى التفتت نحو سرابي وعادت للحديث معها حول موضوع السحر قائلة:

- لا أحد يُفضل التعامل مع الشياطين أيتها الملكة، ولكن يجب عليكِ تعلم بعض التعاويذ لاستخدامها عند الحاجة..

- لماذا أراكِ تُلحين على هذا الأمر يا تارا؟!

بصوت قلق باحت تارا بما يراودها:

- لأني أشعر بأن هُناك خطرًا ما يقترب..

خافت سرابي من تلك النبوءة فحاولت عدم تصديقها وكأنها تظن أن عدم التصديق بها سيكون كفيلًا بعدم تحقيقها:

- لقد أكد لي عاصف أن كُل شيء سيكون على ما يرام..

- أتمنى ذلك.. ولكن في جميع الأحوال سأُلقنكِ تعويذة واحدة تُساعدك على الاختفاء عند الخطر وأريدكِ أن تحفظيها جيدًا وتُردديها بالشكل الصحيح..

لم تتح لها مجالًا للقبول أو الرفض، قالت لها:

- سأعلمكِ كيف تستدعين شيطانًا مملوكًا اسمه "**خافينا**".. ولكن لأنكِ لستِ بساحرة فإنه يجب عليكِ أن تعلمي أن السحر الذي سوف تستخدمينه سيكون محدود الفاعلية..

- ماذا تقصدين بأنه سيكون محدود الفاعلية؟!

متجاهلة الإجابة عن ذلك السؤال، قالت تارا وهي تركز نظرتها في عينَي الملكة:

- قولي ثلاثًا "خَافِينا تَعال اخفِينَا"

ترددت سرابي باديء الأمر وبدت أنها خائفة من استدعاء الشيطان، إلا أن تارا قالت تُذكرها بكلامها:

- يجب أن تكوني قوية لتعيشي؛ فهذه الأرض تقتل الضعفاء..

مدفوعة برغبتها في التحرر من عُقدة الضعف رددت سرابي التعويذة ثلاثًا:

خَافِينا تَعال اخفِينَا

خَافِينا تَعال اخفِينَا

خَافِينا تَعال اخفِينَا

وحين انتهت ذهبت نحو المرآة لتنظر لنفسها وتتحقق مما إذا كانت قد نجحت في الاختفاء أم لا.. ولكنها حين نظرت للمرآة وجدت صورتها تنعكس على سطحها بشكل واضح فتساءلت بسذاجة:

- هل نجح الأمر؟!

قالت لها تارا:

- أنتِ خائفة أكثر من اللازم أيتها الملكة، يجب أن يشعر الشيطان أنكِ هادئة ليأتِيَ - وأضافت: هيا ردديها مرة أخرى ولكن بمزيد من التركيز والهدوء وإذا نجحتِ في استدعائه فإنه سيظهر لكِ وسيطلب منكِ طلبًا وما أن توافقي عليه حتى يُخفيكِ..

- وماذا سيطلب مني؟!

- لا أعلم ولكن إذا كنتِ تستطيعين تنفيذ طلبه فهزي رأسكِ بـ نعم، وإذا كنتِ لا تستطيعين تنفيذه فهزي رأسكِ بـ لا..

- وهل بإمكاني أن أطلب منه شيئًا آخر غير الاختفاء؟!..

انفعلت تارا وقالت بصوت حاد:

- إياكِ أن تفعلي هذا.. إياكِ

ثم قالت بصوت أقل حدة: هيا ردديها مرة أخرى..

أعادت سرابي تلاوة التعويذة بمزيد من التركيز والهدوء وحين انتهت ظهر لها من اللاشيء شيطان أزرق نحيل يُشبه في هيئته البشر ولكن أُذناه ممتدتان للأعلى قليلًا ولديه أنف طويل كمنقار طائر الطوقان، ويلتف حول كُل من معصم يديه سوار حديدي صدئ

قال لها:

- أُريد خصلة من شعرك..

لم يكن منظره مرعبًا ولكنها أغلقت عينيها لشدة خوفها من فكرة أن شيطانًا ما يقف مقابلًا لوجهها.. هزّت رأسها بإشارة نعم وما أن فعلت حتى بدأ مفعول السحر عليها..

حين فتحت عينيها بعد لحظات ونظرت للمرآة كان جسدها قد اختفى، غير أن لباسها لم يختفِ وبقِيَ وكأنه مُعلق من تلقاء نفسه في الهواء فسألت:

- هل هذا ما كنتِ تقصدينه حين قلتِ إن السحر سيكون محدود الفاعلية؟!..

- الشيطان لن يُخفي إلا أعضاء جسدك فقط؛ لذلك يجب أن تتجردي من لباسك إذا أردتِ الاختفاء بشكل كامل..

- فهمت.. وكيف أُلغي التعويذة وأعود مرئية كما كنت؟!

- أعطِي الشيطان ما طلبه منكِ فيذهب مفعول التعويذة..

تناولت سرابي مقصًا من أحد أدراجها وقصت به خُصلة من شعرها الطويل البني ورمته بعيدًا وما أن فعلت حتى عاودت الظهور مرة أخرى..

قالت تارا لها وهي تتهيأ للرحيل:

- إذا سارت الأمور بخير غدًا آتِي إليكِ، وأُلقنكِ تعويذة أخرى..

استوقفتها سرابي:

- هل ما زلتِ تشعرين بالخطر؟!

أغمضت كوبرا أفعى الجن عينيها وبدت كما لو أنها تركز جميع حواسها حول نقطة ما.. وحين فتحت عينيها بعد لحظات قالت بصوت يملؤه التوجس والقلق:

- إني أكاد أسمع حفيف أنفاسه وأشعر بخطواته تقترب أكثر..

- من هو ذلك الشخص الذي يُخيفكِ قدومه لهذا الحد؟!

لم تُجبها ولكنها قالت لها قبل أن ترحل:

- كوني حذرة أيتها الملكة..

بقِيَ صوت فحيح كوبرا أفعى الجن يتردد بين حيطان الجناح الملكي لبعض الوقت قبل أن يختفي ويتلاشى..

**

انتقل القلق كالعدوى لقلب سرابي التي هرولت صوب النافذة وفتحتها ثم جعلت تتأمل السماء فلاحظت أن الطيور فيها تطير بشكل متوتر وسريع وغير طبيعي كما لو أنها كانت تلوذ بالفرار من شيء ما؛ فأدركت من خلال ذلك أن هناك شيئًا سيئًا وخطير يوشك أن يقع..

٤

الغريب

هُناك بعيدًا بين صفوف القوات المُرتزقة: انتشرت شائعة قوية لا أحد يعلم مصدرها تقول إن الملك عاصف سوف يعبر بعد ساعات قليلة من منطقة في الشمال تُدعى "مزَار الشُّهب".. وسيكون برفقته فصيل مُصغَّر من الحراسة..

وسرعان ما ابتلع الأعداء الطُّعم حيث وجد قائدهم الأكبر وهو عفريت من الجن يُدعى "**هآمان**" أنها فُرصة سانحة للقضاء على الملك ونيل الجائزة الكبرى التي وُضعت على رأسه..

فقام باستدعاء جميع القوات المُرتزقة الموجودة فوق أراضي أبابيل وحين اجتمعوا أمامه فإنه رفع يده عاليًا كإشارة ليحظى بها على انتباههم ثم صرخ يُذكرهم بالجائزة:

- رُقعة أرض واسعة من أراضي أبابيل تكون مُلكنا للأبد ومعها خمسة جبال من الفضة والذهب - وأضاف بصوت أعلى: استعدوا أيها الأقوياء سنعترض موكب عاصف ونقضي عليه!!

ارتجَّ المكان من هُتافات المقاتلين المُرتزقة الذين صرخوا بكل قوتهم وهم يدكون الأرض بأقدامهم دكًا دلَّ على الحماس الذي دبَّ في أفئدتهم..

غير أنهم قبل أن ينطلقوا بلحظات قليلة من هناك سمعوا وقع أقدام تقترب منهم وحين التفتوا نحو مصدر الصوت شاهدوا رجلًا غريبًا يسير باتجاههم..

كان ذلك الغريب يُخفي ملامحه خلف لثمة من القماش ويرتدي أسمالًا جلديّة ضيقة أبرزت تحتها تفاصيل جسد صلب بدا وكأنه نُحت من الصخر..

وقف أمام قائدهم، وقال له ناصحًا:

- **إنه فخ..**

ورغم أن القائد هآمان كان يقود قُرابة الخمسة والأربعين ألف مقاتل مرتزق إلا أنه لم يتجرأ على التقليل من شأن ذلك الغريب وجعل ينظر إليه بحذر ومهابة؛ فقد كان للغريب هالة زرقاء قوية تُحيط به تجعله يبدو كعدو خطير جدًّا..

سأله هآمان:

- وما أدراك أنه فخ؟!!

أجابه الغريب: أنا أعرف كُل شيء..

كان صوته رصينًا ثابتًا ينفذ إلى القلب فيهزه ويزعزع أركانه؛ الأمر الذي دفع هآمان إلى أن يُرخي نبرة صوته وهو يطرح السؤال التالي:

- وبماذا تشير علينا إن كنت تعرف كُل شيء كما تقول؟!

قال الغريب بصوت أسمع به الجميع:

- إنكم تفعلون ما تفعلونه للحصول على رُقعة أرض بسيطة في أبابيل وخمسة جبال من الفضة والذهب.. وإنكم لسرعان ما تتزاوجون فيكثر نسلكم ويزداد عددكم فتضيق بكم أرضكم وينتهي كنزكم فتعودون لحياة الفقر واللصوصية..

وأضاف يشير عليهم بصوت كُله حماس:

- ولكن أن تتبعوني أعدكم أن تُصبح أبابيل.. كُل أبابيل بعرشها وكنوزها وشعبها وسمائها وأراضيها مُلكًا لكم!!

**

لقد تركت كلماته تلك أثرًا عظيمًا في نفوس المُستمعين إليه ولكن كان من الصعب عليهم اتباع شخص لا يعرفون عنه شيئًا.. فقال هآمان متسائلًا بالنيابة عن الجميع:

- كيف نثق بك ونحن نراك لأول مرة؟!

ابتسمت لهم عيناه الزرقاوان من خلف اللثمة، وهتف بصوتٍ عالٍ كما لو أنه أراد أن يُذكرهم بهويته قبل أن يكشف لهم عنها:

- **أنا الرب..**

ثم قام بانتزاع اللثمة عن وجهه وما أن شاهدوا تلك الملامح والتقاطيع الجميلة حتى بدؤوا يتهامسون فيما بينهم وبين بعضهم في ذهول أقرب لعدم التصديق بعبارات مثل:

" انظروا.. ناب الفيل .. إنه هو .. لقد عاد "

وحين تحقق الجميع من هوية مُحدثهم، فإنهم خروّا له ساجدين تباعًا كأحجار دومينوا متساقطة وهم يُرددون هذه العبارة بصوت واحد وبتسليم كامل وطاعة مُطلقة:

- نتبعك، نتبعك يا طاغين..

خطة الملك "مصيرة الموت"

ما أن وصل عاصف لمنطقة مزَار الشُّهب حتى سارع بتنفيذ الخطة فاختار من الفيلق فصيلًا مكونًا من ثلاثة وسبعين فارسًا كانوا جميعهم من مقاتلي الأباطرة الذين عُرف عنهم الولاء والبأس الشديد في القتال بالإضافة إلى أنه طلب أيضًا من أيوب وطائر العنقاء إكليل أن يكونوا معه أثناء تنفيذ المصيدة..

أما بقية الفيلق فقد ذهبوا للاختباء خلف أحد الجبال الشاهقة البعيدة بانتظار وقوع القوات المُرتزقة في المصيدة ثم الهجوم عليهم من الخلف والقضاء عليهم دفعة واحدة..

**

ولكن طاغين الذي كان يعلم بتفاصيل ذلك الكمين جيدًا كما لو أنه كان حاضرًا معهم أثناء التخطيط له فإنه قام بعمل شيء آخر مختلف حيث التفّ هو والمقاتلين الذين معه حول ذلك الجبل الشاهق البعيد وقام بمباغتة فيلق أبابيل الأول!!

تناهت أصوات القتال آتية من خلف الجبل الشاهق البعيد وصولًا لأسماع عاصف ومن معه في الفصيل فتلفتوا ينظرون بعضهم لبعض في حيرة وذهول ولا أحد منهم يعلم عن المصيبة التي كانت تحدث خلف الجبل..

شد عاصف اللجام موجهًا رأس حصانه المُجنح سابح نحو الجبل ولكز خاصرته بكعب قدميه وهو يُعطي الأمر لبقية الفرسان:

- لنذهب وننظر ما الذي يحدث..

وما أن وصلوا إلى هناك حتى كانت المفاجأة وذلك عندما شاهدوا طاغين وخلفه جيش كبير من القوات المُرتزقة يقفون فوق الجثث الميتة لجنود الفيلق الأول..

**

وبينما أيوب يمتطي صهوة حصانه المُجنح وينظر للموقف بعين الخبير عرف أن هناك خائنًا في الصفوف، وأن ذلك الخائن هو من سرب الخطة لطاغين..

تمتم بغضب:

- هُناك خائن بيننا أيها الملك..

ولكن عاصف لفرط هول المفاجأة بدا وكأنه لم يستمع لما قاله أيوب، وجعل ينظر بخوف وهلع نحو طاغين ومقاتليه من خلفه..

قال لنفسه: "**إنها النهاية**"

٦

معركة مزَار الشُّهب

لم يكن عاصف يذكر المرة الأخيرة التي شعر فيها بالخوف مثل ما شعر به تلك اللحظة وهو يقف وجهًا لوجه أمام طاغين ويرى جنود فيلقه ممددين على الأرض والدماء تسيل من أجسادهم وتتجمع فيما يُشبه البركة الصغيرة..

وتضاعف خوفه عندما أدرك ألّا مجال له ولا لأيوب ولا طائر العنقاء إكليل ولا الثلاثة والسبعين فارسًا الذين كانوا معه للنجاة..

قال طاغين ساخرًا وهو ينظر نحوه مباشرة:

- ما بك؟!.. لقد ظننت أن لقاءك بي سيجعلك سعيدًا..

ومر بعض الوقت وعاصف لم يُجب؛ لقد كان سارحًا يفكر بالمصير الذي ينتظر زوجته وابنته بعد أن يموت.. غير أن طاغين لم يترك له فُسحة للتفكير أكثر حيث رفع يده وصاح يأمر قواته:

- اقتلوهم جميعًا، ولا تُبقوا فيهم كلبًا..

لم يقف أيوب مكتوف اليدين بينما يُشاهد الخطر يقترب من عاصف، وصرخ بصوت عالٍ قائلًا لفرسان الفصيل الثلاثة والسبعين:

- احموا الملك.. احموه بكل قوتكم!!

وسرعان ما استجاب فرسان الفصيل للأمر وشكلوا حول أيوب وعاصف حلقة دائرية دفاعية تحول بينه وبين الجيش الكبير لطاغين وابتدأ القتال..

**

لم يكن الأمر بحاجة للكثير من الذكاء والخبرة لمعرفة أن ذلك الفصيل المكون من ثلاثة وسبعين فارسًا - وإن كان في غاية القوة - إلا أنه لن يصمد طويلًا أمام ذلك الجيش؛ لهذا فإن أيوب التفت نحو عاصف وقال له:

- يجب أن نهرب من هُنا!!

- لا، أنا لستُ جبانًا لأهرب!!

سدد له أيوب صفعة قوية على وجهه ثم صرخ عليه:

- متى سوف تتوقف عن كونك صبيًّا متهورًا طائشًا وتبدأ في التصرف كملك؟!!

وبينما لا يزال تحت تأثير الصفعة، هزّه أيوب من كتفيه:

- **أنت الملك، وسقوطك يعني سقوط أبابيل!!**

استدرك عاصف الأمر وكأن غريزته المتوحشة كمحارب قد أنسته في تلك اللحظة الحاسمة أنه الملك، وجعلته يرغب في الاندماج مع الحلقة الدائرية المتشكلة حوله ومشاركتهم القتال:

- وماذا أفعل؟!

قال له أيوب:

- عُد للقصر.. تحصن بداخله.. ثم استخدم الفيلق الثاني لإعادة الهجوم على طاغين.. يجب أن تُحافظ على مُلكك يا عاصف هل تفهم ما أقول؟!!

- تعال معي إذًا ودعنا نهرب معًا!!

قال وهو يُجرّد سيفه من غِمده ويستعد للقتال:

- لا؛ فأنا الوحيد الذي يستطيع تأخيره عن اللحاق بك..

كاد عاصف أن يقول شيئًا ولكن أيوب لم يترك له مجالًا لذلك إذ إنه لسعً بنصل السيف حصانه المُجنح على مؤخرته بقوة وصاح فيه:

- **خذه بعيدًا من هُنا يا سابح، هيا!!!!**

قفز سابح عاليًا وضرب الهواء بجناحيه الطويلين بأقصى قوة، ثم انطلق يسابق الريح..

ابتسم أيوب كاشفًا عن أسنان ناصعة البياض بينها سِنَّة واحدة ذهبية، وهو ينظر لعاصف بينما كان يبتعد ثم همس قائلًا:

- وداعًا أيتها القملة الصغيرة المزعجة..

٧

أيوب

صرخ أيوب على من تبقى من فرسان الفصيل؛ كي يبث فيهم روح القتال المطلوبة التي سوف تُبقيهم صامدين لفترة أطول ريثما يتأكد أن عاصف قد ابتعد وأصبح في منطقة آمنة:

- قاتلوا بكل قوتكم ولا تهابوا الموت؛ من يمُت في سبيل أرضه يبقَ حيًّا في السماء!!

وحين أدرك أيوب بعد مرور بعض الوقت أن النهاية اقتربت فإنه تراجع لداخل الحلقة الدفاعية، ورفع رأسه للأعلى ينظر نحو طائر العنقاء الذي كان يُشكل غطاءً جويًّا جيدًا لفرسان الفصيل حيث إنه كان يمنع أي مقاتل من صفوف الأعداء من القفز فوقهم واختراق الحلقة الدفاعية:

- إكليل، انزل إلى هنا..

يعلم أيوب أن هناك خلافًا كبيرًا بين عاصف وصديقيّه الحكيم والشمالي لكنه يدرك جيدًا أن الأصدقاء يُلقون بخلافاتهم ومهما كبرت تحت أقدامهم عندما يلمحون اقتراب الخطر:

- اذهب للجساسة وأخبر الحكيم والشمالي بكل ما حدث مع عاصف بسرعة..

امتثل طائر العنقاء للأمر وحلّق مبتعدًا قاصدًا قرية الجساسة..

في معركة مزَار الشُّهب قاتل أيوب بشجاعة منقطعة النظير وقتل الكثير من القوات المُرتزقة، قبل أن ينقض عليه طاغين من الخلف بسرعة خارقة موجهًا إليه طعنة غادرة مميتة..

ورغم أن الطعنة كانت موجعة إلا أن أيوب لم يصرخ متألمًا بسببها بل جثا على ركبتيه مُبتسمًا.. لقد ابتسم وذلك لأنه حين رفع رأسه ونظر للسماء للمرة الأخيرة لمح بارق ثغر صديقيه "جومانا وبحر" وقد كانا يُرحبان بقدومه..

**

كان عاصف وقتها يواصل هُروبه ممتطيًا صهوة حصانه المُجنح عندما تحولت السماء فجأة وبدون سابق إنذار لغيوم سوداء كثيفة وبدأت تهطل مطرًا جنائزيًّا فوق رأسه؛ فعرف أن صديقه أيوب قد مات..

واصل هروبه ودموعه تختلط بالمطر المُتساقط فوق خديه..

**

أما طاغين فإنه بعد الانتهاء من قتل آخر فارس من فرسان الفصيل الثلاثة وسبعين فإنه التفت لجُثة أيوب المُلقاة على الأرض واقترب منه ثم انحنى عليه برفق لا يتوافق مع طبيعته القاسية المعروفة..

أغلق عينيه براحة يده وأمر بعضَ مقاتليه قائلًا:

- احفروا له قبرًا يليق به؛ لقد قاتل بشجاعة تستحق الاحترام..

حفر له الجن قبرًا كبيرًا وأنزله طاغين للقبر بنفسه ثم أهالُوا التراب عليه وحين انتهوا من ذلك التفت طاغين لمقاتليه .وصرخ فيهم باثًّا الحماس لقلوبهم:

- **أأنتم مستعدون للجلوس فوق عرش أبابيل؟!!**

تعالت أصوات المقاتلين في حماسة عالية مؤكدين له ذلك، فقال والشرر يتطاير من عينيه:

- لنتجه لجزيرة الأرباب إذًا..

٨

إكليل نحو قرية الجساسة

حلّق إكليل بكل سرعته متجهًا نحو قرية الجساسة ورغم أنه لم يقم بزيارة منزل الحكيم إلا مرة واحدة فقط عندما كان فرخًا صغيرًا إلا أنه كان يتذكر الطريق إليه جيدًا..

حين أصبح المنزل في مجال رؤيته أرخى جناحيه سامحًا لتيار الهواء بدفعه نحو الأسفل وهبط مثل القذيفة مُحطمًا باب المنزل ومُحدثًا في الداخل موجة عالية من الغبار..

أُصيب الحكيم والشمالي بنوبة من السعال كان سببها الغبار المتطاير الناتج عن اصطكاك الباب المخلوع بالأرض وانتظرا لبعض الوقت حتى ينقشع الغبار ويتبينا ما حدث..

وما أن انقشع الغبار وشاهد الحكيم طائر العنقاء إكليل أمامه حتى قال متوعدًا:

- لقد جئتِ في الوقت المناسب أيتها الدجاجة الحمراء؛ فنحن جياع وليس لدينا ما نطبخه هذا المساء!!

هتف إكليل مستنجدًا:

- لقد هُزم عاصف في معركة مزار الشُّهب، وطاغين وجنوده في طريقهم نحو جزيرة الأرباب للاستيلاء على العرش!!!!

نزل ذلك الخبر عليهما كالصاعقة، وسألا في وقت واحد:

- كيف حدث هذا؟!!

قال إكليل يحثهما على العجلة:

- سأخبركما بكل ما حدث في الطريق ولكن يجب ألّا نبدد مزيا
من الوقت؛ إننا في سباق مع طاغين وجيشه إما أن نصل للقص
قبلهم ونُعيد ترتيب صفوفنا وإما أن يصل هو للقصر قبلنا ونخس
كُل شيء..

وثب الحكيم من مكانه كمن قرصته عقربة، شمَّر عن كُميه وقا
متوعدًا:

- هيا بنا؛ لدينا بعض المؤخرات التي يجب علينا ركلها!!

٩

غابة الأخدود

أما عاصف فإنه عندما انتهت الأمطار وانقشعت الغيوم السوداء، فكر في أنه قد يكون مكشوفًا للأعداء لو أنه واصل طريقه نحو القصر مُمتطيًا صهوة حصانه المُجنح؛ لذلك فإنه همس في أذن سابح وهو يُشير بيده نحو غابة كانا يعبران فوقها:

- اهبط لهذه الغابة يا سابح..

فتش سابح عن رقعة مناسبة للهبوط وحين عثر عليها أرخى جناحيه الطويلين وهبط فيها، قال عاصف له ما أن أصبحا وسط الغابة:

- هل تعرف هذا المكان؟!

- إنها غابة الأخدود يا سيدي..

- هل نستطيع أن نصل من خلالها للقصر؟!

- نعم، فجزيرة الأرباب تقع أمام مخرج هذه الغابة..

ترجّل عاصف عن ظهر حصانه وبدا أنه كان ينوي مواصلة الطريق ركضًا على قدميه فسأله سابح:

- لماذا لا تمتطيني يا سيدي؛ فالغابة واسعة جدًّا وسوف نصل للقصر أسرع وأنت على ظهري..

أجاب وهو يُلقي جانبًا الترس الحديدي الأشبه بصدفة سُلحفاة كبيرة، وينزع الدروع عن جسده قطعة قطعة ليُصبح أسرع وأخف في الحركة:

- وأنا على ظهرك سوف نكون هدفًا واحدًا؛ فيُصبح من السهل اقتناصنا في وقت واحد لهذا يجب علينا أن ننقسم..

وما أن انتهى أخيرًا من نزع الخوذة الحديدية عن رأسه - وقد كان ذلك آخر درع حديدي ينزعه عن جسده - حتى أمسك حصانه المُجنح من لجامه وقال له:

- إذا حدث لي مكروه لا أريدك أن تساعدني.. أُريدك فقط أن تواصل طريقك نحو الجزيرة.. تأخذ سرابي وجومانا من القصر وتذهب بهما لمنطقة آمنة، اتفقنا؟!

- ولكن يا سيدي إن حصل لك مكروه ألا يجب أن..

- لا.. لا يجب عليك أن تُساعدني.. افعل كما أمرتك فقط.. خُذ سرابي وجومانا لمنطقة آمنة.. اتفقنا؟!

هزّ سابح رأسه:

- كما تأمر جلالتك..

- جيد - قال عاصف ثم أضاف وهو يستعد للانطلاق:

- والآن لنركض بأقصى سرعة..

١٠

عاصف وسابح نحو القصر

انقسم الاثنان وجعلا يركضان بكل سرعتهما في مساريّن مختلفيّن يقطعان غابة الأخدود الواسعة يُريدان الوصول للقصر قبل أن يصل إليه طاغين وأعوانه..

كان عاصف لا يزال حزينًا بسبب موت أيوب وكانت الدموع تحتشد بغزارة في عينيه مما يُسبب له انعدامًا في الرؤية.. ورغم ذاك إلا أن قلبه كان يُرشده نحو الطريق الصحيح..

ظل يتقدم بسرعة كبيرة متجاوزًا الأنهار والتلال والأشجار الباسقة وكلما شعر أنه يقترب من مخرج الغابة كان يشعر بالأمل يتدفق لروحه أكثر وأكثر ويتمتم بينه وبين نفسه قائلًا:

- سرابي جومانا، لا تخافا أنا في الطريق إليكما..

غير أن تلك الفرحة لم تكتمل فعندما لم يعد يفصله عن مخرج الغابة إلا مسافة بسيطة يستطيع قطعها في أقل من ساعة داس بقدمه عن طريق الخطأ على كماشة حديدية لم ينتبه إليها؛ لأنها كانت مخبأة جيدًا تحت كومة من التراب والقش..

كتم بيده صرخة الألم كي لا يُكشف أمره ولكن لسوء الحظ كانت هُناك سلسلة من الأجراس مربوطة بالكماشة الحديدية بحيث تقوم تلقائيًا بإطلاق رنين مرتفع يخبر أولئك الذين نصبوها أن هناك من داس على فخهم..

في تلك اللحظة حوّل سابح مساره لا شعوريًّا نحو سيده، اقترب منه وجعل يحاول تخليصه من الكماشة ولكن بدون فائدة فقد انغرست الأسنان الباردة للكماشة الحديدية عميقًا في ساقه وأصبح فكاكها يلزم وقتًا طويلًا من الجهد والمحاولة:

- لا وقت لدينا يا سابح، افعل مثلما أمرتك هيا!!

إلا أنّ سابح لم يصغِ للأمر وجعل يحاول بأسنانه وحوافره فك الكماشة الحديدية، فصرخ عليه عاصف بعصبية وهو يُمسك باللجام ويشده:

- سابح انظر إليّ!!

- دعني أحاول يا سيـ..

- سابح انظر إليّ!!

نظر الحصان إلى سيده مُشفقًا، فقال له عاصف:

- لا تقلق سأكون بخير.. اذهب الآن نحو القصر وخُذ سرابي وجومانا لمكانٍ بعيد آمن كما اتفقنا.. هيا!!

بدا أن سابح كان يُريد أن يجادل في الأمر ولكن عاصف قطع عليه الطريق قائلًا: لا تُجادل، هذا أمر ملكي!!

أحني سابح رأسه طائعًا وتمتم بحزن وطاعة "كما تأمر جلالتك" ثم واصل ركضه بين أشجار الغابة باتجاه القصر.. بينما بقِيَ عاصف مكانه يتألم بسبب الكماشة الحديدية القابضة على ساقه..

وبعد مرور وقت قصير بدأ عاصف شيئًا فشيئًا يشعر بالخدر ينتشر في أطراف جسده، وأصبح جفناه ثقيلين وبالكاد يستطيع إبقاء عينيه نصف مفتوحتين..

أسند ظهره على جذع شجرة كانت قريبة منه وقال مُستنتجًا:

- اللعنة، لقد غُمسَت أسنان هذه الكماشة بمادة مُخدرة..

أغمض عينيه وكان سوف يستسلم أخيرًا للخدر والنوم إلا أن الصوت العابر خياله لضحكات ابنته جومانا.. ورغبته الشديدة في رؤية زوجته مرة أخرى وعناقها وتقبيلها من شفتيها واستنشاق رائحة شعرها المُخضَّب بزيت مسحوق زهرة السوسن كانت أسبابًا كافية لإمداده بالطاقة المطلوبة ليحاول الخروج مجددًا من ذلك المأزق..

حين فتح عينيه بعد قليل كانت عينه اليُسرى تومض باللون الأحمر الغاضب، أمسك فكَّيِ الكماشة بيديه واستخدم طاقته المُتبقية لانتزاع أسنانها الحديدية عن ساقه ولم يتوقف حتى نجح أخيرًا في تخليص نفسه منها..

نهض واقفًا مستندًا على جذع الشجرة وأراد أن يبتعد من هُناك ويُكمل طريقه نحو القصر لكنه قبل أن يخطو خطوة واحدة تمت محاوطته من قبل رجليّن أسوديّن ضخمي الجثة من ذوات الرؤوس المقرونة(٢)..

٢- ذوات الرؤوس المقرونة هم مخلوقات بشرية ضخمة يُغطي جسدها الشعر الكثيف، ولديها قرون متشعبة نابتة في رأسها تُشبه قرون حيوان الأيل..

كان أحدهما يُدعى "**أثيم**" وكان يُمسك بيده فأسًا طويلًا حاد النصل.. بينما الشخص الآخر اسمه "**شُعيب**" وكان يُعلّق على ظهره قوسًا وكنانة تحوي بداخلها بعض السهام..

حاول عاصف أن يبدو طبيعيًّا أمامهما وألّا ينظر نحوهما بشكل مباشر خوفًا من أن يكشفا هويته؛ فهو ليس واثقًا بشأن إذا ما كانا يعملان لمصلحة طاغين أم لا..

عندما شاهد شُعيب أن الذي وقع في المصيدة ليس طريدة تصلح للأكل والشواء قال بخيبة أمل:

- يبدو أننا سنواصل نهارنا على معدة خاوية يا أثيم..

بعد سماع عاصف تلك الجملة أحس بالراحة، وقال يُطمئن نفسه: "**إنهما ليسا إلا صائدين يبحثان عن طريدة يأكلانها لا أكثر**"

اقترح أثيم والذي كانت لديه لثغة في النطق بسبب فمه الخالي من الأسنان مما يجعله يقلب حرفِي السين والصاد إلى حرف الثاء:

- ما رأيك أن نأكله.. أراهنك أن لحمه ثوف يكون طيبًا!!

رد عليه شُعيب برحمة:

- لا.. فربما كانت لديه عائلة ينتظرون عودته - وأضاف يقول: كما أنه لا يصلح للأكل.. انظر إلى عضلاته إنها مشدودة جدًّا وهذا سيجعل لحمه قاسيًا علينا أثناء المضغ..

- نكتفي بمث عظامه - وأضاف كما ليُقنعه : نُثمثها فقط

أجابه شُعيب بصرامة: قلت لا!!

فكر عاصف أن ينصرف من هناك قبل أن يتطور الموضوع ويبدل ذينك الرجلين الغريبيّ الأطوار رأيهما، فأدار لهما ظهره وقال:

- أتمنى لكما وليمة دسمة هذا المساء..

ولكنه ما كاد أن يُحرك قدمه المصابة ليبتعد من هناك حتى سقط مكانه أرضًا بسبب وطأة الألم، إنه مصاب في ساقه وهو بحاجة لمن يمد له يد المساعدة..

اقترب منه شُعيب ليُعاين جُرح ساقه فوجده عميقاً وبحاجة للعلاج، رفع رأسه ليُخبره بالأمر ولكنه ما أن شاهد عن قرب تلك الملامح الحادة الملكية حتى دُهش وتمتم قائلًا:

- يا آلهة السماوات أرجوكم لا تسخروا مني!!

جاء صوت أثيم من الخلف:

- هل أغرتك رائحته وقررت أن نأكله؟!

التفت شُعيب إليه وقال كمن رأى شبحًا:

- إإإ.. إنه الملك!!!!

أجاب أثيم وهو يحشر اصبعه في فتحة أنفه ويبتسم كاشفًا عن فمه الخالي من الأسنان:

- يبدو أن الجوع قد لعب برأسك!!

- تتتت.. تعال وانظر بعينيك إن كنت لا تصدقني!!

اقترب أثيم ليتأكد بنفسه من كلام صديقه وما أن شاهد ملامح عاصف عن قرب حتى تعرف عليه مباشرة، وهتف قائلًا:

- تُحقًا.. إنه حقًا الملك!!

قال شُعيب مقترحًا:

- دِدد.. دعنا نساعده يا أثيم ونعيده للقصر!!

لم يوافقه أثيم الرأي فقد كانت لديه فكرة أخرى قد لمعت برأسه فاقترب من صديقه وهمس له بها.. ولكن شعيب ما أن سمعها حتى صرخ معترضًا:

- أجُننت؟!.. كيف تريدنا أن نفعل هذا بالملك؟!

قال أثيم محاولًا إقناعه:

- انظر حولك.. إنه وحيد ومصاب وهذه فُرْصتنا الوحيدة في أن نُصبح أغنياء.. هل نسيت مقدار المكافأة المعروضة على من يأتي برأسه.. إنها رُقعة أرض في أبابيل وخمسة جبال من الفضة والذهب..

إن المال لم يُسمَّ "مالًا" إلا لأنه في أحيان كثيرة يميل بنفس صاحبه للباطل؛ لذلك سرعان ما تغيرت مبادئ شُعيّب وأصبح مؤيدًا لرأي صديقه:

- حسنًا، ولكن لننتهِ من هذا الأمر سريعًا..

كان من الممكن أن تكون لعاصف فرصة كبيرة في الانتصار على ذينك المقرونين لو أن جسده لم يكن مثقلًا بالمادة المخدرة التي انتشرت في أطرافه وجعلت حركته بطيئة.. ورغم ذلك إلا أنه قرر ألّا يموت دون قتال..

**

تقدم شُعيب منه ووجه إليه ضربة سريعة من قبضة يده الضخمة، حاول عاصف تفاديها ولكن ساقه المجروحة لم تساعده على ذلك فتلقى الضربة على رأسه وسقط أرضًا بعد أن فقد توازنه..

حاول النهوض مجددًا مستعينًا بيديه ولكن أثيم نزل بركبته عليه واضعًا كُل ثقل جسده على ظهره مما جعل مهمة النهوض عليه صعبة جدًّا..

قال أثيم ساخرًا:

- يبدو أن أُمنيتك تحققت فعلًا أيها الملك فقد وقعنا هذا المثاء على وليمة دسْمة..

وأردف بعد لحظة وهو يصطنع ضحكة سريعة حادة متقطعة بدت أشبه بضحكة الضباع:

- وليمة دسْمة عابقة برائحة مثحوق ذهرة الثوثن..

أراد عاصف أن يقاوم لكنه كان منشغلًا بالتقاط أنفاسه نتيجة الثقل الهائل الذي كان يجثم فوق ظهره هو ليس حزيناً لأنه سيموت بل لأنه سيغادر الأرض قبل أن يطمئن على زوجته وابنته..

قال أثيم وهو يرفع الفأس عاليًا ويتهيأ لقطع رأس عاصف:

- والآن، ائذن لي جلالتك بقطع رأثك..

ثم هوى بالفأس على رقبته..

الباب الثالث

١

القصر

ولكن قبل أن يصل حد الفأس لرقبة عاصف كان هناك شيء خاطف وسريع وحاد مثل سهم مُنطلق قد أصاب جسدَيِ المقرونيّن "أثيم وشُعيب" في وقت واحد وأسقطهما أرضًا..

التفت عاصف ليرى ما الذي أنقذه في اللحظة الأخيرة.فشاهد صديقيه الشمالي والحكيم وفوقهما بعدة أمتار كان يُرفرف طائر العنقاء إكليل بجناحيه الطويليّن بينما تقطر الدماء من مخالبه والجحيم كامن في عينيه..

**

نهض واقفًا وهو لا يصدق أن بداية جديدة قد كُتبت له ولكن لأنه يعلم أنه لا يملك وقتًا للدهشة أو شكر أصدقائه فإنه قال لهم:

- يجب أن نصل للقصر بسرعة!!

قال الحكيم وهو يُعاين ساقه:

- ساقك تنزف بغزارة وأخشى أن علاجها سيكون صعبًا لو لم نُسارع الآن في علاجها..

قال عاصف:

الشيء الوحيد الذي سيكون من الصعب علاجه، هو لو أن طاغين وصل للقصر قبلنا، وما عدا ذلك وإن تعاظم خطره سيكون علاجه سهلًا..

قال الشمالي مؤيدًا رأيه:

- معك حق، هيا بنا للقصر..

أسنده الحكيم من جهة والشمالي من الجهة الأخرى وراحوا يركضون بكل السرعة المتاحة نحو القصر لمحاولة الوصول إليه والتحصن بداخله قبل أن يسبقهم إليه طاغين ومن معه..

**

وما أن وصلوا لمخرج الغابة أخيرًا وأصبحت جزيرة الأرباب أمام مرمى أعينهم حتى توقفوا جميعًا عن الركض في اللحظة نفسها ولم يستطع أحد منهم التقدم خطوة واحدة للأمام؛ وذلك لأنهم شاهدوا شيئًا لم يتوقعوا حدوثه أبدًا:

لقد شاهدوا أمامهم القصر يحترق بالنار بعد أن قام طاغين ومقاتليه بهزيمة الفيلق الثاني وقتلهم جميعًا!!

٢

اقتحام

في تلك اللحظة ووسط كُل ذلك الخراب الذي يحدث أمامه لم يُفكر عاصف بهزائمه المتتالية ولا بالعرش الذي سُلب منه، كان يفكر في زوجته وابنته فقط..

وكان ثمّة أمل بسيط في قلبه يُخبره أن حصانه المُجنح ربما يكون قد استطاع أن يصل للقصر في وقت مناسب وأن يأخذ زوجته وابنته لمنطقة آمنة إلا أن ذلك الأمل سرعان ما تبدد وانتهى؛ وذلك عندما لمح بعضَ مقاتلي طاغين المرابطين على حدود الشاطئ وقد ألقوا القبض على حصانه المُجنح..

استنتج وقتها أن ذلك معناه أن زوجته وابنته لم يغادرا الجزيرة وهذا يضعه أمام احتمالين لا ثالث لهما:

الأول: **أنهما ماتتا في الحريق..**

الثاني: **أنهما استطاعتا بطريقة ما النجاة من كُل تلك المصائب..**

ومع أن احتمال النجاة ضئيل جدًّا إلا بأنه كان يرى أنه يستحق أن يجازف بحياته من أجله:

- استعدوا - قال - سنقتحم الجزيرة..

استعد إكليل لتنفيذ الأمر، ولكن الشمالي كانت له وجهة نظر أخرى حيث قال:

- اقتحامنا الجزيرة يعني الموت الأكيد؛ إنهم جيش كامل ونحن لسنا إلا أربعة مقاتلين!!

قال الحكيم يكشف عن موقفه:

- ههه، تقصد أنكم ثلاثة؛ فأنا لن أتبعكم إلى هناك..

"جُبناء" تمتم عاصف بذلك وهو يُهيئ نفسه للقفز في البحر واقتحام الجزيرة:

- سأذهب أنا وإكليل، تستطيعان العودة للجساسة إن أردتما..

قال الحكيم ليدفع عن نفسه وعن الشمالي تُهمة الجُبن:

- انظر إليهم وانظر إلينا إن الموت سيكون في استقبالنا ما أن نطأ الجزيرة بأقدامنا!!

ثم التفت نحو إكليل يحثه على الكلام:

- قُل شيئًا أنت، صمتك يُظهرنا كالجبناء!!

قال إكليل: أمر الملك، سأنفذه من غير جِدال..

لم تعجبه الإجابة فرد متوعدًا:

- إن سمعتك تقول شيئًا آخر نتفتُ لك ريشك!!

عندما سمع الشمالي إجابة إكليل حين قال: "أمر الملك، سأنفذه من غير جِدال" تذكر أن عاصف الذي يقف أمامهم الآن ليس صديقهم فقط بل هو الملك وعليهم حق طاعته الكاملة فقال: إكليل معه حق..

رد الحكيم معترضًا وكأن خسارته لتأييد الشمالي قد أزعجته:

- لقد ظننتك عاقلًا، فإذ بك أكثر حماقة منهما!!

- لستُ أحمقَ أيها الحكيم ولكن يبدو أن توالي الأحداث بسرعة جنونية قد أنسانا حقيقة أن عاصف هو الملك.. وأننا قد أدينا له قسم ملوك أبابيل – ثم قال يُذكره بنص القسم: **السمع والطاعة في الرخاء والشدة، في العدل والظلم، في السلم والحرب، في الوفاء والخيانة، في الحياة والموت..**

لقد حشره في زاوية ضيقة فقال الحكيم منفعلًا:

- ولكن الطاعة في التهور والغباء لم تكن ضمن نص القسم!!

- افعل ما تشاء أنت، أما أنا وإكليل فسوف نطيعه..

الحكيم يُدرك أن أصدقاءه لو ذهبوا للجزيرة فإنهم سوف يلاقون حتفهم لا محالة.. ورغم هذا إلا أنه لو رآهم يقفزون للماء فإنه لن يتردد لحظة واحدة في اللحاق بهم؛ فهو لا يُعارضهم من باب الجُبن أو التخاذل إنما لدواعي السلامة والحكمة:

- اسمعني يا عاصف..

التفت عاصف إليه مُنتبهًا بينما تردد الحكيم في البوح بما يعتلج في نفسه ليس لشيء إلا إشفاقًا على صديقه من قسوة الكلام الذي كان بصدد قوله.. غير أنه قال في الأخير مصارحًا:

- إنك تفكر في احتمال أن زوجتك وابنتك لا تزالان على قيد الحياة، وتريد اقتحام الجزيرة من أجل إنقاذهما..

كان يُفترض على الحكيم في مثل ذلك الموقف أن يُحافظ على مسافة آمنة تفصله عن عاصف تَحسبًا من ردة فعل طائشة قد تصدر عنه، إلا أنه لم يفعل واقترب منه أكثر ثم أكمل قائلًا:

- ولكن حتى لو أن زوجتك وابنتك نجتا بمعجزة ما من ذلك الحريق أتظن أن طاغين سوف يُفوت على نفسه فرصة قتلهما من أجل قهرك وإضعافك؟!..

كان عاصف يعلم أن الحكيم معه حق فلو أن سرابي وجومانا نجتا من ذلك الحريق الهائل فإن طاغين سيُلقي عليهما القبض فورًا ويقتلهما بدون تردد..

لم يحتمل عاصف بشاعة الحقيقة واكتست عينه اليُسرى باللون الأحمر القاتم فسدد لوجه الحكيم لكمة قوية مباغتة جعلته يتراجع للخلف بضع خطوات قبل أن يسقط أرضًا..

لم يغضب الحكيم؛ ذلك أنه كان يُدرك جيدًا مدى اتساع الجحيم المستعر داخل صدر صديقه.. نهض من فوق الأرض بوجه ينثال منه الدم وعاد ليقف في النقطة ذاتها التي كان يقف فيها قبل أن يتلقَّى الضربة، قال وهو يرفع يده في إيماءة استسلام:

- **إن كان هذا ما سيُطفئ غضبك يا صديقي، فسأكون سعيدًا بتلقي المزيد من الضربات..**

أعاد عاصف توجيه لكمة أخرى لوجهه ولكن هذه المرة كانت أشد قوة من المرة الماضية فقذفت بالحكيم مسافة أطول للوراء قبل أن يسقط أرضًا..

لم يكتفِ عاصف بذلك وأرادَ أن ينقض عليه ويكيله مزيدًا من اللكمات، غير أن الشمالي الذي لم يعد بوسعه البقاء واقفًا لمدة أطول وهو يُشاهد ذلك المنظر دون حراك، فإنه انتزع سيفه الطويل الأشبه بسيوف الساموراي واعترض به طريق عاصف وصاح:

- هذا يكفي!!

توقف عاصف مكانه بفعل حد السيف الموجه لعُنقه والتفت بعينيه نحو الشمالي:

- هل أصبحت الآن تقف في صفه ضدي؟!!

- لستما عدوين لأقف في صف أحدكما ضد الآخر؛ نحن أصدقاء.

رد عليه بنبرة منخفضة لكنها تحمل الكثير من الغضب:

- لا تقل أصدقاء، أنا لا أُصادق الجبناء..

قطع حديثهما ذاك امتداد يد الحكيم الراجفة نحو حد السيف لتُبعده عن عُنق عاصف، ثم قال بصوت مُنهك متقطع الأنفاس تفوح منه رائحة دم ينزف داخل فم جاف:

- أنا لستُ جبانًا..

وأضاف وهو يُعيد رفع يديه مرة أخرى في إيماءة استسلام:

- وتستطيع أن تختبر شجاعتي بلكماتك إن أردت، وأعدكَ أن يُحسن جسدي استقبالها واحدة تلو الأخرى حتى أنطفئ أمامك وأموت..

وبينما عاصف صامت لا يعلّق بشيء، أكمل الحكيم قائلًا:

- إننا لا نخاف الرحيل عن هذه الحياة؛ فكلنا راحلون في نهاية المطاف ولكن كُل ما نسعى إليه حين يأتي موعدنا.. هو أن نرحل عنها بشرف..

قال عاصف مقهورًا وهو يُشير بيده نحو القصر المحترق:

- إنك لا تفهم معنى أن يرى المرء أحلامه كُلها تحترق أمامه وهو لا يستطيع إلا أن يشاهد دخانها بصمت..

- أنا أفهم شيئًا واحدًا فقط، وهو أنك لا تستطيع الاستسلام قبل أن تُعاقب ذاك الذي أضرم النار في أحلامك..

ثم أمسكه من تلابيب ثيابه وصرخ عليه:

- أتُريد أن تموت قبل أن تأخذ بثأر زوجتك وابنتك من طاغين؟!!

بقِيَ عاصف ذاهلًا ينظر بصمت للوجه المكتسي بالدم، وكأن ذلك السؤال أيقظ شيئًا كان غافيًا فيه..

أكمل الحكيم عتابه بنبرة أقل حدة:

- أتُريد أن تموت قبل أن تنتقم لموت أيوب؟!.. وموت جنود جيشك؟!.. وموت الوزيرة خيزران؟!.. وحرق القصر؟!.. والمصير المجهول الذي سيؤول إليه حصانك المُجنح سابح؟!.. لأنك أن كنتَ تريد ذلك فأنا لا أريد - ثم أردف يقول:

- أعدك أن نقتحم هذه الجزيرة ونأخذ بثأرنا ممن قتل أصدقائنا، ولكن ليس قبل أن يأتي الوقت الذي نكون فيه مستعدين لفعل ذلك..

وفي تلك اللحظة تذكر عاصف الجملة التي كانت أمه دائمًا تُرددها عليه حين كان صغيرًا:

"تذكر يا بني أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه"

فرفع رأسه ينظر نحو السماء الواسعة من فوقه وأخذ يُطيل النظر إليها وكأنه يُفتش فيها عن ثقب صغير يستطيع أن ينظر من خلاله إلى وجه الرب..

وعندما لم يجد في السماء ذلك الثقب فإنه جثا على ركبتيه وسجد واضعًا جبينه فوق التراب كما لو أن فطرته أنبأته أن تلك الطريقة هي الأسمى للوصول إلى الرب في عليائه..

طلب منه الصبر والنصر وتحقيق الثأر، ثم ورغم أنه كان قد أصبح ناضجًا بما فيه الكفاية ليدرك أن الذي يذهب للموت لا يعود منه إلا أنه أضاف هامسًا ودموع الرجاء تُبلل موضع سجوده:

- وأعدهما لي أيها الرب، أعد زوجتي وابنتي للحياة مجددًا..

بعد خسارته لأمه فيما مضى اعتقد عاصف أنه سيكون محصنًا ضد أي خسارة قادمة.. ولكن خسارته زوجته وابنته في يوم واحد كانت شيئًا يفوق طاقة احتماله؛ لذلك فإنه ما أن انتهى من دعوته تلك حتى أسوّدت الدنيا في عينيه شيئًا فشيئًا ولم يعد يرَ غيرِ الظلام، ثم سقط لفرط الحزن مغشيًا عليه..

اندفع أصدقاؤه نحوه ليطمئنوا عليه، قال الحكيم بعد أن عاينه:

- أنه بحاجة للعلاج دعونا نخرجه من هذه الغابة ونأخذه لمكان آمن قبل أن ينتبه علينا جنود طاغين..

**

حملوه من هُناك وساروا به مبتعدين ولم يكن أحد منهم يعلم أنه في تلك البقعة التي وضع عليها عاصف جبينه قبل قليل كان ثمَّة بذرة مدفونة تحت قِشرة التُّربة كُل ما كانت تحتاج إليه لتخترق غلافها وتمد عُنقها الأخضر فوق الأرض هي دموع الرجاء تلك التي هطلت عليها من عينيه الحزينتيّن..

٣

الحريق

ما أن وصل طاغين - في وقت سابق - لجزيرة الأرباب حتى اشتبكت قواته المُرتزقة مع جنود الفيلق الثاني والذي كانت مهمته تقتصر على حماية الجزيرة والقصر..

ورغم أن الفيلق الثاني لم يكن يتجاوز عدده العشرة آلاف مقاتل فقط إلا أن إدراكهم بحقيقة أنهم الخط الدفاعي الأخير لأبابيل جعلهم يستطيعون إيقاف طاغين ومقاتليه ومنعهم من تجاوز حدود الشاطئ..

غير أن تلك المعركة لم تستمر طويلًا حيث أعطت الوزيرة خيزران أمرًا لحامل البوق بأن ينفخ فيه حاثًّا الجنود على التراجع والانسحاب نحو القصر..

اعترضها أحد الفرسان قائلًا:

- سيلاحقنا طاغين بجيشه ويقضي علينا بسهولة لو أننا انسحبنا يا سيدتي الوزيرة!!

- سنُبقي على فئة من الجنود لحماية الفيلق وهو ينسحب..

- ولكنكِ تحكمين بالإعدام على تلك الفئة!!

- هذا أفضل من أن نحكم بالإعدام على جميع جنود الفيلق..

- الجنود معنوياتهم مُرتفعة دعيهم يُدافعوا عن الجزيرة!!

- لن يصمدوا طويلًا أيها الفارس؛ لقد أُعدوا للدفاع ضد الهجمات البسيطة وليس للدفاع ضد جيش كبير مثل هذا الجيش الذي جاء به طاغين..

- ولكننا لو انسحبنا فإننا بذلك سنُعطيه فرصة ذهبية لمحاصرتنا داخل أسوار القصر!!

- لن يطول حصارنا هُناك سيأتي الملك بالتأكيد لنجدتنا ما أن يصله الخبر.. وإلى ذلك الوقت يجب علينا أن نتراجع لحماية الملكة والأميرة الصغيرة!!

كان الفارس يُريد أن يقول لها بأنهم يجب ألّا يعتمدوا على تلك النجدة، لأنهم ليسوا واثقين مما إذا كان الملك وفيلقه بخير أو أنهم قد تعرضوا لمشكلة ما ربما تمنعهم أو تؤخرهم عن القدوم..

ولكن الوزيرة لم تترك له مجالًا ليشرح لها حيث صرخت في حامل البوق قائلة:

- انسحاب، أعطِ أمرًا بالانسحاب!!

أخذ حامل البوق نفسًا عميقًا قبل أن يحشر شفتيه في فتحة البوق وينفخ فيه بنغمة مُحددة ما أن سمعها جنود الفيلق حتى انقسموا تلقائيًا لفئتين:

فئة عُظمى تقهقرت وانسحبت نحو القصر للتحصن بداخله بينما بقيت فئة صُغرى تقاتل بشراسة على الشاطئ لتحمي ظهور الفئة المُنسحبة..

وفي أقل من ساعة واحدة استطاع طاغين ومقاتليه القضاء على الفئة الصُغرى، وأن يفرض نفوذه وسيطرته على الشاطئ الأمامي الواسع لجزيرة الأرباب..

لم يمنح طاغين مقاتليه قسطًا من الراحة بل بدأ يستعد لمواصلة الزحف بجيشه للأمام ومحاوطة القصر.. ولكنه قبل أن يفعل ذلك جاءه هآمان يحمل إليه الخبر التالي:

- سيدي هناك حفنة من الرُقباء يقولون إنهم رصدوا حصانًا أبيض مُجنحاً يعبر من فوق أجوائنا، ويبدو أنه متجه نحو القصر..

- إنه سابح..

- ماذا نفعل يا سيدي؟!

- أعطِ الأمر بالقبض عليه..

ثم وهو يلتفت لأشجار غابة الأخدود الكثيفة المقابلة لشاطئ جزيرة الأرباب ويقول بشك:

- لا بد أن عاصف قريب من هُنا وربما كان مختبئًا خلف أحد هذه الأشجار..

- ماذا تأمر يا سيدي؟!

- مُرّ بعضَ المقاتلين الأقوياء بالذهاب والبحث عنه وعن أصدقائه المزعجين.. واجعل فريقًا من الجيش يُرابط فوق الشاطئ؛ لحماية ظهورنا بينما نواصل تقدمنا نحو القصر..

تقدم طاغين بجيشه في طرقات جزيرة الأرباب التي تحفها الأشجار الضخمة، وواصل اجتياح الجزيرة حتى وصل إلى القصر وحاصره من جميع الاتجاهات..

اقترب هآمان:

- أأمر كتيبة من المقاتلين بالقفز من فوق الأسوار؟!

قال طاغين بنبرة ذات مغزى:

- أجل.. فقد مرَّ وقت طويل لم أرَ فيه أشياءَ تدعو للضحك..

لم يفهم هآمان معنى تلك الجملة واختار كتيبة من الجيش مكونة من ثلاث مئة وخمسين جنيًّا هوائيًّا وأمرهم أن يقفزوا من فوق الأسوار العالية ويفتحوا البوابات لبقية المقاتلين..

قفز الجن عاليًا باتجاه السور العالي ولكنهم ما أن اقتربوا من حافته وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى لتجاوزه حتى أصابتهم صاعقة نار قادمة من السماء مزقتهم جميعًا وحولتهم لكومة من الرماد..

عمَّ الهدوء المكان وصمت المقاتلين لفرط الرعب والخوف.. وحده طاغين استغرق في الضحك حتى كاد أن يسقط أرضًا..

سأله هآمان:

- أكنت تعلم بأن هذا ما سيحدث معهم يا سيدي؟!

- بالطبع كنتُ أعلم؛ فأنا أعلم كُل شيء..

- لماذا وافقت على إرسالهم إذًا؟!

- لقد قلتُ لك إنه قد مرَّ وقت طويل لم أرَ فيه أشياء تدعو للضحك.. بحقي عليك يا هآمان ألم تكن أشكالهم مُضحكة وهُم يُصعقون بنار السماء؟!

خاف هآمان أن يُصيبه الأذى إن عارض رأي سيده، فاختلق ضحكة مزيفة وقال من بين قهقهاته:

- بلى يا سيدي كانت أشكالهم مُضحكة!!

اكتسى فجأة وجه طاغين بالجدية وقال يُفسر الأمر:

- لقد قام قدماء الأباطرة بلعن أسوار القصر بالكثير من الطلاسم مما جعلها أسوارًا حصينة لا يمكن اجتيازها؛ لذلك تمزق مقاتلينا حين اقتربوا منها لذلك الحد..

- وماذا عن الأبواب؟!

- إنها تتبع الأسوار.. لا يمكن الاقتراب منها وهي مُغلقة..

- بهذه الطريقة سيطول حصارنا لهم..

بقِيَ طاغين صامتًا للحظات قبل أن يقول:

- أتعلم كيف يصنع بعض صيادي بني البشر لاصطياد الأفاعي التي تتحصن داخل أوكارها وترفض الخروج؟!.. إنهم يضرمون في أوكارها نارًا يا هآمان ويتركون لها ترف الاختيار.. إما الخروج من الأوكار طوعًا، وإما البقاء فيها حتى الموت بالاختناق..

- وأنت ماذا تنوي أن تفعل يا سيدي؟!

- أن أعطيهم ترف الاختيار..

قال ذلك ووجّه تركيزه نحو راحة يده حتى استطاع أن يكوّن فيها شُعلة من اللهب وقذف بها بكل قوته نحو القصر.. فمضت الشُّعلة من فوق الأسوار بسرعة هائلة لم تتمكن معها صواعق نار السماء المتتالية من اعتراض طريقها..

وهكذا بدأ القصر بالاحتراق..

لم يمضِ وقت طويل حتى فُتحت بوابات الأسوار من تلقاء نفسها وبدأ كُل من كان يتحصن داخلها من جنود الفيلق الثاني بالخروج تباعًا بُغية النجاة من الحريق، فكان مقاتلي طاغين يستقبلونهم بالقتل الفوري..

**

رغم أن طاغين انتصر في هذه المعركة إلا أن نفسه لم تطمئن تمامًا لذلك النصر.. إنه يعلم أن كُل ما فعله إلى الآن ليس كافيًا لهزيمة روح مقاتل شجاع مثل عاصف؛ لذلك أراد أن يمضي قدمًا في أذيته حتى يتأكد أنه حطمه بشكل نهائي..

ولأجل ذلك تحديدًا فإنه أعطى مجموعة من جنوده الأمر التالي:

- فتشوا عن زوجة عاصف، وأحضروها مع ابنتها الصغيرة..

ذهب الجنود - جنًّا وشياطينَ وسحرة وإنسًا عاديين - للبحث عن سرابي وابنتها جومانا وإحضارهما لطاغين..

اقترب هآمان من سيده الذي كان يستمتع برؤية الحريق وسأله:

- متى ندخل القصر يا سيدي؟!

- **بعد أن يتدمر أغلبه ويموت كُل الذين يتحصنون بداخله..**

٤

الهروب

عندما شاهدت سرابي اشتعال النار في هيكل القصر فكرت في أن تحمل ابنتها وتهرب بها ريثما تصل الأخبار لعاصف ويأتِي لينقذها.. إنها تُدرك جيدًا أن الهرب سوف يكون صعبًا في مثل تلك الظروف لكنها لن تموت دون أن تحاول..

حملت ابنتها من فوق السرير وهربت بها من الجناح باذلة كُل جهدها لتفادي الأسقف المتساقطة وألسنةِ اللهب الحارقة.. شاقة طريقها بكل حزم بين الدخان الأسود الكثيف الخانق تُريد الوصول لسرداب سريّ كان يقع في الجهة الخلفية للقصر تم بناؤه كخطة هروب لمثل هذه الحالات الطارئة..

وما أن وصلت إليه أخيرًا حتى فتحت بابه بيدها وهمّت بقذف نفسها وابنتها فيه إلا أن أحد الشياطين كان قد تمكن من الإمساك بها قبل أن تهرب بلحظات قليلة..

حاولت أن تُخلّص نفسها من قبضته ولكن الشيطان كان أقوى منها.. وكاد أن ينجح في أخذها من هُناك لو لم يأته من وسط النار صوت الفحيح المرعب ذاك:

- **أبعد يدك عنها، أيها الشيطان القذر..**

التمعت عينا سرابي امتناناً عندما رأت كوبرا أفعى الجن تارا تقف بالقرب منها، وامتلأت روحها أملًا يُشبه أمل طفلة وقعت في ورطة كبيرة وظنّت ألّا خلاص لها منها فجاءت والدتها في اللحظة الأخيرة لتنقذها..

كان منظر تارا المخيف وعيناها اللتان تلمعان سوادًا وسط الحريق، قد بثّ الرعب في قلب ذلك الشيطان مما جعله يترك سرابي وشأنها ويلوذ بالفرار..

التفتت سرابي نحو تارا وسألتها:

- ما الذي يحدث بحق الرب يا تارا؟!

- إنه الخطر الذي كلمتكِ عنه، إنه طاغين..

- وأين حرّاس الجزيرة عنه؟!!

- لقد قضى عليهم جميعًا..

- وعاصف - سألتها بخوف - أين عاصف من كُل هذا؟!!

- لا أعلم ولكن هُناك أخبارًا تقول إنه هُزم في معركة مزار الشُّهب

- مستحيل، عاصف لا يُهزم يا تارا.. عاصف لا يُهزم!!

- لسنا متأكدين من شيء إنها مجرد أخبار وقد تكون خاطئة..

ثم همست لها محذرة:

- كُل ما يجب عليكِ فعله الآن هو أن تهربي وألّا تدعِي أحدًا يُلقي القبض عليكِ أو على ابنتكِ مهما كلف الأمر..

- وأنتِ ماذا ستفعلين؟!

- سأحاول إيقافه بكل ما أستطيع من قوة

وأضافت قبل أن تبتعد وقد تحول وجهها لكتلة من الغضب:

- هيا لا وقت لديكِ أيتها الملكة اهربي بعيدًا من هُنا؛ فالقصر بات مكانًا خطرًا عليكِ..

**

قذفت سرابي بنفسها في السرداب ثم ركضت وهي تحمل ابنتها بين يديها حتى إذا وصلت لنهاية الممر وجدت نفسها وقد أصبحت وسط الحديقة الخلفية للقصر...

واستمرت تركض وسط الضباب الثقيل وجداول الماء الجارية والأشجار الخضراء الكثيفة ورغم أن أحدًا لم يكن يتبعها في ذلك الوقت إلا أنها واصلت ركضها بخوف غزالة مُطاردة ولم تتوقف إلا عندما أصبح الشاطئ الخلفي لجزيرة الأرباب أمامها..

أطلّت للشاطىء بحذر وحين تحققت من أنه آمن واصلت سيرها نحوه، فكرت في البداية أن تستقل أحد القوارب الشراعية الراسية هناك وتهرب بمعيته بعيدًا.. إلا أن إيمانها الشديد بأن زوجها عاصف سيأتي في أي لحظة لِيُنقذها جعلها تكتفي بأن تختار لها مخبأً في الظل وتدس نفسها فيه ريثما تصلها النجدة..

**

كان سُخام الحريق يُغطي وجهها الجميل عندما ضمت ابنتها بشدة إليها وكأنها لفرط خوفها عليها أرادت أن تبتلعها وتردها لجوفها من جديد وناجت في ظلمات اليأس زوجها تُعاتبه:

"أين أنت الآن ما الذي أخرك لكل هذا الحد؟!"..

وبعد مُضي وقت يسير نظرت سرابي لوجه طفلتها فوجدته شاحبًا وقد استحال للون الأصفر المخطوف؛ فعرفت أنها جائعة..

التفتت يمينًا وشمالًا كما لتتأكد من أن أحدًا لا يراها.. وحين اطمأنت فإنها كشفت عن صدرها المدوَّر الممتلئ بالحليب مثل فاكهة جوز هند ناضجة وقربته لفم ابنتها وتمتمت:

- لا تقلقِي أبوكِ لن يتركنا، سيأتي بعد قليل لإنقاذنا..

جعلت الطفلة - نصف الغافية - بشكل لا شعوري ترضع الحليب من ثدي والدتها حتى ارتوت وامتلأت معدتها الصغيرة..

وبعد ذلك أسندتها والدتها على كتفها وجعلت تُطبطب على ظهرها بيدها لتساعدها على التجشؤ، ولم تتوقف سرابي عن فعل ذلك إلا عندما لمحت من بعيد خمسة من السحرة وقد كانوا قادمين للتفتيش عنها وعن ابنتها فتمتمت:

- يا للمصيبة، يا للمصيبة!!

٥

البحر

كان مخبؤها جيدًا ولكنها لا تضمن البقاء فيه دون أن يراها أحد؛ وفكرت باستخدام تعويذة الاختفاء التي علمتها إياها تارا مؤخرًا إلا أنها سرعان ما تذكرت تحذيرها لها: "ولكن لأنكِ لستِ بساحرة فإنه يجب عليكِ أن تعلمي أن السحر الذي سوف تستخدمينه سيكون محدود الفاعلية"..

إنها تستطيع أن تختفي بشكل كامل لو أنها نزعت عنها ملابسها وقرأت التعويذة ولكن ابنتها سوف تبقَى مكشوفة؛ لهذا كان عليها أن تُفكر بحل آخر غير استخدام التعويذة..

وبدأ القلق يتسرب لقلبها مع اقتراب السحرة من مكانها، وجعلت تُردد بينها وبين نفسها بقلق وجزع:

- كيف أتصرف، كيف أتصرف؟!!

وعندها تعالت أصوات الأمواج من ورائها بشكل لافت وغريب، فالتفتت للبحر مذهولة كما لو أن البحر من خلال هدير أمواجه كان يُناديها:

- القوارب، يجب أن نستقل أحد القوارب!!

ركضت نحو أحد القوارب وقفزت بابنتها لجوفه بعد أن قامت بتحريره من الحبل الذي كان يُبقيه راسيًا مكانه.. أفردت شراعه ورفعت بيديها المرساة فبدأ القارب يبتعد وهي تجلس عند حافة مقدمته تحاول أن تُجدف الماء بيدها بكل ما تستطيع من قوة وتُتمتم بعصبية:

- هيا هيا هيا.. ابتعد ابتعد ابتعد!!

لكن القارب كان يطفو مبتعدًا ببطء شديد؛ الأمر الذي جعلها تفكر في أن السحرة قد يرصدونه قبل أن يبتعد عن الشاطئ كثيرًا ويقومون باللحاق بها وبابنتها؛ لذلك فإنها كانت مضطرة حينها لتتخذ القرار الأكثر صعوبة في حياتها وهو:

أن تترك ابنتها تذهب وحدها في عرض البحر بينما تعود هي للجزيرة من أجل إلهاء السحرة قليلًا ريثما يأخذ القارب ابنتها للبعيد..

**

إنها فكرة متهورة جدًّا ولكن لا حلول في الأرض تُنجيها من مُصيبتها ولا خلاص لها إلا أن تثق بحل السماء؛ إنها تُدرك أن احتمال نجاة ابنتها ضعيف لو أنها تركتها تذهب وحدها في عرض البحر ولكن يبقَى ذلك الاحتمال الضعيف بالنسبة إليها أفضل بكثير من أن تقع في قبضة طاغين فيكون موتها أكيدًا..

استنشقت رائحة ابنتها بقوة وكأنها بذلك الشهيق كانت تأخذ حصتها من الهواء الذي سوف يُغذي رئتيها طوال ما تبقى لها من عمر قادم ثم همست لها كالمعتذرة:

- **إن قُدِّر لنا والتقينا مرة أخرى، أعدكِ ألّا أتركك أبدًا.**

ثم قفزت من فوق القارب الشراعي وجعلت تسبح نحو الشاطئ مُثقلة بالخوف والضعف والبكاء وبالماء وتياره المُعاكس الذي كان يدفعها للوراء..

ما أن وصلت إلى الشاطئ حتى سارعت بنزع ملابسها عن جسدها الأبيض النحيل والذي بدا تحت أشعة الشمس كما لو أنه رغيف خُبز ساخن خرج لتوه من التنور..

وبدأت تُتمتم مستخدمة تعويذة الاختفاء غير أن الارتباك والتوتر جعلاها لا تُحسن قراءة التعويذة بالشكل الصحيح..

كان السحرة يقتربون من موقعها وهذا ما يُصعّب عليها الأمر، فلو أنهم وصلوا إليها فسيكون من السهل عليهم رؤية القارب وبالتالي سيلحقون ابنتها وسيلقون عليها القبض، يجب عليها أن تصرفهم عن الاقتراب من ذلك المكان ريثما يأخذ القارب ابنتها بعيدًا..

أغمضت عينيها ورددت التعويذة بتركيز وهدوء ولم تفتحهما إلا عندما سمعت صوتًا حاد ثقيل الطبقة يقول لها:

- أريد أن ألعق من دمك..

هزّت رأسها بإشارة نعم، وما أن فعلت حتى تلاشى من فوق الأرض ظلها واختفت..

**

وجعلت تركض وهي مُختفية نحو الجهة المُعاكسة للبحر في الوقت الذي كان فيه السحرة يقتربون من الموقع الذي لو وصلوا إليه فإنه سيُصبح بإمكانهم رؤية القارب..

وما أن وصلت أخيراً لأطراف الحديقة الخلفية للقصر حتى سارعت بكسر غصن من شجرة قريبة منها وغرسته في كتفها بقوة..

وما أن نزف كتفها دمًا ولعق الشيطان دمها بواسطة لسانه العريض المدبب حتى زالت عنها التعويذة وعاودت الظهور مجددًا.. وحين ظهرت انتبه إليها أحد السحرة فصرخ قائلًا:

- هُناك.. إنها هُناك!!

هربت سرابي إلى عمق الحديقة باذلة كُل طاقتها حتى لا تُمسك بسرعة ولكن السحرة حاصروها بأسرع مما توقعت، صرخ عليها قائدهم ويُدعى غِيلان:

- أين ابنتكِ أيتها العاهرة؟!!

لم تُجب عليهم ولم يأتِ في بال أحدهم أنها قد ألقت بها في البحر، فانهالوا عليها شتمًا وضربًا لكنها صبرت تُقاسي الألم وتكتم إجابتها حتى انتبه أحد السحرة لشعرها المبلول وجلدها الدبق والذي كانت تفوح منه رائحة الملح فقال مستنتجًا وقد أدرك حيلتها:

- **القذرة الملعونة!!.. وضعت ابنتها في جوف القارب وألقت بها في عرض البحر!!**

**

أخذها السحرة للبحر ولكنهم حين وصلوا بها للشاطئ كان القارب الشراعي قد اختفى في الأفق ولم يعد أحد فيهم يعلم أي اتجاه يسلك للحاق به قال غِيلان:

- انسوا أمر الطفلة؛ إنها في نهاية المطاف لن تكون إلا وجبة خفيفة لوحوش البحر..

وبعد لحظات اقترح أحدهم وهو يتأمل جسد سرابي العاري والفاتن وأنفاسه تعلو وتتصاعد كأنفاس كلب يُخرج لسانه لفرط الحر والعطش:

- ما رأيكم أيها الرفاق أن نتمتع بجسدها قليلاً؟!!

وسرعان ما وافق الأغلب على ذلك الاقتراح وبدؤوا فيما بينهم بتقاسم الأدوار للتعاقب عليها، ثم وقبل أن تمسها يد أحدهم قال ساحر منهم:

- ولكننا قد نُغضب سيدنا طاغين بهذا الأمر؛ فربما أراد هو أن يتمتع بها أولاً.. ما رأيكم أن نأخذها إليه ونستأذنه.. فإن أذن لنا فعلنا.. وإن رفض نكون قد اتقينا عقابه وغضبه..

لم يكن بقية السحرة ليستمعوا إلى ذلك الرأي وهم في تلك الحالة القُصوى من الهيَاج والشهوة والشبق لولا أنهم خافوا عندما ذُكر عليهم اسم طاغين..

قال قائدهم غِيلان بصوت من خاب ظنّه:

- هذا الفتى معه حق، لنأخذها لسيدنا طاغين ونستأذنه في الأمر..

كبلوا عنقها بالسلاسل وأخذوها من هُناك مثل أسيرة حقيرة فكانت تسير معهم ذليلة مكسورة الخاطر تحجب ثدييها المكشوفيّن بذراعها بينما تحجب ما بين فخذيها بيدها الأخرى..

وكانت بعد كُل خطوتين تخطوهما للأمام، تختلس النظر للخلف من فوق كتفها.. تنظر للبحر بكل حزنها وخوفها وقِلة حيلتها وتُردد في قلبها قائلة:

- أيها الرب، كُن معها..

الباب الرابع

١

الشيزمان

ليلًا وبعد مُضي نصف يوم منذ أن قام الحكيم والشمالي وطائر العنقاء إكليل بحمل صديقهم عاصف والابتعاد به من غابة الأخدود، قرروا أخيرًا التوقف من أجل أخذ قسط للراحة وللتفكير بالخطوة القادمة..

قال الشمالي مُقترحًا:

- لا نستطيع البقاء مكشوفين هكذا لمدة طويلة، يجب أن نختبئ..

اقترح الحكيم:

- ما رأيكم بالذهاب لقرية الجساسة إن الأهالي هناك يُحبون عاصف ويعتبرونه ابنًا لهم حيث إنه وُلد ونشأ هناك، وسوف يرحبون باستضافته بينهم..

رد الشمالي:

- يجب أن نفكر بمكان آخر - وأضاف يذكر السبب:

عندما يحتل أحدهم العرش فإن أول ما يفعله هو قتل الملك السابق كي يضمن أنه لن يحاول استعادة مُلكه؛ لذا فإن طاغين بالتأكيد سيسعى للتخلص من عاصف في الأيام القادمة، وستكون الجساسة هي المكان الأول الذي سيرسل إليه جنوده للبحث عنه فيه..

قال إكليل مُقترحًا:

- ما رأيكم أن نلجأ "للشيذمان" ونطلب منه أن يُخبئنا في قريته..

الشيذمان هو زعيم إحدى القبائل الإنسية من ذوات السلالات المتحوّلة، وقد حيكت عنه وعن قبيلته الكثير من القصص المُخيفة والمرعبة والتي تجعل فكرة اللجوء إليهم ضربًا من الجنون..

قال الحكيم مُعترضًا:

- ولكننا من الإنس أيها الطائر الأبله؛ أي أننا الطعام المفضل لأولئك المتحولين ولو ذهبنا إليهم فإنه سوف ينتهي بنا المطاف في بطونهم بلا شك..

قال إكليل يُطمئنه:

- إن الشيذمان من أشد زعماء القبائل ولاء لعائلة الأباطرة، وهو لن يخذلنا لو أننا لجأنا إليه..

- وماذا لو ذهبنا إلى هناك ولم نتمكن من لقائه هاه؟!..

- ولماذا لا نتمكن من لقائه؟!

- لأنه ليس فردًا عاديًّا من أفراد القبيلة يا إكليل، إنه زعيمهم ولن تكون فرصة وصولنا إليه سهلة هل فهمت؟!

- ولكنها فرصة تستحق المحاولة؛ إنها القرية الوحيدة القريبة من هُنا والقادرة على حمايتنا ريثما يسترد عاصف قوته وينهض من جديد..

وحل بين الأصدقاء الثلاثة صمت ثقيل؛ فالليل الذي كان يُساعدهم على الاختباء من الجنود سوف ينتهي بعد ساعات قليلة وعندما تُشرق شمس الصباح سيكون حينها من الصعب عليهم مواصلة الاختباء لمدة أطول..

قال الشمالي حاسمًا الأمر:

- أنا أتفق مع رأي إكليل..

اعترض الحكيم:

- بل هُناك حل آخر.. لماذا لا نلجأ لقبائل الأشاوس فهم أقوياء أيضًا وقد ساعدونا في حربنا الماضية ولن يتأخروا بمساعدتنا هذه المرة..

قال الشمالي:

- صحيح أن الأشاوس أقوياء ولكنهم بعيدون جدًّا من هُنا والوصول إليهم سوف يستغرق وقتًا أكثر بكثير من الذي نملكه..

في تلك الأثناء اهتزت الأرض من تحت أقدامهم وشعروا أن هُناك من يقترب منهم، حلّق إكليل مرتفعًا ليرى ما الأمر قبل أن يعود إليهم سريعًا ومعه الأخبار:

- إنهم جنود طاغين وهم قادمون باتجاهنا..

قاموا بحمل عاصف بسرعة واختبؤوا به بين الأشجار الكثيفة، ريثما يمر الجنود من هناك ويزول خطرهم..

**

وحين شاهد الحكيم عن قرب كُل أولئك الشياطين والعفاريت الأقوياء دبّ الخوف في قلبه وشعر بضرورة اتخاذ خطوة سريعة للخروج من ذلك المأزق..

سأل هامسًا بعد أن رحلوا وزال عنهم الخطر:

- تلك القبائل المتحوّلة التي يقودها الشيذمان يا إكليل..

- ماذا عنها؟!

- هل يتحول أفرادها لقطط؟!

- بل لذئاب؛ ولذلك تُسمى قبائل المُستذّئِبين..

- لنأمل إذًا أن تكون ذئابًا أليفة..

تعاون الحكيم والشمالي في حمل عاصف وسارا به متجهين غربًا نحو قبائل المُستذّئِبين، بينما طائر العنقاء إكليل يُحلّق على مقربة منهم ويراقب لهما الطريق..

٢

الزئب ذو الغُرة البيضاء

كان الأصدقاء الثلاثة يسيرون بحذر شديد تحت جُنح الليل البهيم كي لا يُثيروا انتباه جنود الملك الجديد، واستمروا يواصلون تسللهم بصعوبة ومشَقَّة حتى لاحت لهم في الأفق قرية المُستذّئِبين..

كانت القرية تتمركز فوق هضبة مُنبسطة عالية الارتفاع حتى أن القمر المُكتمل في قُبة السماء كان يبدو قريبًا منها للحد الذي يُخيل لمن ينظر إليها من بعيد أن أهالي تلك القرية يستطيعون لمس قُرص القمر بأصابعهم لو أنهم اجتهدوا قليلًا في القفز إليه..

هبّت نسمة هواء قادمة من اتجاه القرية تحمل لهم على متنها روائح دم طازج وجثث مُتعفنة، فسرت قشعريرة الخوف في جسد الحكيم الذي وقف مكانه للحظات قبل أن يعلق قائلًا:

- رغم أن الماء لم يدخل بطني منذ الصباح، إلا أنّي فجأة بت أشعر برغبة شديدة في التبوّل..

قال الشمالي يحفزه:

- لو أكملنا السير للأمام فهناك فرصة للنجاة، لكن لو تراجعنا فسوف نقع في قبضة الجنود..

- أكرهك عندما يكون الحق معك هيا دعونا نواصل..

ساروا بصديقهم عاصف نحو القرية ولكنهم قبل أن يدخلوها بما يُقارب الخمسة والعشرين مترًا تقريبًا سمعوا صوت صدى عَويّ ذئاب مُخيف لا يعرفوا من أي اتجاه كان يصلهم..

قال إكليل مُتفائلًا: إنهم يُرحبون بوصولنا..

رد الحكيم عليه: بل يُرحبون بوصول وجبة العشاء..

ثم وفي تلك اللحظة تمامًا بدأ عَويّ الذئاب يتعالى، فقال الحكيم مُستنتجًا:

- هل سمعتم؟!.. إنهم يتعازمون علينا يقولون لبعضهم: تعالووووووا.. وجبة العشاء وصلت.. تعالووووووا..

أحس الشمالي بالقلق من أصوات العواء المتتالية تلك، فقال:

- الوضع غير مُطمئن دعونا نتراجع ونفكر بالأمر قليلًا..

رد عليه الحكيم بلهجة مرحة وهو يستدير:

- أُحبك عندما تكون عاقلًا..

ولكنهم ما أن استداروا للخلف حتى وجدوا أنفسهم مُحاطين بقطيع مكون من سبعة من الذئاب الضخمة ذوات الأنياب السيفية البارزة..

علّق الحكيم بخوف:

- يبدو أنهم جياع، ما رأيكم أن نترك لهم عاصف بالهناء والشفاء ونهرب؟!

**

امتدت يد الشمالي تُمسك بمقبض السيف المعلّق على ظهره كإشارة يُخبر الذئاب فيها أنه وأصدقاءه سيكونون مستعدين للقتال في حال تطلب الأمر ذلك ثم قال:

- لم نأتِ لنؤذي أحدًا..

رد أكبرهم وقد كان ذئبًا مَهيبًا يميل فروه البني الكثيف للاحمرار، وتُميزه غُرة بيضاء تبرز عند مُقدمة رأسه:

- ما الذي جاء بكم لمنطقتنا أيها الإنسي؟!

تدخل الحكيم:

- لقد طلبت منهم عدم القدوم لكنهم لم يصغوا إليّ..

رد عليه الذئب ذو الغرة البيضاء:

- لم يوجه أحد السؤال إليك..

كاد الحكيم أن يرد عليه غير أن الشمالي أدرك سريعًا أن رد الحكيم سوف يكون بذيئًا ولن يفلح إلا في إثارة غضب الذئاب أكثر لذلك فإنه لم يتح له فرصة للرد وقال:

- جئنا للشيذمان، نطلب منه الحماية..

- الشيذمان لا يعطي الأمان للبشر، إنه يأكلهم..

قال الذئب ذو الغُرة البيضاء ذلك ثم انفرشت مخالبه الطويلة من تحت كفيه الأماميتين وتهيأ للقفز نحوهم غير أنّ إكليل الذي انتبه للأمر فإنه ارتفع عن الأرض قليلًا ونفث عليهم بعضَ اللهب ليُخيفهم..

ولكن الذئاب لم تخف من اللهب بل ثارت وازداد غضبها.. وعرف الأصدقاء ألّا مفر لهم غير المواجهة فاصطفوا قبالة عاصف مشكِّلين أمامه سورًا دفاعيًّا..

جرَّد الشمالي سيفه الطويل الأشبه بسيوف الساموراي، وأما إكليل فقد اصطبغت عينه اليُمنى باللون الأحمر القاتم، بينما أدخل الحكيم يده داخل بنطاله وأخرج من هُناك خنجرًا كان يُخبئه للحالات الطارئة وتمتم متوعدًا:

- إن لم يموتوا بنصله، ماتوا برائحته..

وفي تلك الأثناء - وقبل الاشتباك بلحظات - جاء صوت عُواء حزين قادم من اتجاه القرية كان أشبه بترنيمة عزائية، ما أن سمعها الذئاب حتى تحولت أعينهم فجأة من النظرة المسعورة الغاضبة، للنظرة الذابلة الحزينة..

قال الذئب ذو الغرة البيضاء وهو يوجه نفسه نحو القرية:

- يبدو أن الشيذمان قد اشتد به المرض، فلننسحب..

ما أن انسحبت الذئاب وزال الخطر حتى وجَّه الحكيم نفسه نحو الجهة المعاكسة للقرية وقال:

- يبدو أن عمرًا جديدًا قد كُتب لنا، فلننسحب..

لكن الشمالي كانت له وجهة نظر أخرى:

- مهلًا.. ألم يلفت انتباهك شيء مما قاله الذئب ذو الغُرة البيضاء؟!

- بلى، قال بأن الشيذمان لا يعطي الأمان للبشر بل يأكلهم..

- لا، لقد قال إن الشيذمان اشتد به المرض..

ضيّق الحكيم عينيه وسأل بنبرة مشككة وكأنه حدس ما كان يريد الشمالي قوله:

- وأنت بماذا يُهمك هذا الأمر؟!

- أُريدك أن تُلقي عليه نظرة فربما استطعت علاجه..

- الوحيد الذي يحتاج للعلاج هُنا هو عقلك المريض، هل تريد منّا أن نُعالجه لكي يقوم ويأكلنا؟!

- بل كي نكسبه صديقًا لنا فيؤوينا بقريته.. هل نسيت أن عاصف فاقد للوعي وبحاجة للراحة والعلاج..

علّق إكليل مؤيدًا:

- وهذه التنقلات الكثيرة لن تزيد حالته إلا سوءًا..

الحكيم يدرك أنهما محقان فيما قالاه لذلك فإنه حين فتح فمه بعد لحظات وجد نفسه يقول:

- حسنًا، ولكن إن مُتنا داخل هذه القرية.. فسوف أسلخ جلدكما بهذا الخنجر عندما نصبح في الجحيم..

٣

قرية المُستزِئبين

دخلوا القرية وهُم يحملون عاصف بين أذرعهم بينما إكليل يطفو في الهواء بجناحيه الطويليّن، ولاحظوا وهم في منتصف القرية أنّ هناك عيونًا تتجسس عليهم وتُراقب تحركاتهم من بعيد..

همس الشمالي مُحذرًا: إننا مُراقبون أيها الأصدقاء..

رد عليه الحكيم:

- وهل ظننت أنك ستكون حُرًّا داخل قرية المُستذّئِبين؟!.. لقد دخلنا هُنا بإرادتنا ولكنني أؤكد لك أننا لن نخرج إلا بإرادتهم..

واصل الأصدقاء سيرهم في طرقات القرية يتبعون همهمات الأصوات التي تترامى لأسماعهم حتى وصلوا لساحة واسعة؛ وهناك شاهدوا الكثير من أفراد القبيلة - وقد كانوا في هيئتهم البشرية - مُجتمعين أمام كوخ خشبي كبير وقد عرفوا من خلال ضخامته بالمقارنة ببقية الأكواخ المجاورة له أنه كوخ زعيمهم الشيذمان..

ولأن الشمالي يُدرك أن هُناك من قد يُهاجمهم في أي لحظة، فإنه همّ بالكشف عن سبب قدومهم قبل أن يفوت الأوان فصاح قائلًا:

- أيها السادة..

وحين التفت أفراد القبيلة نحوه أكمل يقول وهو يُمسك بيد الحكيم ويرفعها عاليًا:

- لقد جلبنا لكم حكيمًا بارعًا مُتمكنًا في المداواة ليُعالج الشيذمان من مرضه!!

همس الحكيم في أذنه وهو ينتزع يده ويَخفضها:

- أيها الأبله!!.. يجب أن أعرف أولًا ممَّ يُعاني زعيمهم ثم أرى أن كنتُ أستطيع علاجه أم لا..

خرج من الكوخ الخشبي شاب نبيذيّ البشرة يُدعى "**أَوس**" وقد كان فارع الطول عريض الصدر لا يضع شيئًا فوق جسده المفتول بالعضلات والممتلئ بالوشوم إلا إزارًا قصيرًا يلفه حول خاصرته المنحوتة..

كان أَوس ذا ملامح حادة التقاطيع ولديه شعر أسود طويل مشدود للخلف فيما يُشبه ذيل الحصان وتتدلى على جبينه العريض غُرة بيضاء ما أن شاهدها الأصدقاء حتى عرفوا من خلالها أنه هو نفسه ذلك الذئب ذو الغُرة البيضاء الذي اعترض طريقهم عند حدود القرية:

- أحقًّا تستطيع علاج والدي؟!

"**سأفحصه أولًا ثم أرى**".. كانت هذه هي الإجابة التي أعد الحكيم نفسه لقولها، إلا أنه بسبب الرهبة والارتباك وجد نفسه يقول:

- آآه نعم بالطبع أستطيع؛ فأنا حكيم بارع متمكن في المداواة

قال أَوس وهو يشده لداخل الكوخ: تعال إذًا وألقِ عليه نظرة..

أمضى الحكيم وقتًا طويلًا داخل الكوخ قبل أن يُنهي فحصه ويخرج ليُعلن أمام الجميع أن الشيذمان سيكون بخير..

شعر أفراد القبيلة بالفرح، فصفقوا وغنوا ورقصوا قبل أن يعودوا لأكواخهم سعيدين..

ربّت الشمالي على كتف صديقه الحكيم بحرارة، وقال له بنبرة صوت مؤثرة:

- كنت أثق أنك تستطيع فعلها..

همس الحكيم له مُعترفًا بعد أن اطمأن إلى خلو المكان:

- يؤسفني أن أخبرك أن ثقتك لم تكن في مكانها..

- ماذا تعني، ألن يكون الشيذمان بخير؟!!

- لا؛ فحالته خطرة جدًّا وما هو إلا يوميّن أو أقل ويلقى حتفه..

- ولماذا كذبت عليهم إذًا؟!

- خفت علينا من ردة فعلهم..

ثم أردف معترفًا وبصوت هامس:

- هذا بالإضافة إلى أنك لم تُشاهد بنفسك ذلك الذي يدعونه الشيذمان.. إنه كبير وضخم وشكله مرعب للغاية.. انظر ماذا حلّ بثيابي.. لقد تبولت على نفسي من شدة الخوف وذلك عندما أدخلت يدي داخل فمه لأفحصه فكاد أن يلتهمها!!

تكلم الشمالي بعصبية:

- وألم تخف علينا من ردة فعلهم حين يكتشفون أنك أعطيتهم أملًا زائفًا لن يتحقق؟!.. كيف سنُخرج أنفسنا من هذه الورطة الآن أيها العبقري؟!

- لا تقلق إنهم يثقون بنا وما علينا إلا أن ننتظرهم حتى يغفلوا عنّا ثم نحمل عاصف ونهرب به بعيدًا..

في تلك اللحظة ومن خلف أحد الحيطان القريبة ظهر لهم أَوس، وقد كانت نظراته الحاقدة تشي بأنه استمع لكل الكلام الذي دار بينهم:

- لن تبرحوا هذا المكان قبل أن تُعالجوا والدي!!

قال الحكيم يُبرر له:

- إن فرصة شفائه ضئيلة جدًّا؛ فقد انتشر السُّم في كامل جسده ونبض قلبه ضعيف..

- إذا انتهت حياته، فإن حياتكم ستنتهي معه أيضًا..

كان الشمالي يُقدّر حالة الحزن التي يمر بها أَوس ابن الشيذمان، ولكنه لم يكن من ذلك النوع الذي قد يتساهل عندما يشعر بالإهانة فقال:

- نحن نعلم أننا لن ننجو إذا ما قررتم قتالنا؛ ففي نهاية المطاف نحن بين قبضتكم تمامًا.. ولكن أريدك أن تعلم أننا لن نموت قبل أن نحصد الكثير من أرواحكم..

دفعه أَوس من صدره للخلف وقال له:

- أنت لست في حالة تتيح لك إطلاق تهديدٍ كهذا..

بحركة سريعة أدخل الشمالي يده في زنبيل كان معلقًا بخاصرته وأخرج منه حفنة من الرمل نثرها في عينيَ أَوس مما تسبب في تعطيل الرؤية لديه قليلًا..

وما كاد أَوس أن يستوعب ما حدث له للتو ويفتح عينيه حتى كان الشمالي قد جرّد سيفه الطويل الأشبه بسيوف الساموراي من غِمده والتف حوله واضعًا حد السيف على عُنقه:

- **أنا لا أُهدد، أنا أفعل ما أقول..**

رغم الوضع الحرج لأَوس إلا أنه كان يستطيع بصرخة نداء واحدة فقط أن يستدعي أفراد قبيلته وأن يقلب الطاولة رأسًا على عقب ولكن بدلًا من ذلك قال بحصافة:

- أبعد سيفك عني..

ثم أضاف وهو يُشير برأسه نحو عاصف:

- زعيمكم مُصاب وزعيمنا مُصاب، دعونا نفكر بطريقة لعلاجهما بدلًا من أن نضيع الوقت في قتال بعضنا بعضًا..

تخلى الشمالي عن وضعيته القتالية وتمتم كالمعتذر: معك حق..

ثم أعاد السيف بحركة رشيقة لغِمده وسأل:

- أخبرنا ما الذي حدث لوالدك وجعله يصل لهذه الحالة؟!

همس أَوس بغصّة:

- إنهم عشائر الدم - وأردف شارحًا:

إنها سلالة وحشية من الإنس تتغذى على دماء المخلوقات الحية..

- وكيف تمكنوا من إصابة والدك؟!

- لقد نشب بيننا وبينهم عِراك شرس حول ترسيم حدود مناطق الصيد وأثناء العِراك أصابوا والدي بزُعافهم.. حاول ساحر قريتنا "**الجد قسورة**" علاجه ولكن بدون فائدة..

يملك الفرد من عشائر الدم مادة شديدة السُّمّية داخل أنيابه الأربعة الأمامية تُسمى "**زُعاف**" تُساعده في القضاء على ضحيته بمجرد غرسه فيها..

أكمل أوس قائلًا:

- أثناء العراك قام أميرهم "**تليد**" بمواجهة والدي وأستطاع أن يغرس أنيابه في جسده عميقًا - وأضاف معترفًا:

- لقد كان أميرهم يحارب بمهارة عالية لم يسبق لي في حياتي أن رأيت مثلها.. لقد تجاوز جميع صفوف قبيلتنا بسهولة واستطاع أن يصل للشيذمان ويُصيبه بالزُّعاف ثم يتراجع دون أن يتمكن أحد منًّا من لمسه..

سأل الحكيم: ومتى وقعت هذه المعركة؟!

- قبل ثلاثة أيام - قال أَوس، وأضاف برجاء:

- ساعدوه أرجوكم، وسنعطيكم أي شيء تطلبونه في المقابل..

٤

الصفقة

في بداية الأمر لم يكن الشمالي يطمح من المُستذّئِبين غير شيء واحد فقط وهو: الاختباء هو وأصدقاؤه داخل قريتهم ريثما يستعيد عاصف عافيته وينهض من جديد..

ولكنه الآن وبعد أن سمع أَوس يقول: "ساعدوه أرجوكم وسنعطيكم أي شيء تطلبونه في المقابل"..

فإنه أصبح يطمح لشيء آخر غير الاختباء.. لقد بات يطمح بعقد حِلف مع القبائل المُستذّئِبة؛ فهم من أقوى القبائل المعروفة بقوتها وقدرتها على هزيمة الجن..

مد يده تجاه أَوس ناويًا عقد صفقة معه:

- نُعالج والدك مقابل أن تكون قبيلتكم حليفةً لنا في حربنا القادمة ضد طاغين ما رأيك؟!..

همّ أَوس بمصافحة يد الشمالي وعقد الصفقة معه، إلا أن الحكيمة تدخل بينهما:

- لحظة واحدة أنتما الاثنان.. لقد قلتُ لكما إن السُّم انتشر في كامل جسده، وإن نبض قلبه ضعيف جدًّا..

الشمالي:

- ولكنك قلت أيضًا إن فرصة شفائه ضئيلة ولم تقل إنها مستحيلة.. لن نخسر شيئًا لو حاولنا علاجه..

وهُنا خرج طائر العنقاء عن صمته وعلّق: بل سنخسر

التفتوا جميعًا نحوه فأكمل قائلًا: لو مات الشيذمان أثناء العلاج فإن أفراد القبيلة سيعتبرون الحكيم هو المسؤول الأول عن موته، وحينها لن يكتفوا بقتله بل سيقتلوننا جميعًا بمن فينا عاصف..

لقد كان ذلك الكلام الذي نطق به للتو إكليل هو الشيء الذي يخافه الحكيم ويخشاه؛ إنه مستعد لمحاولة علاج الشيذمان ولكن بشرط ألّا يطاله هو وأصدقاءه أي مكروه في حالة الفشل..

قال الحكيم وهو ينظر نحو أَوس:

- أتضمن لنا خروجًا آمنًا من القرية في حال لم أتمكن من علاج والدك؛ لأنك لو تضمن لنا هذا الأمر فسأكون مستعدًّا للمحاولة..

أجاب أَوس بعد لحظات من الصمت:

- لن أكذب عليك أيها الحكيم.. لو نجحت في علاجه فإننا سنحميكم بأرواحنا، ونكون حلفاء لكم في حربكم القادمة حتى آخر مقاتل في قبيلتنا..

ثم أكمل بنبرة صادقة:

- ولكن لو مات أثناء علاجك له، فإن أفراد القبيلة لن يسمحوا لك ولا لأصدقائك بالمغادرة، وأنا لن أستطيع منعهم..

ومد أَوس يده في الهواء وقال:

- هذه يدي ممدودة لكم.. ولكم الخيار إما أن تبدأوا في محاولة علاجه أو أن تهربوا الآن دون أن ينتبه عليكم أحد..

كان الحكيم واضحًا منذ البداية: إنه لا يستطيع أن يُقامر بحياته وحياة أصدقائه في جولة شبه خاسرة؛ لذلك اختار الهرب وعدم المحاولة فاتجه نحو عاصف ليحمله بمعية الشمالي ويتسللوا به مبتعدين من هُناك إلا أنه حين التفت للوراء وجد الشمالي يُصافح يد أَوس ويقول له:

- اتفقنا، سوف نُعالج والدك مقابل أن تكونوا حلفاءنا في حربنا القادمة..

لم يتمالك الحكيم وقتها نفسه لفرط الغضب فركض نحوه ودفعه بقوة للخلف وهو يصرخ بوجهه:

- أنت لا يحق لك أن تتخذ القرارات وحدك!!

تساءل الشمالي مُتهكمًا وقد سقط أرضًا من قوة الدفعة:

- لكنك اتخذت قرار الانسحاب وحدك؟!

- ننسحب كي ننقذ حياتنا من الموت أيها الأبله!!

- لا أحد يستطيع أن يُنقذ حياته من الموت، كُل ما يُمكننا فعله فقط هو تأجيل الموت لوقت آخر..

ورغم أن الحكيم هو نفسه من قال لعاصف ذات مرة:

"إننا لا نخاف الرحيل عن هذه الحياة؛ فكلنا راحلون في نهاية المطاف ولكن كُل ما نسعى إليه حين يأتي موعدنا.. هو أن نرحل عنها بشرف"..

إلا أنه للتو انتبه لحقيقة مُهمة جدًّا كان غافلًا عنها لزمن طويل، وقال في نفسه: **جميعنا محبوسون فوق هذه الأرض وقد حكمت علينا السماء مسبقًا بالموت، وأقصى ما يستطيع فعله المرء منَّا في هذه الزنزانة الكبيرة هو تأجيل تنفيذ حكم اعدامه ليوم آخر..**

نهض الشمالي من فوق الأرض.. نفض الغبار عن لباسه الأسود ثم اقترب من الحكيم وقال له:

- عندما تحاصرك العاصفة وأنت على حافة الهاوية إياك أن تخاف أو تحني لها رأسك.. بل يجب عليك أن تقفز للهاوية وتصنع طريقة نجاتك أثناء سقوطك للأسفل..

- وماذا لو لم يسعفنا الوقت وارتطمنا في قعر الهاوية؟!!

أجاب طائر العنقاء بالنيابة عن الشمالي:

- نكون حينها قد رحلنا بشرف..

**

بدأ الحكيم يُفكر جادًّا بطريقة يحاول فيها علاج الشيذمان وطال صمته دون أن يُقاطعه أحد؛ خوفًا من أن يُشتتوه أو يُزعجوا تفكيره..

قال أخيرًا:

- هناك طريقة واحدة، ولكنها خطيرة وغير مضمونة..

تعلّقت أبصارهم بوجهه فأكمل قائلًا وهو ينظر نحو أَوس:

- سوف نصنع مضادًّا لوالدك، ولكننا أولًا بحاجة للسُّم..

- ماذا تقصد أننا بحاجة للسُّم؟!

- ألم تقل إن عشائر الدم أصابوا والدك بزُعافهم؟!

هز أَوس رأسه بحذر وكأنه غريزيًّا خاف من الجملة القادمة..

أكمل الحكيم:

- سنذهب إليهم ونطلب منهم أن يعطونا بعضَ زُعافهم، وحين يُصبح الزُّعاف في حوزتنا سنحاول أن نصنع منه دواء نعالج به والدك..

- وما الذي سيدفع عشائر الدم للتعاون معنا؟!.. إننا أعداؤهم ومن مصلحتهم أن يموت زعيم قبيلتنا كي نضعف ونتفرق..

تدخل إكليل:

- نخطف أحدهم إن تطلب الأمر..

رد أَوس الذي كان يعرف استحالة تحقيق ذلك الأمر في الوقت الراهن:

- إننا في حالة حرب معهم أيها الطائر وهُم مُحصنون جيدًا، لن نستطيع دخول أراضيهم وسرقة أحد أفرادهم بسهولة..

قال الشمالي:

- نضع خطة ونلتزم بها..

رد الحكيم عليه:

- إننا لا نملك الوقت لوضع خطة ربما تنجح أو تفشل.. تذكر أنه ليس لدينا إلا يوميّن قبل أن يصل السم لقلب الشيذمان ويقضي عليه.. نريد حلًّا أكيدًا!!

كادوا يفقدون الأمل لولا أن قال أَوس في اللحظة الأخيرة:

- بَرقاء قد تكون وسيلتنا الوحيدة..

تساءل الشمالي: من برقاء هذه؟!

أنصت الجميع لأَوس وهو يقول:

- إنها فتاة من عشائر الدم..

- وما علاقتك بها؟!.. وكيف ستساعدنا؟!

قال معترفًا:

- كنتُ أُحبها، ولكننا افترقنا..

- ولماذا أنت واثق لهذا الحد من أنها ستساعدنا؟!

تدخل الحكيم يُجيب بالنيابة عن أَوس:

- لأن الرب حين خلق القلب قال له لا تتخلى عن قلب أحببته يومًا.

وأضاف بتأثر:

- الفراق لا يعني أن نكف عن حُب الآخرين ولكنه أحيانًا يعني أن مساراتنا باتت مختلفة..

قال الشمالي موجهًا خطابه لأَوس: وكيف سنجد بَرقاء؟!

قال أَوس:

- إنها ابنة الأمير تليد وقد..

- ابنة الأمير الذي أصاب والدك بزُعافه؟!!

هز أَوس رأسه في إشارة نعم، وأكمل كلامه:

- لقد حبسها والدها في أحد أبراج قلعته بعد أن اكتشف أنها واقعة في غرام أحد ابناء العدو.. إن كُل ما نحتاج إليه للوصول إليها هو أن نجد من يتسلل لحذود عشائر الدم ويفتش عنها في أحد أبراج قلعه والدها وحين يلقاها يطلب منها بعضَ زُعافها..

قال إكليل وهو يتهيأ للطيران:

- أنا سأذهب..

- لا - قال أَوس - فحجمك كبير وسيكون من الصعب عليك الدخول لمناطقهم من غير أن يُلاحظك أحد إننا بحاجة لشيء صغير يتسلل إلى هناك دون أن يلفت أنظار أحد إليه..

وما أن انتهى أَوس من قوله ذلك حتى التفت كُل من الشمالي وإكليل تلقائيًا نحو الحكيم بنظرات ذات مغزى.. وكأنهما بنظراتهما تلك يقولان له: "أنت ملاذنا الأخير"..

في البداية لم يفهم الحكيم السر خلف تلك النظرة، وسألهما هازئًا:

- هل أبدو لكما كشيء صغير يستطيع التسلل إلى هُناك دون أن يلفت الأنظار إليه؟!

الشمالي وهو يرفع كتفيه:

- ربما.. لو أنك تتحول لفأر

- فأر يدخل في منخار أنفك، أنا لستُ موافقًا بالطبع!!

- أنت أملنا الوحيد في الوصول إليها..

- لا لا، سنفكر بخطة أخرى..

- ولكن ألم تقل أننا لا نملك الوقت لوضع الخطط؟!

حشره في زاوية ضيقة ولكن الحكيم أصر على رفضه:

- لماذا لا تتحول أنت لفأر، لماذا أُكلف أنا بهذه المهمة الصعبة؟!

- ولكنني حينها سأحتاج لوقت طويل حتى أتعود على كوني فأر قبل أن أذهب لعشائر الدم، بينما أنت فإنك لن تواجه أي مشكلة في ذلك..

كان الحكيم يعرف أن الشمالي مُحق في كلامه فبعد أن سخطته الجنية تاج فيما مضى لفأر يذكر أنه احتاج لأسابيع طويلة حتى استطاع التأقلم على جسده الجديد..

حاول الشمالي إقناعه أكثر:

- إننا بحاجة لتكوين تحالفات كثيرة من أجل استرداد العرش والانتقام لأصدقائنا الذين قُتلوا.. وستكون قبيلة المُستذّئِبين حليفًا قويًّا ومهمًّا في حربنا القادمة كونهم من أكثر القبائل التي تستطيع مُحاربة الجن والتغلب عليهم..

- ولكن.. آآ

- لا تقل شيئًا أرجوك.. إنه أمر مؤقت وما أن تنتهي من مهمتك حتى تعود لهيئتك البشرية مُجددًا..

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال على مضض:

- ما يُعزيني في الأمر هو أنني عندما سأتحول لفأر سيكون بإمكاني التسلل لمخادع الفتيات والتلصص عليهن دون أن ينتبهن لوجودي..

قال أَوس الذي لم يفهم شيئًا:

- كيف ستتحول لفأر، أأنت من نسل السلالات المتحولة؟!

أجاب الشمالي:

- سنخبرك بالقصة في الطريق، ولكننا سنحتاج أولًا لكوخ نضع فيه عاصف لنعالجه..

**

حملوا عاصف لأحد أكواخ القرية وهناك مددوه فوق فراش قديم مُحاك من صوف الأغنام..

استطاع الحكيم مستعينًا ببعض الأعشاب أن يعالج جروح ساقه من التسمم والقيح والصديد.. ثم خاط الجرح ولف حوله ضمادة قماشية نظيفة؛ كي يمنع عنه التلوث..

قال وهو ينهض ويغسل يديه بالماء:

- لقد حدث له هذا من قبل..

سأله الشمالي:

- ماذا حدث معه؟!

- عندما فقد عاصف والدته وهو صغير لم يستطع أن يتحمل الحزن وانفصلت روحه عن جسده وغادرت لعالم آخر..

وأضاف وهو يُجفف يديه:

- حينها ظننا أننا سنفقده للأبد لكن روحه عادت إليه..

- أليس من الممكن أن ينجو مما هو فيه، مثل ما نجى سابقًا؟!

قال الحكيم بنبرة واقعية:

- لقد كان عاصف صغيرًا حين حارب من أجل البقاء على قيد الحياة، ولكنه الآن أصبح كبيرًا بما يكفي ليعرف حقيقتها..

وأضاف بتأثر:

- البارحة كان ملكًا عظيمًا يحكم بلادًا واسعة تسكنها الكثير من الأُمم، أما اليوم فهو مشرد ومُطارد ويدعو منظره للشفقة والرثاء، الحقيقة هي أن هذه الحياة يا أصدقاء لا تستحق أن يحارب المرء لأجلها..

ثم أردف قائلًا وهو يضع يده تمامًا فوق موضع قلب عاصف:

- لقد انتقلت روحه الآن لعالم آخر وإني أكاد أشعر بها بائسة ووحيدة ولا تملك الشغف للعودة وأخشى ما أخشاه أن تقرر البقاء عالقة هُناك للأبد..

سأل إكليل بحزن:

- أثمّة ما نستطيع أن نفعله لنساعده؟!

- ليس أمامنا إلا أن نُصلي للسماء من أجله..

علّق أَوس بعد لحظات:

- يا للعجب.. إنكم مستعدون للتضحية بحياتكم من أجل مساعدة شخص لستم متأكدين مما إذا كان سيفيق من نومه أم أنه سيبقى نائمًا للأبد..

أجاب الشمالي:

- هذا ما يعنيه أن يكوك لديك أصدقاء..

**

بعد ذلك ذهب الثلاثة - الحكيم والشمالي وأَوس - لساحر القرية الجد قسورة ليطلبوا منه إلقاء تعويذة سحرية ساخطة على الحكيم فيتحول بمعيتها لفأر..

بينما بقِيَ طائر العنقاء إكليل بجوار سيده في الكوخ يُصلي للسماء طالبًا إياها أن تساعده على الشفاء..

٥

الجد قسورة

وصلوا لكوخ في أقصى القرية صغير لا أكواخ أُخرى بجانبه، طرق أَوس بابه فخرج إليهم رجل طاعن في السن يملك ظهرًا مُنحنٍ للأمام وشعر طويل مشعّث بدا لفرط اتساخه أن ثمَّة عناكبَ وحشرات تُعشش بداخله..

تكلم أَوس باحترام وتبجيل:

- أيها الجد قسورة جئناك نُريدك أن تحول هذا الرجل لفأر..

رغم القصص الغريبة التي كان الجد قسورة قد سمع عنها إلا أنه لم يسبق أن سمع من قبل أن أحدًا قد قصد ساحرًا ليطلب منه شيئًا غريبًا كهذا..

قال الجد قسورة ناصحًا وهو يتأمل وجه الحكيم:

- ربما يبدو وجهك قبيحًا بعض الشيء ولكن لا يهم فالجمال يَنبع من الداخل - وأضاف الجد: أتمنى أن تصرف النظر عن هذه الفكرة أيها الرجل الطيب وتتعايش مع قُبح وجهك..

رد عليه الحكيم:

- ربما أبدو لك أيضًا هزيلًا بعض الشيء ولكن أقسم لك لو أني لكمتك بهذه اليد فإن تعاويذ الدنيا كُلها لن تُصلح لك وجهك..

حك الجد قسورة رأسه فطارت منه عنكبوتة صغيرة سقطت للأرض، وقال بعد لحظات من الصمت والتفكير:

- إذا كانت هذه رغبتك فلا بأس..

- إنها مجرد أيام قليلة وأعود إليك طالبًا منك أن تُعيد إليَّ هيئتي البشرية..

وهنا تغيرت ملامح الجد قسورة وهو يقول:

- ولكني لا أستطيع إعادتك لهيئتك البشرية..

دُهش الجميع لسماعهم ذلك الخبر:

- لماذا لا تستطيع إعادتي لهيئتي البشرية؟!

شمشم الجد قسورة أولًا جسد الحكيم كما ليتأكد مما يفكر به ثم أجاب قائلًا بعد أن تأكد من الأمر أكثر:

- لأنك قد أُصبت سابقًا بتعويذة سحرية ساخطة، وفي كُل مرة يُصاب فيها المرء بتعويذة ساخطة يُصبح فيها جسده أكثر حصانة فلا تؤثر فيه التعاويذ من هذا النوع..

ثم أضاف:

- قد أستطيع تحويلك لفأر، ولكن لا أضمن لك أن أحدًا يستطيع إعادتك لهيئتك البشرية مجددًا إلا ساحر سُفلي..

عندما عرف الأصدقاء أن هناك حلًّا لإعادة الحكيم لهيئته البشرية فإن مسحة من الأمل قد ظهرت على وجوههم..

فسألوه عن الساحر السُّفلي وأجابهم قائلًا:

- هو الذي يتلقى تعليمه على يد أحد السحرة في الأرض السُّفلية، وعندما يُتقن كُل تعاليمه يُصبح ساحرًا لديه تعاويذ نادرة وخاصة لا يملكها أي ساحر آخر..

سأل الحكيم:

- وكيف نستطيع إيجاد أحدهم؟!

أومأ الجد بإشارة من يده وكأنه يقول لهم بها أنسوا الأمر:

- إنهم نادرون جدًّا في هذا العالم وفرصة اللقاء بأحدهم تكاد تكون مستحيلة..

وأضاف ينصح الحكيم:

- فكر بالأمر جيدًا قبل أن تتخذ قرارك؛ فربما كلفك هذا أن تعيش حياتك القادمة كُلها وأنت بهيئة فأر..

وأردف قبل أن يعود لكوخه ويُغلق الباب خلفه:

- ومتى ما قررت سأكون مستعدًّا لتنفيذ قرارك..

أطبق عليهم صمت شديد وعاد اليأس يسكن وجوههم؛ لقد بات من الصعب عليهم إقناع الحكيم بالمضي قدمًا في الأمر بعد أن عرفوا أن عودته لهيئته البشرية لن تكون مضمونة..

التفت الشمالي نحو أَوس خجلًا لأنه سيضطر لإلغاء الصفقة التي تعهد له بها:

- نحن في غاية الأسف يا أَوس، ولكننا مضطرون للانسحاب..

قال أَوس متفهمًا: لقد حاولتم مساعدتي وهذا يكفي..

التفت الشمالي نحو الحكيم ليومئ له بالانسحاب، غير أن الحكيم لم يكن في المكان الذي كان يقف فيه قبل قليل، فتساءل الشمالي عن المكان الذي قد يكون ذهب إليه..

وبقِيَ لبعض الوقت حائرًا لا يعرف أين أختفى لتصله بعد قليل الإجابة التي لم يكن يتوقعها:

فقد تناهت له أصوات خشخشة صادرة من أسفل باب كوخ الجد قسورة وحين نظر إلى هُناك وجد فأرًا له لحية طويلة نسبيًا تُشبه لحية عنز فحل يخرج من أسفل الباب..

بدت عليه أمائر الدهشة وهتف قائلًا:

- أيها المجنون ماذا ستفعل لو أننا لاحقًا لم نجد الساحر السُفلي الذي يردك لهيئتك البشرية؟!!

وقف الحكيم على قائمتيه الخلفيتيّن وقال:

- حينها سأبحث عن فأرة جميلة لديها كُل الاستعداد لتتحمل ثقالة دمي ولساني الطويل القذر، فأتزوجها وأكوّن معها عائلة عريقة من الفئران..

ابتسم الشمالي حين سمع تلك الإجابة، وقال مُعاتبًا:

- ألم تستمع للجد قسورة وهو يقول بأنك ربما أمضيت حياتك كُلها وأنت بهذه الهيئة؟!

- هل ستتركني حينها أيها الشمالي؟!.. أعني إذا بقيت طوال عمري بهذه الهيئة فهل ستتخلى أنت أو عاصف أو إكليل عني؟!!

- لا لن يحدث هذا أبدًا..

- لا تهمني الأشياء الباقية إذًا؛ فأنتم عائلتي في هذه الدنيا..

دمعت عين الشمالي وقال:

- لماذا بحق الرب فعلت هذا بنفسك؟!..

أرسل الحكيم له نظرة مُشاغبة لكنها تُخفي حُبًّا صادقًا واحترامًا عظيمًا، قال وهو يضم يديه الصغيرتين إلى جسده ويُحرك ذيله الطويل كأنما ليداري بذلك توترًا أو خجلًا:

- لقد قال لي صديق رائع ذات مرة إنه عندما تُحاصرنا العاصفة ونحن على حافة الهاوية يجب ألّا نخاف وألّا نحني لها رأسنا بل نقفز للهاوية ونصنع طريقة نجاتنا أثناء سقوطنا للأسفل..

**

كانت الرابطة التي تجمع الثلاثة: "الحكيم والشمالي وإكليل" وإخلاصهم الشديد لصديقهم عاصف تُثير نوعًا من الإعجاب والتقدير داخل نفس المُستذِئب أَوس والذي لم يكن قبل ذلك الوقت يعتقد أن هُناك وجودًا لعلاقة قوية مُقدّسة قد تربط الفرد بالفرد غير رابطة القبيلة والدم..

**

جلبوا للحكيم قارورة زُجاجية صغيرة بحجم عُقلة الإصبع؛ ليضع بداخلها بعضَ قطرات زُعاف بَرقاء حين يصل إليها..

ثم ولكي يثبتوها عليه فلا تسقط أثناء التنقل والحركة، فإن أَوس قص خُصلة من شعره وربطها حول القارورة وثبتها على ظهر الحكيم..

**

"امتطى الحكيم ظهر طائر العنقاء إكليل والذي سيطير به شمالًا ويوصله لنقطة قريبة من حدود عشائر الدم ثم سيتركه هناك ليُكمل المهمة وحده، ويبقى في انتظاره حتى يُنهي مهمته ويأخذه ويعود"..

كانت هذه الخطة التي وضعها الأصدقاء لجلب الزُعاف الذي سيساعدون به الشيذمان على الشفاء.. إلا أن الأقدار كانت لديها خطة أخرى..

الباب الخامس

١

طاغين

كان جزء كبير من القصر قد تدمر بسبب الخراب والحريق، وأغلب الذين كانوا مُحصنين بداخله إما ماتوا تحت أنقاض السقوف المتساقطة أو حرقًا بالنار أو اختناقًا بدخان اللهيب..

اقترب هآمان من سيده طاغين وقال:

- سيدي لقد تدمر أغلب القصر ومات كُل من كان يتحصن بداخله وأردف قائلًا: ومقاتلينا يتلهفون لدخوله..

- مُرهم بالدخول من بوابات متفرقة، ودع الكتائب الأقوى تسير خلفي.. سوف نذهب لاستلام العرش..

**

فُتحت البوابات ليدخل منها طاغين وآلاف من المقاتلين الذين لم يتخيلوا أبدًا حتى في أكثر أحلامهم تفاؤلًا أنه قد يأتي عليهم يوم وتطأ أقدامهم بلاط قصر أبابيل..

تقدم طاغين من خلال ردهات القصر الواسعة متجهًا نحو قاعة المُلك، وأثناء تقدمه للأمام كانت ذاكرته تعود به للوراء للزمن الذي كان فيه طفلًا يعيش وسط عائلة سعيدة من الجن مكونة من أربعة أفراد: "هو ووالدته ووالده وأخته التي تكبره بعام"..

إنه ورغم السنين الطويلة التي تفصله عن تلك الأيام إلا أن هُناك ذكرى وحيدة كان لا يزال بوسعه تذكرها بشكل دقيق إنها صوت طرقات الباب تلك التي اختلف بعدها كُل شيء:

ففي أحد الأيام وبينما كانت العائلة السعيدة في البيت إذ تناهى إليهم صوت طرقات على الباب فنهض الطفل طاغين من مكانه ونهضت معه أخته الطفلة "**تاج**" وكل واحد منهما يُغالب ضحكاته يُريد أن يفتح الباب أولًا..

ولكن قبل أن يتخطيا عتبة باب الغرفة جاء صوت والدهما "**مِعراج**" آمرًا:

- طاغين، تاج لا تفعلا!!

ارتمى الصغيران لا شعوريًّا في أحضان والدتهما "**عاصية**" والتفتا ببراءة الأطفال نحو والدهما في تعجب وغرابة وهما لا يعلمان أي ذنب اقترفاه كي يستحقا منه تلك الصرخة الغاضبة:

- ابقيا مكانكما - قال وهو ينهض - أنا سأرى من الطارق..

- لم يستطع طاغين الذي لم يتجاوز وقتها الثامنة من عمره أن يمنع نفسه من اختلاس النظر وترقب ما الذي سيحدث عند باب البيت..

استفهم مِعراج قبل أن يفتح:

- من الطارق؟!

جاءه الصوت الخشن من خلف الباب:

- أنا "**ثائر**" قائد جُند الملك، افتح ولا تحاول الهرب فمنزلك محاصر..

لقد خفق حينها قلبه بشدة وخاف؛ لأنه عرف لماذا جاء الجُند إليه: ففي تلك الأيام البعيدة اضطر مِعراج –كي يُطعم طفليه– أن يؤسس عُصبة من اللصوص كانت مهمتها تقتصر على تنفيذ بعض العمليات البسيطة كسرقة التجّار والاحتيال عليهم..

وحين طفح كيل التجار والأغنياء فإنهم ذهبوا للملك يشكون إليه الحال، فأمر جبّار حينها العرّافة سِربيل أن تستعين بعفاريتها وشياطينها لجلب أسماء عُصبة اللصوص تلك..

غابت العرّافة سِربيل زُهاء الأسبوع وحين عادت كانت تحمل إليه رقعة جلدية تحوي أسماء أفراد تلك المنظمة ومعلومات تكفي للقبض على كُل واحد منهم..

فاستدعى جبّار حينها أحد قادة جيشه الأكفاء "ثائر".. وسلمه رقعة الجلد تلك وطلب منه الآتي:

- اقبض عليهم فردًا فردًا، واجلب لي قائدهم مِعراج حيًّا..

**

كرر الصوت الخشن أمره من خلف الباب:

- افتح الباب يا مِعراج ولا تحاول الهرب، فمنزلك مُحاصر..

فكر حينها مِعراج بالهرب لكنه سرعان ما تراجع عن الفكرة؛ فقد كان منزله مُحاصرًا بالجنود والسحرة وقرر أن يُسلم نفسه.. لكنه حين نظر إلى حيث تجلس عائلته وجدهم ينظرون إليه بعيون خائفة؛ فعزّت عليه نفسه أن يتم القبض عليه أمامهم..

اقترب من الباب وهمس راجيًا:

- سأفتح، ولكن أرجوك لا تعتقلني أمام عائلتي..

جاءه الصوت الخشن:

- افتح الباب قبل أن أُحطمه على رأسك، ورؤوس أفراد عائلتك!!

ما أن فتح مِعراج الباب حتى انقض الجُند عليه وقاموا بتصفيد يديه مُستخدمين في ذلك أصفادًا مسحورة ما أن تلتف حول معصم أي مخلوق ذي طبيعة خارقة حتى تُفقده قوته..

تأثر طاغين وقتها كثيرًا حين شاهد والده يُهان أمامه بتلك الطريقة واعترته فورة الحمية والغضب فاندفع من أحضان أمه نحوهم بقوة مثل شبل لمح قطيعًا من الضباع يهاجمون والده الأسد، ولكن مِعراج صرخ عليه خوفًا من أن يتسببَ له أحد الجُند بالأذى:

- طاغين لا!!

توقف طاغين مكانه متجمدًا ليس لأنه خاف من صرخة والده بل لأنها كانت المرة الأولى التي يرصد في نبرة صوته أثر الخوف..

قال مِعراج:

- لا تقلق سأكون بخير، اهتم أنت بأمك وأختك..

كمم القائد ثائر فمه وأخذه للملك..

**

كان الملك جبّار حينها يجلس متكئًا فوق عرشه وحوله حاشيته من كُبراء الأباطرة والوزراء، عندما دخل القائد ثائر يُمسك بيده مِعراج ويُلقي به أرضًا..

جبّار وهو يُرسل لِمعراج نظرة شرسة:

- أأنت من أسس عُصبة اللصوص تلك؟!

كانت الأصفاد المسحورة التي قُيد بها مِعراج تستنزف كُل قوته، إلا أنه بذل جهدًا مضاعفًا حتى نهض واقفًا على قدميه احترامًا للملك وقال وهو ينظر إليه بتقدير وإجلال:

- قد أكون لصًّا لكني لستُ جبانًا، نعم جلالتك أنا من أسسها.

كان جبّار بطبعه يحترم كُل شخص يتسم بالشجاعة والصدق لهذا فإنه سرعان ما بادل مِعراج الاحترام ونهض واقفًا من فوق عرشه وراح يقترب منه حتى وقف أمامه:

- ولماذا مددت يدك لمال غيرك؟!

- كي أُطعم طفليّ..

- تُطعمهم مالًا مسروقًا؟!

أجاب مِعراج وهو يحاول تهذيب كلامه قدر المستطاع:

- عندما يَلدغ الجوع أحد أبنائك يا جلالة الملك فإن كُل ما ستفعله حينها هو أن تضع في بطنه الطعام دون أن تكترث لما إذا كان ذلك الطعام مسروقًا أو ملعون..

كانت إجابته تلك كفيلة بأن تهز قلب جبّار الذي تأثر بسببها وأضمر في قلبه أن يعفو عنه إلا أن أحد الوزراء اقترب منه وهمس له ناصحًا:

"إن عفوت عنه يا مولاي فإنك تسمح لغيره أن يصنع مثله"

لقد اقتنع بنصيحة الوزير؛ أنه لكي يحافظ على الأمان مستتبًا داخل مملكته عليه أن لا يتساهل أبدًا وأن يضرب بيد من حديد على كُل من تسوّل له نفسه مخالفة القانون..

عاد للجلوس فوق عرشه ثم أصدر حُكمه النهائي:

– أما أفراد العُصبة فنحكم عليهم بالسجن مدى الحياة، وأما أنت فنحكم بقطع رأسك أمام العامة لتكون عبرة لكل من تسوّل له نفسه سرقة الآخرين والاحتيال عليهم..

تكدر قلب مِعراج عندما سمع حكم الإعدام؛ ليس لتعلّقه بالحياة ولكن لإشفاقه على عائلته الذين سوف يُصيبهم الذعر والكدر بعد أن تصل إليهم الأخبار بعد أيام..

٢

الإعدام

بين رُدهات القصر الواسعة كان طاغين يتجه نحو قاعة المُلك شاقًّا طريقه وسط الدخان الذي كان لا يزال منتشرًا في الجو رغم انطفاء الحريق..

كان المقاتلين خلفه يُغنون ويتراقصون احتفالًا بالنصر بينما هو يسير أمامهم موغلًا في صمته غارقًا في ذكرياته القديمة: إنه يتذكر الآن ذلك اليوم البعيد الذي كان فيه مع أمه وأخته في المنزل عندما وصلتهم أخبار الإعدام..

**

عندما وصل خبر إعدام مِعراج انكسر قلب الزوجة عاصية فضمت إليها طفليها بقوة كما لو أنها بتلك الطريقة كانت تلف جبيرة حول غُصن قلبها المكسور، سألها طاغين:

- أندعهم يقطعون رأسه دون أن نتدخل؟!

- معه حق - قالت تاج - يجب أن نفعل شيئًا..

- لا تقولا هذا الكلام - قالت الأم - إنه حُكم الملك..

نطق الابن ذو الثمانية أعوام:

- عندما يتعلّق الأمر بسلامة العائلة، لا سُلطة لأحد علينا..

دُهشت الأم عندما سمعت تلك الكلمات تخرج من فم ابنها الصغير، وأدركت وقتها أن المصائب تجعل الأطفال يُصبحون كبارًا فجأة..

وأكمل قائلًا:

- لن أقف مكتوف الأيدي بينما أرى والدي يُساق لحتفه، وأنتِ غارقة بدموعك هكذا..

صفعته والدته على خده - تلك الصفعة التي ما زال يشعر بأثرها حتى هذه اللحظة وهو يسير في الرُّدهات الواسعة للقصر متجهًا نحو قاعة المُلك - ثم قالت له حينها بنبرة حنونة معاتبة:

- لا أريد أن أسمع منك شيئًا مماثلًا وإلا غضبتُ عليك أتفهم؟!

وأضافت وهي تنظر لابنتها:

- وهذا الكلام موجه لكِ أنتِ أيضًا.. والدكما مُذنب وقد حُكم عليه وانتهى الأمر..

لم يكن طاغين يُحب أن ينظر إليه أحد - بمن فيهم أمه - وهو منكسر؛ لذلك فإنه دفن وجهه بثيابها وقال بصوت مكتوم:

- نريد أن نذهب لساحة الإعدام يا أمي؛ فأبي يستحق منا أن نكون معه في لحظاته الأخيرة أرجوكِ وافقي.. أرجوكِ..

قالت تاج مؤيدة:

- نريد أن نراه للمرة الأخيرة، أرجوكِ وافقي!!

رُغم تظاهرها بالتسليم للحكم الصادر بحق زوجها إلا أن الدافع الحقيقي وراء ترددها في الذهاب لحضور الإعدام هو أنها لا تضمن بقاءها على الحياد بعد أن ترى الجُند وقد أعدموا زوجها..

ولكنها في الوقت ذاته تعلم أن الحق مع طفليّها؛ فزوجها يستحق منها بعد سِنِين الحُب الطويلة أن تكون معه في لحظات حياته الأخيرة قالت كما لتورط نفسها بعهد غليظ لا فكاك منه:

- نذهب ولكن بشرط أن نتعهد بعدم التسبب بالمتاعب هُناك..

ردد الطفلان، ورددت الأم معهما همسًا:

- نتعهد بذلك.

**

في اليوم الموعود: كان عدد غفير من سكان أبابيل -جنًّا وإنسًا- قد اجتمعوا في الساحة العامة ليشهدوا الإعدام.. كانت عاصية تقف بين الحشود مع طفليها وبداخلها أُمنية واحدة: أن تفتح عينيها بعد قليل لتكتشف أن كُل ما حدث ويحدث لا يعدو كونه أكثر من مجرد حُلم سخيف..

لم يمضِ وقت طويل حتى جاء الجُند أخيرًا بـ مِعراج، صعدوا به منصة الإعدام ومدوا عُنقه على خشبة المقصلة.. ثم أمسك الجلاد الحبل الذي يُثبت الشفرة الحديدية القاطعة وانتظر أمر القائد ثائر..

كان العامة من الشعب يهتفون بصوت واحد جهير: "أعدموا المُجرم" وكان مِعراج حينها جاثيًا على ركبتيه ويداه مُثبتتان بالأصفاد خلف ظهره، لم يكن خائفًا لكنه حزين لأنه ما استطاع أن يُلقي على عائلته نظرة الوداع الأخيرة قبل الرحيل..

وهُنا همست زوجته عاصية بصوت مُنخفض يُشبه حفيف اصطكاك نسيم الهواء بسعوف النخيل: "**نحن هُنا معك**" ورغم هُتافات العامة الغاضبة والتوتر والضجيج إلا أن تلك الكلمات الثلاث استقرّت في القلب المُنقبض الحزين فرفع مِعراج رأسه وقد ابتهجت أسارير وجهه وأخذ يبحث في وجوه الجماهير عن مصدر الصوت اللطيف وحين رآها ابتسم وقال لها بعينيه:

"**كنت واثقًا أنكِ ستأتين**"

كانت زوجته عاصية حينها تحمل ابنتها تاج ذات التسعة أعوام بين ذراعيها بينما طاغين يقف على قدميه ينظر نحو الجُند بنظرات قاسية تشي بمدى عدم رضاه عما يحصل..

وكخطوة أخيرة قبل الإعدام اقترب القائد ثائر منه وسأله:

- أثمّة كلمة أخيرة تود قولها؟!

لم يكن مِعراج قبل لحظات قد خطط ليقول شيئًا ولكن قلبه الآن بات ممتلئًا بالكلمات والاعتذارات التي يود قولها لعائلته.. ولكن لأنه لم يكن يملك وقتًا كافيًا ليقول كُل ما لديه فإنه اكتفى بأن ابتسم لهم ثم صرخ قائلًا:

- وداعًا حتى نلتقي مرة أخرى!!

ما أن انتهى من قول ذلك حتى أعطى القائد ثائر أمرًا للجلاد بالتنفيذ، فأفلت الجلاد حبل المقصلة لتهوي الشفرة الحادة على رقبة مِعراج المشدودة وتفصلها عن جسده..

عندما رأت عاصية رأس زوجها يتدحرج أمامها لم تستطع أن تلتزم بالعهد الغليظ الذي قطعته مع طفليها واستيقظ الغضب في أعماقها، فأنزلت ابنتها من بين يديها وأمرتها بهمس يشي بسوء نية:

"أمسكي يد أخاكِ وابقَي معه"

وما كادت عاصية أن تُنهي جملتها تلك حتى اختفت من مكانها ولم تظهر إلا وكان رأس القائد ثائر قد انفصل عن جسده وراح يتدحرج أرضًا حتى استقر بالقرب من رأس زوجها المفصول..

ودارت معركة طاحنة بين بقية الجُند وعاصية ورغم أنهم كانوا يفوقونها عددًا إلا أن غضبها كان يمدها بطاقة لا نهائية ضمنت لها القضاء على الكثير منهم والبقاء صامدة طوال المعركة..

كان الشعب الغاضب يهتف للجُند مطالبًا إياهم بقتل تلك الجنية فبذل الجُند كُل ما يستطيعونه للقضاء عليها ولكن بدون فائدة فقد كانت تقاتل انتقامًا للحُب، ومن يقاتل تحت راية الحُب لا يُهزم..

ولم تنتهِ المعركة إلا عندما قرر طاغين أن يساعد أمه في معركتها فأفلت يد أخته وهو يقول لها: **"ابقَي مكانكِ ولا تتحركي"** ..

ثم هبط لساحة القتال..

لقد كان أصغر وأضعف من أن يُسبب وجوده فارقًا في ميزان المعركة لكنه كان مُزعجًا للجنود؛ السبب الذي دفع أحدهم ليسدد إليه من الخلف ضربة قاتلة..

صرخت أخته تاج التي كانت تراقب المعركة من الخارج:

- طاغين انتبه خلفك!!!

التفت طاغين للخلف وشاهد الضربة القادمة نحوه غير أن الأوان كان قد فاته لتفاديها، فأغمض عينيه خوفًا وصنع بيديه الهزيلتيّن درعًا يحمي بها وجهه..

ولكن تلك الضربة أخذت وقتًا أطول مما كان ينبغي لتصل إليه وحين فتح عينيه بحذر بعد لحظات ليرى ما الذي أخر وصول الضربة.. شاهد والدته أمامه تقف وقد شكلت بجسدها درعًا لتحميه..

رفع رأسه ونظر لوجهها الباهت وسألها بلهفة وخوف:

- أأ.. أنتِ بخير يا أمي؟!

حاولت أن تبدو أمامه بخير كي لا تُخيفه أو تشعره بتأنيب الضمير لكن الضربة كانت قد اخترقت جدار ظهرها وغاصت عميقًا في جسدها مما جعل وقوفها لمدة أطول يكاد يكون مستحيلًا، فسقطت على ركبتيها وباتت تقف بمستوى يساوي طوله..

قال بعد أن أدرك أنه السبب في هزيمتها:

- أنا آسف يا أمي، كنت أريد أن..

- سس.. لا تقل شيئًا.. إنا فخورة بك

وعرف الجُند أنهم قضوا عليها أخيراً؛ لذلك أخذوا معهم جُثة القائد ثائر ورأسه المفصول عن جسده وحملوا بقية زملائهم المصابين وجُثث الذين لقوا حتفهم في المعركة وتراجعوا بها للقصر..

كانت عاصية لا تزال تقف أمام ابنها تنظر إليه بفخر عندما أحسّت باليد الرقيقة اللطيفة لابنتها تاج وهي تُمسك يدها وتقول لها بنبرة متوسلة باكية:

- دعينا نرجع للمنزل يا أمي..

- هذه الليلة ستخلدين فيها للنوم وحدكِ أيتها الجميلة..

- أرجوكِ تعالي معنا!!

لم يكن هُناك وقت كي تفسر للصغيرة سطوة الموت، لذلك فإنها التفتت نحو ابنها وهمست له توصية قبل أن تسقط مكانها جثة هامدة:

- أنا سأذهب مع أبوك، وأنت اهتم بأختك يا طاغين..

**

مع موت والديّه مات شيء في قلب طاغين لكنه أدرك مبكرًا أنه بات المسؤول عن أخته؛ لهذا لم يبكِ ذلك المساء وهو يدفن بيديه الهزيلتَيّن جثة أمه وأبيه ويهيل التراب فوقهما..

ولم يبكِ أيضًا عندما عاد مع أخته للقرية وشاهد عائلة غريبة يسكنون منزلهم؛ لأن التجّار الذين كان والده يسرق منهم قد قاموا ببيع المنزل كي يستردوا بثمنه بعضَ أموالهم المسروقة..

غادر مع أخته القرية وعاش معها حياة مُذلّة مُهينة ومع توالي الأيام والأسابيع كان الغضب يتغلغل فيه أكثر وأكثر حتى امتلأت روحه شرًّا وحقدًا وكراهية وتكوّنت لديه رغبة في الانتقام من كُل شيء تسبب لعائلته بالأذى؛ ولذلك قرر أن يفعل كُل ما بوسعه كي يصبح ملكًا لأبابيل عندما يكبر ليس حُبًّا في المُلك بل انتقامًا من جبّار الذي أمر بقتل والده، وانتقامًا من الشعب الذي كان يهتف للجُند حاثًّا إياهم على قتل والدته..

**

تقدم هآمان خطوتين للأمام وتنحنح قبل أن يقول:

- سيدي هل ستمكث طويلًا تُحدق في بوابة قاعة المُلك هكذا؟!

أخرجه ذلك السؤال من ذكرياته القديمة وحين التفت للخلف ينظر لوجوه مقاتليه، وجدهم صامتين كالمقابر فعرف أنه استغرق طويلًا في أفكاره دون أن ينتبه لنفسه فقال يأمرهم:

- افتحوا البوابة..

كانت بوابة القاعة قد صُنعت من معدن الذهب الخالص لذلك فإنها لم تتأثر كثيرًا بالحريق الذي أصاب بقية أجزاء القصر، تقدم عشرة من الجن الضخام وأمسكوا مقبضيِ البوابة ودفعوها بكل قوتهم للأمام حتى تزحزحت من مكانها وفُتحت..

دخل طاغين.. وأول ما أراد فعله هو أن يُلقي نظرة نحو العرش الواقع في نهاية القاعة، لكن نظره اصطدم بجسد أسود كبير مُرعب كان يعترض الطريق: إنه جسد كوبرا أفعى الجن تارا..

٣

العرش

رغم أن طاغين في تلك اللحظة كان يملك الكثير من المقاتلين خلفه بينما كوبرا أفعى الجن وحيدة، إلا أنه شعر بالقلق والخوف حين وجد نفسه يقف وجهًا لوجه أمامها..

قالت وهي تركز فيه نظرتها:

- عُد مطرودًا من حيث أتيت، هذا العرش ليس لك..

لم يكن يريد أن يظهر أمام مقاتليه بمظهر المرتبك أو المتردد، لذلك فإنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وقال بثبات:

- **العروش ليست مُلكًا لأحد، إنها تخضع للقوي فقط..**

- لقد انتصرت في هذه الجولة لأن هناك من خان الملك، وسرب خطته إليك ورغم ذلك فإنه لا ينبغي عليك أن تفرح كثيرًا لأن عاصف سوف يستعيد عرش أجداده وأنا أعدك بهذا..

قال لها بتهديد واضح:

- طوال حياتك لم تحنثي بوعد قطعتِه يا تارا، لا يليق بكِ وقد اقترب مماتك أن تقطعي وعدًا لن يتحقق أبدًا - وأضاف هازئًا: لقد قضيت عليه وجردته من جيشه وعائلته وكل قوته..

- لكن أصدقاءه لا يزالون معه وهذا سيكون كافيًا له لينتصر عليك أنصحك أن تترك كُل شيء خلفك وتهرب بعيدًا، فعاصف لن يتركك.. **أنه ابن جومانا.. وابن جومانا لن يقبل فكرة أن يهزمه أحد..**

- أنتِ تهذين يا تارا.. لقد أصبحتُ الملك وسوف أبدأ في تكوين الكثير من التحالفات والجيوش الكبيرة التي لن يستطيع هزيمتها ولو جمع لها كُل مقاتلي الأرض بأسًا وقوة.. هذا العرش لي وحدي أنا ولن أتنازل عنه لأحد..

وعرفت كوبرا أفعى الجن ألّا مجال لإقناعه بالتنازل عن مخططه، فتحولت عيناها للون الأسود الغاضب ثمَ قالت وقد استعدت للدفاع عن العرش:

- إذا كنت مصممًا للوصول إليه، فعليك أولًا أن تعبر من فوق جثتي..

طاغين يتمتع بقوة كبيرة لكنه لا يفضل أن يُهاجم عدوه إلا حين يكون متيقنًا كُل اليقين من الانتصار لذلك فإنه أمر حفنة من مقاتليه الأقوياء بالهجوم عليها؛ إنه يريد أن يُرهقها أولًا وحين يتأكد أنها قد استهلكت كُل قوتها سيتحرك هو للهجوم عليها..

بدأت المعركة بين تارا والمقاتلين ورغم أنهم كانوا يحاوطونها من كُل الاتجاهات إلا أنها كانت سريعة بما يكفي لصد كُل هجماتهم في نفس الوقت وتوجيه الضربات المؤلمة القاتلة لهم..

وكانت تارا كُلما أرسلت فوجًا من المقاتلين للموت، أرسل لها طاغين فوجًا آخر أكثر قوة من الذي قبله؛ الأمر الذي جعلها تشعر بالإرهاق والتعب بعد مضي زُهاء يوم كامل من القتال المتواصل..

وحين أحس طاغين بانخفاض قوتها القتالية لقرابة الربع فإن هالة زرقاء مشعة أحاطت بجسده قبل أن ينطلق نحوها بقوة دفع هائلة مثل ومضة برق خاطفة ويصطدم بها بكل قوته..

**

لم تسقط تارا بعد ذلك الهجوم المباغت وظلّت واقفة مكانها إلا أن جسدها تعطل كليًّا عن الحركة وكأنه قد شُل؛ مما جعلها هدفًا سهلًا لضربات المقاتلين فائقة العنف والقوة..

ولم يتوقف المقاتلين عن تسديد الضربات المتتالية لها إلا عندما فقدت توازنها وسقطت أرضًا..

ورغم إدراك طاغين أنها لم تعد تملك من القوة ما يكفيها لأذيته، إلا أنه راح يقترب منها بخطوات حذرة حتى إذا أصبح قريبًا منها قال:

- لقد قاتلتِ اليوم بقوة لم يسبق لي أن رأيتُ مثلها من قبل يا تارا ولذلك تستحقين قبل موتك أن أكشف لك عن اسم الشخص الذي خان عاصف وسرَّب الخطة إليَّ..

ثم همس لها بصوت منخفض يكشف لها عن اسم الخائن.. وما أن سمعت تارا بذلك الاسم حتى اتسعت عيناها وامتلأت غضبًا ودهشة..

ولكن شعورها ذاك لم يدم طويلًا حيث استجمع طاغين كامل قوته في يده اليسرى وسدد لها الضربة الأخيرة، فانطفأت عينا تارا واختفى منهما بريق الغضب والدهشة..

**

بعد قضائه عليها أمر مقاتليه: خذوها بعيدًا واقطعوا رأسها..

حمل جثتها عن الأرض خمسة عشر نفرًا من الجن ثم ابتعدوا بها، وقبل أن يغادروا القاعة صاح عليهم مكررًا كما ليؤكد لهم على أهمية الأمر:

- لا تنسوا أن تقطعوا رأسها..

وحين زال الخطر أكمل سيره لنهاية القاعة حتى وصل عرش أبابيل المُترع بالتعاويذ والكلمات والرسوم المنقوشة على هيكله ثم جلس فوقه ووضع قدمًا فوق قدم..

**

بعد قليل دخل عليه السحرة الخمسة الذين كانوا قد قبضوا على سرابي، تقدم قائدهم غِيلان وقال يُفصح عن أسباب قدومهم:

- لقد ألقينا القبض على سرابي يا سيدي، إنها في الخارج أندخلها عليك؟!

- لا؛ فهذا المكان لا ينبغي عليه أن يتنجس بتلك القذرة..

ثم سأله: وأين ابنتها الصغيرة؟!

لم يكن غِيلان متأكدًا من مصير الطفلة ولكنه خمّن أن البحر سيكون كفيلًا بقتلها فقال:

- لقد ماتت..

أطرق طاغين برأسه نحو الأرض وتمتم بحزن:

- ماتت؟!! - وردد متأثرًا: يا للأسف، يا للأسف!!

استغل السحرة عدم رؤية سيدهم لهم فتلفتوا ينظرون بعضهم لبعض في حيرة وذهول وكأنهم تعجبوا من أن يكون لسيدهم كُل ذلك المقدار من العطف والشعور..

قال غِيلان في نبرة مواسية:

- لم نكن نعرف أنك ستحزن لهذا الأمر يا سيدي..

رفع طاغين رأسه وقال وهو يكشف عن ابتسامة شيطانية:

- أنا حزين أيها الحمقى لأن الأمر كان سيكون أكثر متعة لو أني قتلتها بنفسي!!

تبسّم السحرة وضحكوا حين استعادوا ثقتهم بقلب سيدهم المتحجر وعرفوا من خلال نبرة صوته السابقة أنه في مزاج يسمح لهم أن يعرضوا عليه طلبهم في التمتع بجسد الأسيرة..

ولكن قبل أن يفاتحوه بالأمر كان طاغين قد نظر نحو قائدهم غِيلان وقال له:

- أريدك أن تخبرها شيئًا حين تراها..

قال غِيلان بعدم فهم:

- أخبر من؟!

- تخبر الطفلة..

- كيف أُخبرها وقد ماتت؟!

- أقصد حين تراها في العالم الآخر أريدك أن تخبرها بألّا تخاف لأني قريبًا سوف أُرسل لها أمها وأباها..

وما كاد أن يُنهي جملته تلك حتى كان غِيلان قد تمزق وتناثر جسده أرضًا؛ بفعل ضربة تلقاها من سيده..

بعد أن شاهد السحرة ما حدث لقائدهم فإنهم اختاروا السلامة على المتعة، فلملموا أشلاء الجثة المتناثرة وابتعدوا من هناك صامتين..

**

حمل الخمسة عشر نفرًا من الجن جثة تارا بصعوبة، ونقلوها إلى غابة الأخدود..

وهناك هموا بقطع رأسها تنفيذًا للأوامر.. ولكن جسد كوبرا أفعى الجن بدا قاسيًا عصيًا على القطع وكأنه صُنع من الفولاذ فقال أحد الجن بعد عديد من المحاولات:

- سوف يتطلب قطع رأسها مجهودًا كبيرًا، ما رأيكم أن نترك جثتها هنا ونرحل وعندما يسألنا سيدنا نقول له إننا قطعناه..

قال آخر مؤيدًا لذلك الرأي:

- إنها ميتة ولن نستفيد شيئًا من قطع رأسها، فلنتركها ونرحل..

بدا أن ذلك الاقتراح قد نال قبول بقية الجن؛ إنهم مرهقون من المعركة الأخيرة التي خاضوها ولا يملكون مزيدًا من الطاقة أو الصبر لتبديده على نتيجة محسومة، فكوبرا أفعى الجن قد ماتت وانتهى أمرها ولن يُفيدهم قطع رأسها في شيء..

همّ الجن بالانصراف إلا أن أحدهم كان قد انتبه لشيء غفل عنه الآخرون فقال:

- ولكن جسدها كبير وقد يلاحظه أحد أعوان سيدنا وينقل إليه الخبر فيُكتشف أمرنا، إني أقترح عليكم وأنتم عُصبة من أقوياء الجن أن نحفر لها قبرًا ونداري فيه جثتها..

كان الحفر بالنسبة لهم أكثر سهولة من قطع رأسها فوافقوا على ذلك الاقتراح.. وصنع لها الجن قبرًا طويلًا وسيعًا أودعوها فيه ثم أهالُوا التراب فوقها حتى ساووه بالأرض ورحلوا..

ولو أن أحدًا منهم قبل الرحيل بلحظة نظر للخلف "نحو المكان الذي دفنوا فيه جسد كوبرا أفعى الجن" لكان سيلاحظ تلك الرعشة الخفيفة والسريعة التي حدثت فجأة في التربة ثم اختفت..

وكان سيخامره الشك بالتأكيد حول ما إذا كانت الجثة المقبورة أسفل الأرض قد تحركت أم أن الرعشة الخفيفة والسريعة تلك حدثت لسبب آخر..

٤

السجن

أخذ السحرة سرابي وأودعوها قفصًا ضيقًا أشبه بأقفاص الحيوانات فكانت وهي بداخله بحاجة لأن تضم قدميها طوال الوقت لصدرها كي تتسع لها حدود المكان..

وبعد أن أودعوها القفص فإنهم غادروها كُلهم إلا ساحرًا منهم استطاع أن يُغافلهم ويبقَى هناك لحاجة في نفسه.. وجعل ذلك الساحر يقترب بخطوات حذرة حتى إذا أصبح قريبًا منها همس قائلًا:

- سيدتي..

التفتت إليه بالقدر الذي تتيح لها مساحة القفص الضيقة بالالتفات وحين نظرت إليه تذكرته.. إنه ذلك الساحر نفسه الذي عندما كان بقية السحرة يرغبون بالتمتع بجسدها قال لهم: "**ولكننا قد نُغضب سيدنا طاغين بهذا الأمر؛ فربما أراد هو أن يتمتع بها أولًا.. ما رأيكم أن نأخذها إليه ونستأذنه.. فإن أذن لنا فعلنا.. وإن رفض نكون قد اتقينا غضبه..**"

- ماذا تريد؟!

- طاغين سوف يقتلك غدًا يجب أن تهربي من هذا السجن..

- وأنت لماذا تهتم؟!

- لأن زوجك صديقي..

- أنت تكذب.. ألم تكن أنت نفسك من أراد أن يتمتع بجسدي مع أولئك السحرة؟!.. وقد اقترحت عليهم أن يأخذوني إليه ويستأذنوا منه فربما كان يريد هو أن يتمتع بي أولًا؟!

- لقد قلتُ ما قلته كي أحميكِ منهم ليس أكثر..

بدا أنها كانت تشكك بأمره؛ فرفع كُم قميصه وأظهر لها تميمة مُحاكة من الخيوط الدقيقة لشعر حصان مُجنح ومرصعة بأحجار صغيرة من الذهب والياقوت والزبرجد، كان يلفها حول معصم يده وقال لها:

- ألا تُذكركِ هذه التميمة بشيء؟!

كان الظلام يملأ فراغ السجن ورغم ذلك إلا أنها استطاعت مستعينة بالضوء الخافت المتسلل من الخارج أن تنظر لتلك التميمة "إنها ذات التميمة التي صنعتها بيدها لزوجها"

هتفت متسائلة:

- من أين حصلت عليها؟!

أومأ لها بيده:

- اخفضِي صوتك - ثم قال يُجيبها:

- لقد أعطاني إياها زوجك وطلب مني أن أعيدها إليه حين ألتقِي به في القصر ليعطيني رقعة أرض في أبابيل أسكن فيها مع عائلتي..

- ما اسمك؟!

- ياسين..

نعم إنها تذكر أن عاصف عندما عاد تلك الليلة من جبل غُراب، حدثها عن ذلك الساحر الصبي الذي يُدعى ياسين وعن قصة لقاءه به..

نظرت إليه بشك فأدرك ما يدور داخل عقلها إنها تتسائل كيف له أن يزعم أنه صديق زوجها وهو في ذات الوقت أحد أفراد جيش طاغين، فقال يشرح لها:

- لقد تسللت لجيشه لأني أعلم أن وجودي هنا سوف يكون مفيدًا لزوجك ذات يوم.. ووجودي أمامكِ الآن يُثبت أن حدسي كان في مكانه..

وهنا جاء صوت السحرة من خارج السجن يُنادون عليه:

- ياسين أين ذهبت يا ياسين؟!

ارتبك ياسين حين سمع أصوات ندائهم؛ وقال على عجالة:

- يجب أن تهربي من هذا السجن بأسرع وقت يا سيدتي..

- وكيف أهرب وإلى أين ألجأ؟!

- لأكون صادقًا معك أنا لا أعرف لكِ طريقة للهروب، ولكني أعرف مكانًا حصينًا آمنًا أُخبئكِ فيه لو أنكِ هربتي..

ثم مد لها على عجالة ورقة صفراء متآكلة وقال:

- خُذي هذه..

- ما هذه؟!

- إذا استطعتِ الهروب من هنا فاحرقي هذه الورقة وسوف آتي إليكِ..

ترددت سرابي قليلًا فقال لها يستعجلها:

- إن السحرة يقتربون ويجب ألّا يروني معكِ، هيا خذيها فلا وقت لدينا!!!

مدت سرابي أصابع يدها من بين قضبان القفص الضيقة والتقطت الورقة الصفراء وخبأتها داخل فمها..

وفي تلك اللحظة تمامًا دخل السحرة السجن ونظروا في الفراغ المُظلم قليلًا..

تمتم أحدهم بعد لحظات وهو يهمُّ بالانسحاب للخلف وإغلاق الباب:

- إنه ليس هنا، يبدو بأنه ذهب لمكان آخر..

٥

الحُلم

لقد اشتعل قلبها حزنًا وأكلت دودة اليأس عظامها حدًّ أن نفحة يسيرة من الهواء كانت ستكون كفيلة بإسقاطها.. إنها المرة الأولى التي تُدرك فيها أن هناك أوجاعًا لفرط حُرقتها فإن العين وإن اجتهدت لا تستطيع بكائها..

إنها تشعر بأن الحياة تظلمها بكل هذا الكمّ الهائل من التعاسة، وجعلت تتسائل في عُمق نفسها عن الذنب الذي ربما تكون قد اقترفته يومًا لتُعاقبها السماء بكل هذه الخيبات المتتالية..

كانت الأفكار تُرهقها والشك ينهشها من الداخل: هل طفلتها بخير أم أن وحشًا من وحوش البحر التهمها؟!.. وإذا كانت الوحوش لم تنتبه لها فهل ما زالت طفلتها تطفو على متن ذلك القارب الشراعي أم أن موجة ملعونة غاشمة أغرقتها؟!..

ماذا عن زوجها.. هل قُتل في المعركة؟!.. أم أنه استطاع بمعجزة ما أن ينجو منها.. هل هو بخير أم أن الجروح أنهكت جسده، وألحقت الخسائر بروحه الأذى؟!

إنها أُم؛ لذلك فإن مصيرها لم يكن يعنيها.. كُل ما كانت تفكر به تلك اللحظة هو عائلتها.. لو كانت لديها أمنية واحدة مُحققة لتمنّت أن يأخذ الرب أيامها ويهبها لطفلتها وزوجها..

ورُغم أن الأفكار والشك كانا يمنعانها من أخذ أنفاسها بشكل منتظم، إلا أنها لفرط الإرهاق أغمضت عينيها وهي بوضعية الجلوس تلك واستغرقت في النوم.. ورأت في الحُلم فتاة تقترب منها..

كانت فتاة جميلة يُحيط بها شيء يُشبه الغيمة، عيناها بُندقيتَا اللون ويفوح من جسدها رائحة ياسمينية فائحة.. ورغم أن سرابي كانت ترى تلك الفتاة لأول مرة إلا أنها عرفتها:

- أنتِ جومانا والدة عاصف؛ إنكِ تمامًا مثل ما كان يصفكِ لي..

قالت لها جومانا:

- يجب أن تفكري بطريقة للخروج من هنا يا سرابي..
- لا أستطيع فكما ترين أنه سجن محكم الإغلاق ولا أملك وقتًا كافيًا للهرب؛ طاغين سيقتلني غدًا..
- **طالما أنكِ حية، فإن الوقت ما زال مبكرًا على الاستسلام أو إعلان الهزيمة..**

صمتت سرابي ولم تقل شيئًا، فأكملت جومانا كلامها:

- عندما التقاكِ عاصف أول مرة لمح فيكِ شيئًا ذكره بي؛ لذلك أحبكِ سريعًا.. لقد آمن في نفسه أن قربه منكِ سوف يعوضه عن فقدانه لي..

وأدركت سرابي في نفسها السر الذي جعل عاصف يقع في حُبها بتلك السرعة؛ لقد أحبها لأنها جائت في التوقيت الذي كان هو يبحث فيه عن شيء يعوضه فقدان غياب والدته..

أكملت جومانا لها:

- عندما فقدني عاصف سابقًا فقد معي كُل الأسباب التي تدفعه للبقاء حيًّا، ولكنه عندما التقاكِ وجد فيكِ أسبابًا أخرى جديدة تجعله يتمسك بهذه الحياة.. فلا تموتي وتتركيه..

هتفت بلهفة:

- هل هو بخير؟!

هزّت جومانا رأسها مبتسمة وقالت:

- وابنتك بخير أيضًا..

وسرابي تكاد تطير من فرحتها:

- أأنتِ واثقة مما تقولين؟!!

مدت جومانا لها يدها وقالت:

- أمسكي يدي سوف أريكِ شيئًا..

- كيف آتِي معك وأنا محبوسة هُنا؟!

- جسدكِ سيبقَى، روحك سوف تأتِي معي..

***

وما أن أمسكت بيد جومانا حتى شعرت أن روحها تنفصل عن جسدها وتطفو نحو الأعلى كمنطاد يرتفع..

اخترقت بروحها قضبان القفص وسقيفة السجن ثم الطبقات الصخرية الصلبة لبُنيان القصر.. وواصلت ارتفاعها إلى الأعلى حتى وصلت قُبة السماء وأصبحت أبابيل تحتها..

سألت:

- أين سوف تأخذينني؟!

أجابتها:

- سوف تعرفين بعد قليل..

٦

رحلة الأرواح الأولى

طارت بها جومانا شمالًا عبر طبقات الجو العُليا وصولًا لمنطقة في عرض البحر، استطاعت سرابي فيها أن تلمح قاربًا شراعيًا يطفو بسلام مقتربًا من ضفة يابسة مجهولة..

بدا القارب من بعيد في بداية الأمر ألّا أحد على متنه ولكنها عندما اقتربت منه أكثر فإنها شاهدت طفلة تبكي في جوفه فهتفت:

- إنها ابنتي!!

ولفرط لهفتها عليها فإنها نست حقيقة كونها روحًا أثيرية ومدت يديها لتحملها وتضمها إليها، غير أنها لم تستطع لمس جسدها المادي فالتفتت تسأل جومانا:

- لماذا لا أستطيع لمسها؟!

- لأنكِ روح..

أحزنها ذلك ولكنها سرعان ماتفهمت الأمر.. وجعلت تراقب بعينيها القارب الشراعي إلى أن رسا أخيرًا على اليابسة واستقر مكانه فسألت:

- ما هذا المكان الذي وصل إليه القارب؟!

- إنها إحدى ممالك العالم العُظمى وتدعى **"ممالك التنين"**

- وابنتي ما الذي سيحدث لها هُنا؟!

- إنها بأمان الآن ولكنها بحاجة ماسة للطعام..

ثم أردفت:

- لقد بقيت ابنتك مدة طويلة في عرض البحر وإن كانت قد صمدت إلى الآن فهذا لأنها هجينة ولديها قوة خاصة.. ولكنها لن تحتمل الجوع أكثر..

ثم أضافت كما لتستفز فيها طاقة التحدي:

- ابنتكِ سوف تهلك هُنا وحيدة وأنتِ لن تستطيعي إنقاذها؛ فأنتِ في نهاية المطاف لستِ إلا روحًا أثيرية لاحول لكِ ولا قوة..

قالت سرابي والتحدي يلمع في عينيها:

- طالما أني أتنفس، فالوقت لا يزال مبكرًا على الاستسلام أو إعلان الهزيمة..

ثم ارتفعت في الجو قليلًا وتلفتت تبحث عن وسيلة تُساعد بها ابنتها فوجدت رجلًا اسمه "**غيَاث**" يجلس فوق صخرة مرتفعة في الجهة الأخرى من الشاطئ وقد بدا أنه كان يستمتع بحرارة ضوء الشمس وهو يصيد السمك وبرفقته كلبه الأسود الضخم ذو الفرو الكثيف والذي تُميزه ندبة متعرجة على عينه اليُسرى تُشبه خط الرعد..

ورغم أن غيَاث كان قريبًا نسبيًّا من المكان الذي رسا فيه القارب الشراعي إلا أنه بسبب هدير الأمواج والصوت المرتفع للهواء فإنه لم يكن بوسعه سماع استغاثات الطفلة..

وللمرة الثانية أنستها اللهفة أنها ليست إلا روحًا أثيرية لا تستطيع الأجسام المادية إدراكها، وذهبت تطلب منه المساعدة:

- أيها الرجل أرجوك أنقذ ابنتي إنها..

وتوقفت عن الكلام بعد أن تذكرت بأنه - لا ولن - ينتبه لوجودها وكادت أن تنسحب لتفكر بحل آخر لولا أن ذاك الكلب الأسود بدأ فجأة بالنباح عليها؛ فأدركت أن الكلب يستطيع رؤيتها.. وبدأت تشاغبه كي تدفعه للحاق بها..

ونجحت الخطة حيث راح الكلب الغاضب يلحق بها وينبح عليها بجنون وكانت كلما رأت غضبه يكاد ينطفئ ويهمّ بالرجوع لصاحبه شاغبته أكثر لتُشعل فيه الغضب فيواصل ملاحقتها..

وهكذا أكمل الكلب الأسود ملاحقتها حتى أوصلته للقارب ثم اختفت..

**

ما أن شاهد الكلب القارب الشراعي أمامه حتى أنساه الفضول السبب الذي كان غاضبًا من أجله، وبدأ يحوم حوله ويُشمشم أطرافه كما ليتعرف عليه..

ثم وقف بقائمتيه الخلفيّتَين واتكأ على حافته كي يُلقي نظرة على ما بجوفه وحين شاهد أمامه طفلة تتحرك في كوفلتها، فإن الذعر أصابه وعاد يركض نحو صاحبه ويحوم بجنون حول الصخرة المرتفعة وهو ينبح بقوة كما ليُخبره عما رآه للتو..

قال غيَاث متسائلًا:

- ما بك اليوم يا رعد، أراك كثير النُّباح على غير عادتك؟!

استمر الكلب بالنباح أكثر وأكثر فأمره سيده بالصمت غير أنه رفض التزام الصمت وتصاعد نُباحه بطريقة أثارت انتباه السيد إلى أن كلبه شاهد أمرًا خطيرًا..

قفز غيَاث من فوق الصخرة العالية:

- حسنًا دعنا نرَ ما لديك يا رعد - ثم أضاف وهو يتبع كلبه مهرولًا:

- وإياك أن يكون أمرًا سخيفًا وإلا قطعتك إربًا إربًا وجعلتك اليوم طُعمًا للأسماك..

قاده الكلب نحو القارب الشراعي وهُناك شاهد غيَاث الطفلة وكان التعب قد أسكتها وكفها عن البكاء..

حملها بيديه وتمتم متسائلًا:

- من أين جاءت هذه الطفلة الجميلة يا تُرى؟!

ثم وهو يتلفت حوله كما ليتحقق مما إذا كان هناك أحد معها أم أنها وصلت وحدها، وعندما لم يجد أحدًا على طول امتداد الشاطئ فإنه تمتم قائلًا يكلم الكلب:

- يبدو أنها وحيدة تمامًا، وليس لها غيرنا يا رعد..

أخرج الكلب صوتًا لطيفًا يشي بسعادته، فقال له غيَاث وكأنه أدرك ما يريد قوله:

- أوه نعم، لقد أصبحنا عائلة مكونة من ثلاثة أفراد.. أنا وأنت وهذه الطفلة..

وانتبه غيَاث في تلك اللحظة إلى ضرورة أن يكون للطفلة اسم، فقال بعد أن فكر قليلًا:

- سيكون اسمها **نورس**؛ لأننا ألتقيناها عند شاطىء البحر..

هز الكلب ذيله القصير المقوَّس وبدا شكل لسانه الطويل المتدلي للخارج وحركة فمه الممتدة من الأذن للأذن تعطي انطباعًا بأنه كان يبتسم سعيدًا لانظمام فرد جديد للعائلة..

ربّت غيَاث على رأسه وقال وهو يهمّ بالابتعاد:

- لنأخذها للمنزل يا رعد؛ إنها بحاجة للراحة والنظافة وتناول بعض الطعام..

**

قالت سرابي وهي تنظر نحو جومانا بقلق:

- أريد اللحاق بها لأطمئن عليها أكثر..

- لن يُفيدك اللحاق بها - ثم مدت لها يدها وأضافت:

- دعينا نذهب فهناك مكان آخر أريد أن أُريكِ إياه..

٧

رحلة الأرواح الثانية

كان المكان الذي أخذتها إليه جومانا هذه المرة عبارة عن قرية كبيرة تتمركز فوق هضبة منبسطة عالية الارتفاع للحد الذي يُخيل لمن ينظر إليها من بعيد أن أهالي تلك القرية كانوا يستطيعون لمس قُرص القمر بأصابعهم لو أنهم اجتهدوا قليلًا في القفز إليه..

سألتها سرابي:

- ما هذا المكان الذي أخذتِني إليه؟!

وهي تُمسكها بيدها وتشدها نحو القرية: تعالي وانظري بنفسك..

**

هامت كُل من روح جومانا وسرابي في أزقة القرية حتى وصلتا إلى كوخٍ صغيرٍ استطاعتا أن تعبرا من خلال حيطانه الخشبية، وما أن عبرتاه حتى شاهدتا جسدًا هامدًا ممددًا فوق فراش قديم مُحاك من صوف الأغنام فقالت سرابي بدهشة وقلق:

- هذا عاصف..

ثم التفتت نحو جومانا تستفهم منها:

- ما الذي حدث، لماذا يبدو غائبًا عن الوعي هكذا؟!

- إنه يعتقد أنه خسركِ وابنتكِ للأبد، فلم يحتمل الأمر وسقط مغشيًا عليه..

- هل سيكون بخير؟!!

- روحه الآن في عالم آخر وقد فقدت الشغف في مواصلة الحياة، وأنتِ الأمل الأخير لإقناعها بالعودة لعالمنا هذا..

سألتها: كيف؟!

- تحدثي معه..

- هل يستطيع سماعي؟!

- لا، ولكنه يستطيع الشعور بكِ..

اقتربت منه قليلًا وهمست بتوسل ورجاء: عاصف..

وصمتت قليلًا وكأن نُطقها لاسمه قد تطلب منها بذل مجهود كبير، ثم قالت:

- **هذه أنا غيمتُك المُمطرة عندما تجف كُل بحور الأرض، ويهلك جميع من في العالم عطشًا..**

ثم لمست وجهه بحنان وكأنما بذلك كانت تُصافح قلبه، وأكملت:

- أليس هذا ما كنت تحاول ذات مرة أن تقوله لي ولكن الحروف خانتك فلم يسعك حينها إلا أن تنطقها بعينيك؟!.. لطالما قلتُ لك بأني لستُ بحاجة للكلمات يكفيني فقط أن أُطيل النظر لعينيك فأقرأ فيهما كُل الكلام الذي توَدُّ قوله..

لم يستجب لها أيضًا فالتفتت نحو جومانا تسألها بخوف:

- إنه لا يستجيب؟!

- واصلي حديثكِ معه؛ فصوتك هو الشيء الوحيد القادر على أن يُقنع روحه بالعودة ويُرشدها للطريق الصحيح..

وتذكرت سرابي في تلك اللحظة كلامه لها وهو يوصيها أن تكون بخير في غيابه، فبدت أمامه يائسة مثل شجرة صبار تبحث عن يد تربّت عليها..

أفلتت منها تنهيدة البكاء وهي تقول:

- ولكني لا أستطيع أن أكون بخير في غيابك لا أستطيع أن أكون آمنة وأنا لا أتكوّم كحمامة في عُش قلبك، لا أستطيع أن أُبقي على مِشعل ابتسامتي مُضاءً وأنت مُطفأ هكذا، أرجوك عُد فأنت لا تعلم كم هو هذا العالم بشع ومُخيف بدونك..

وبدأت تكرر وكأنها تقرأ تعويذة:

عُد يا عاصف لا تمت عُد أنا وابنتك بحاجة إليك..

عُد يا عاصف لا تمت عُد أنا وابنتك بحاجة إليك..

ومكثت تكرر تلك الكلمات مرارًا وتكرارًا دون يأس أو ملل ولم تتوقف عن ترديد ذلك إلا عندما عادت روحه من العالم الآخر لتسكن جسده ثم فتح فجأة عينيه..

**

لفرط فرحتها حاولت عناقه ولكن يديها عبرتا من خلال جسده وما استطاعت مسّه، اقتربت منها جومانا وقالت لها:

- ما زالت أمامك فرصة لتبقي معه طوال العمر ولكن أولًا عليكِ أن تعودي لجسدك وتجدي طريقة للهرب من ذلك السجن قبل أن يأتي يوم الغد ويقتلك طاغين..

قالت بأمل وتحدٍ لا نهائي:

- حسنًا، سأعود لجسدي وأجد طريقة للهرب..

**

بعد لحظات فتحت سرابي عينيها فوجدت نفسها أسيرة داخل القفص الأشبه بأقفاص الحيوانات، وتساءلت في نفسها:

" **أكان كُل ما رأيته للتو حقيقيًا أم أنه مجرد حُلم؟!** "

لم يكن لديها دليل قاطع يقودها لإجابة صحيحة لسؤالها بيد أن طيف رائحة الياسمين التي لا تزال عالقة في المكان وذلك الإحساس المُبهج الذي يكتنف قلبها كانا دليليّن يكفيانها لتؤمن إيمانًا ثابتًا لا يُزعزعه شك أو ارتياب بأن الذي شاهدته وعاشته قبل قليل كان حقيقيًا ولم يكن وهمًا أو خيال..

**

رددت ثلاث مرات: "خَافِينا تَعال اخفِينَا"..

وحين ظهر لها الشيطان هذه المرة لم تخف منه ولم تُغمض عينيها ورغم أن تارا كانت قد حذرتها بألّا تطلب منه أمرًا آخر غير الاختفاء إلا أنها قالت:

- أريد أن أطلب منك شيئًا غير الاختفاء..

ابتهج الشيطان حينها وبدا كما لو أنه كان في انتظار سماع تلك الجملة منذ قرون طويلة..

قال بصوته الرخامي الثقيل الطبقة:

- سأفعل أي شيء تأمرينني به يا سيدتي..

تعجبت سرابي من تلك السهولة في الاستجابة لطلبها واستشعرت أن في الأمر فخًّا:

- ألن تطلب شيئًا في المقابل..

مبتهجًا ضرب القيود الحديدية الصدئة التي كانت تُقيد معصمي يديه بعضهما ببعض وقال:

- بالتأكيد سأطلب..

- ماذا تريد؟!

- إذا أردتِ أن أصنع لكِ شيئًا غير الاختفاء، فعليك أن تُحرري يدي هاتين من قيودهما..

- وكيف أُحررهما؟!

تكلم الشيطان برسمية مبالغٍ بها وكأنه يقرأ إجابته من ورقة ما:

- تتحرر قيود يد الشيطان المملوك عندما توافق فتاة إنسية على الزواج به..

قاطعته بانفعال:

- ولكنني متزوجة!!

قال بانفعال يُشابه انفعالها:

- ولكنني لم أنتهِ من كلامي بعد!!

صمتت لتدعه يُكمل..

فأعاد الشيطان تلاوة إجابته من البداية:

- تتحرر قيود يد الشيطان المملوك عندما توافق فتاة إنسية على الزواج به.. بشرط أن تكون تلك الفتاة متزوجة..

**

صمتت سرابي من هول الصدمة.. وطال صمتها أكثر مما يستطيع الشيطان الصبر والانتظار، فقال محاولًا إقناعها بالأمر:

- لن تنجحي في الخروج من هذا القفص إلا إذا وافقتِ..

وأضاف ليُغريها:

- قولي نعم، وسأنقلك في لحظة لخارج هذا القصر..

نظرت إليه سرابي طويلًا إنها مترددة لا تعرف ماذا تقول فإن وافقت خرجت من سجنها ونجت من الموت، وإن رفضت بقيت حبيسة داخل قفصها حتى يقتلها طاغين في الغد..

سألها الشيطان وعيناه تلتمعان خبثًا ومكرًا:

- هل تقولين نعم؟!!

الباب السادس

١

عاصف

عندما أفاق عاصف من غيبوبته لم يجد حوله غير الظلام.. الظلام الدامس فقط ولا شيء سواه.. فاعتقد أول الأمر أنه في غُرفة شديدة الإغلاق؛ وهذا ما فسر له عدم قدرته على الرؤية..

ولكن بعد لحظات بسيطة استطاعت أُذناه أن تلتقطا حسيس صوت نار قريبة جدًّا من مكانه، وحين مد يده نحوها استطاع أن يستشعر حرارتها فأدرك أنه يجلس في مكان مُضاء بالنار..

وتساءل في نفسه:

"لماذا إذًا لا أستطيع الرؤية؟!"

فرك عينيه بواسطة يديه بقوة حتى كادت عيناه لشدة الضغط أن تسقطا للداخل، ثم حين فتحهما ليحاول الرؤية مجددًا فإنه لم يرَ شيئًا غير الظُلمة..

وتساءل ضجرًا بصوت مسموع:

- لماذا لا أرى شيئًا غير هذا الظلام؟!

وعلى أثر ذلك النداء جاء الشمالي الذي كان يجلس خارج الكوخ وحين شاهد عاصف أمامه وقد أفاق من غيبوبته لم يستطع أن يمنع نفسه من الاندفاع نحوه ومعانقته:

- لقد افتقدناك، وخشينا ألّا تعود أبدًا!!

متجاهلًا حميمية اللقاء قال بعصبية:

- أيها الشمالي أجبني بصراحة، أهذا المكان يعمه الضوء؟!

تعجب الشمالي من ذلك السؤال:

- نعم إننا نمكث في كوخ مضاء بواسطة نار المدفأة..

وثب عاصف واقفًا وأحس بثعبان الخوف يلتف حول عُنقه:

- لماذا إذًا لا أستطيع أن أُبصر شيئًا؟!!

عقدت الدهشة لسان الشمالي وصمت ولم يعلّق بشيء..

- ما بك لا تقول شيئًا أيها الشمالي هل أُصبت بالخرس؟!.. تكلم.. أخبرني لماذا لا أستطيع أن أرى شيئًا غير هذه الظُّلمة الحالكة؟!

- في الحقيقة أنا.. آآ أنا لا أعرف.. ولكن دعنا ننتظر عودة الحكيم ونرى ماذا سيقول في أمرك..

- وأين ذهب الحكيم؟!

- لقد ذهب هو وإكليل لزيارة عشائر الدم..

- ولماذا يذهبان إلى هناك؟!..

- إنها قصة طويلة، اجلس الآن وسأخبرك بها..

لم يُصغِ إليه وهمّ بمغادرة المكان بعصبية وعجالة ولكن بسبب عدم قدرته على الرؤية فإن قدمه تعثرت بنتوء بارز كان في أرضية الكوخ.. مما تسبب في اختلال توازنه فخطا بضع خطوات لا إرادية للأمام كان يحاول فيها استرداد توازنه ولم يتوقف إلا حين ارتطم رأسه بالحائط الخشبي وسقط مكانه..

اندفع الشمالي نحوه ليطمئن عليه لكن عاصف أوقفه:

- أنا بخير، ولستُ بحاجة للمساعدة..

- دعنا ننتظر قليلًا ريثما يعود الحك..

- انتظر وحدك، أنا ذاهب للبحث عن زوجتي وابنتي..

- ولكنهما ماتتا يا عاصف – وأضاف يُذكره:

- ماتتا عندما احتل طاغين بجيشه جزيرة الأرباب وأشعل النار في القصر ألا تذكر؟!..

- لا تقلق لم أفقد ذاكرتي بعد.. كُل ما في الأمر هو أني سمعتها قبل قليل تُناديني وتخبرني أنها وابنتي لا تزالان على قيد الحياة..

- لقد كنتَ غائبًا عن الوعي لمدة تقارب اليوم ونصف يا صديقي، وربما سماعك لصوتها لا يعدو كونه أكثر من مجرد حُلم عابر رأيته أثناء غيابك عن الوعي..

اقتنع بكلامه ووجده منطقيًا؛ فقد كان غائبًا عن الوعي طيلة الوقت وإذا كان قد سمع صوت زوجته سرابي فربما لا يعدو ذلك الأمر كونه أكثر من مجرد حُلم..

وحين عادت إليه ذكريات الحريق وموت كُل من عائلته وأيوب والوزيرة خيزران وإلقاء القبض على حصانه المُجنح سابح فإنه تمتم غاضبًا:

- يجب أن أثأر لهم!!

ونهض واقفًا ثم تراجع ثلاث خطوات للوراء قبل أن ينطلق نحو حائط الكوخ الخشبي محاولًا النفاذ من خلاله للجهة الأخرى، لكنه بدلًا من أن يعبر من خلاله ارتطم رأسه به مجددًا وسقط مكانه..

قال الشمالي له:

- لن تستطيع استخدام قوتك الخاصة وفيك كُل هذا الحزن..

متجاهلًا ذلك الكلام نهض بعناد وجعل يتحسس الأشياء من حوله يُريد الوصول لباب الكوخ، ولكن مجرد التفتيش عن الباب وهو بتلك الحالة كان بالنسبة إليه مهمة شاقة جدًّا:

- أيها الشمالي، قُدني لباب الخروج من هذا المكان..

أمسكه الشمالي من يده وقاده نحو الباب وحين اقتربا من العتبة قال يُنبهه:

- توخَّ الحذر؛ أمامك عتبة الباب..

رفع عاصف قدمه للأعلى بحد كافٍ حتى يضمن أن قدمه لن تتعثر ببروز العتبة وهو يجتازها، أكمل الشمالي مساعدته حتى أوصله للخارج ثم قال هامسًا وهو يفلت يده:

- لقد أصبحت خارج الكوخ الآن..

سار عاصف للأمام خطوتين لكنه توقف فجأة مكانه؛ فعندما باتت السماء الشاسعة فوقه والأرض الفسيحة مطوية تحت قدميه والظلام يحيط به من كُل اتجاه أدرك المسكين حجم معاناته..

فلم يلبث كثيرًا حتى برك منهارًا على ركبتيه، ثم كوّر قبضة يده وضرب بها الأرض من تحته مخلفًا مكان الضربة حفرة عميقة واسعة القطر تشي بمدى غضبه وتمتم قائلًا:

- يا للعنة، لقد أصبحتُ كفيفًا.

رفع رأسه للسماء ووضع يديه عند فمه فيما يشبه البوق؛ كي يصبح صوته أكثر تركيزًا فيضمن وصوله للرب، ثم صرخ بصوت عالٍ وعروق الدم في عُنقه تكاد تتفجر:

- **أيها الرب !!!!!**

أيقظت صرخته تلك سكان القرية فبدأت قناديل الأكواخ تباعًا تُضاء تحت ظُلمة الليل، وأمتدت الرؤوس الفضولية لأفراد القرية من خصاص النوافذ تُلقي نظرة على ما يحدث في الخارج:

- أيها الرب انظر ماذا حل بي لقد أصبحتُ كفيفًا، لماذا تفعل هذا معي؟!.. أهذه طريقتك في تحقيق الدعوة؟!.. أبهذه الطريقة تنوي مساعدتي لتحقيق ثأري؟!!!!

وفي تلك اللحظة قصف الرعد في السماء فأضاء بنوره الأزرق ظلام القرية وهطلت الأمطار..

أشفق الشمالي على صديقه وهمّ بمساعدته على النهوض:

- دعني أساعدك، يجب أن تدخل الكوخ قبل أن يُصيبك البرد..

لكن عاصف لم يكترث للجو الماطر أو البرد، وطلب من صديقه مساعدة أخرى:

- إذا كنت تريد أن تساعدني أيها الصديق العزيز فاصنع لي معروفًا واحفر لي قبرًا هنا، لقد أصبحتُ كفيفًا فأي فائدة قد تُرجى من محارب كفيف؟!!

ثم تمتم ثملًا يسخر من أحزانه:

- إني الآن بلا فائدة، ههه تمامًا كأثداء الرجال..

ثنى الشمالي قدميه جالسًا أمامه وقال:

- وإن أصبحتَ كفيفًا فأنا عينك التي ترى بها..

- وما ذنبك لتتحمل مشقة وقوفك مع شخص عاجز مثلي؟!

- لأنك صديقي، وهذا ما يفعله الأصدقاء - وأضاف:

أنا أستطيع الرحيل عنك في أي لحظة فأنا لستُ عبدًا لديك، وعُنقي ليست مقيدة بسلاسلك.. ولكني أختار بمحض إرادتي أن أبقَى معك وأكون عينك التي ترى بها، وسيفك الذي تحارب به ودرعك الذي يتلقى الضربات عنك، وصرختك التي تُرهب بها الأعداء.. هل تعلم لماذا أفعل هذا معك؟!

لقد امتص الشمالي بتلك الكلمات غضبه وجعله أكثر اطمئنانًا وثقة بنفسه..

تمتم عاصف متسائلًا:

- لأنك صديقي، وهذا ما يفعله الأصدقاء؟!

- تمامًا.. لأنك صديقي وهذا ما يفعله الأصدقاء..

ومر بعض الوقت قبل أن يهدأ عاصف قليلًا ثم يسأل:

- أين نحن؟.. وماذا حدث أثناء غيابي؟.. ولماذا ذهب الحكيم وإكليل لعشائر الدم؟!

- دعنا ندخل الكوخ ونحتمي به من هذا الطقس.. وسوف أخبرك بكل شيء..

ساعده الشمالي على النهوض ولكنه ما كاد أن يلتفت للكوخ ويخطو بعاصف نحوه خطوتين حتى توقف مكانه، وذلك لأنه شاهد في السماء السوداء الماطرة جسمًا يطير باتِّجاههم مقتربًا وغمغم بقلق:

- لقد عاد إكليل..

هبط طائر العنقاء بالقرب منهما، وبدا سعيدًا لرؤية سيده وقد أفاق من غيبوبته ولكن الشمالي لم يدع له فرصة للتعبير عن شعوره وسأله:

- أين الحكيم؟!.. لماذا لم يعد معك؟!

أجاب إكليل بشيء جعل الدهشة ترتسم على صفحة وجهيهما:

- لقد أمرتني الحمامة أن أعود..

سألاه في الوقت ذاته: أي حمامة هذه؟!!

٢

الحمامة

استطاع الحكيم أن يتسلل من بين أقدام الحرّاس الذين كان يُطوقون حدود منطقة عشائر الدم ويمنعون أي مخلوق قد يُشكل خطرًا عليهم من الاقتراب..

وفي الحقيقة لقد انتبه إليه بعض حرّاس العشائر وهو يتسلل من بين أقدامهم للداخل ولكن أحدًا منهم لم تواته الفكرة لإيقافه؛ وذلك لأنه لم يأتِ في عقل أحدهم أن ذلك الفأر ليس إلا إنسيًّا جاء يحمل رسالة من الأعداء..

**

وبينما الحكيم يتجوّل هناك إذ اعترضت قطة مشاكسة طريقه فجأة وظلّت تتقدم نحوه بخطوات متمهلة وخيط لُعَاب الجوع اللزج يتسرّب من زاوية فمها:

- يا للسماء، هل كُتبت نهايتي أن أكون طعامًا لقطة جرباء؟!

كان يعرف أن جسده الصغير الهزيل لن يُساعده في الدفاع عن نفسه وأنه لا يملك من الخبرة ما يكفيه للهروب والنجاة من قطة بدت أنها مدرّبة جيدًا على المطاردة والاصطياد..

وفجأة فقئت برأسه فكرة للنجاة.. صحيح أنها فكرة غبية ومتهورة ولكنه لا يملك وقتًا أطول للتفكير بأخرى إنها خُطة الوهم:

"حيث إنه بدلًا من أن يهرب من هناك ويُعطي للقطة فرصة سهلة لاصطياده من الخلف، فإنه سوف يهجم عليها موهمًا إياها بأن لديه قوة ما يُخفيها"

حين رأت القطة هجوم الفأر عليها ترددت قليلًا وفكرت غريزيًا بأن ذلك الفأر الهزيل لو لم تكن لديه قوة ما يُخفيها لما تجرأ على الهجوم عليها بكل تلك الشجاعة، فاستدارت وهرولت مبتعدة..

بعد ذهابها ارتمى الحكيم على بطنه فوق الأرض يأخذ أنفاسه وهو يكاد لا يُصدق أنه استطاع النجاة من ذلك الموقف الخطير، وبعد قليل جاءه الصوت الناعم من ورائه:

- أأنت بخير أيها الفأر؟!

حين التفت لمصدر الصوت شاهد حمامة بيضاء تقف بالقرب منه وتضم جناحيها إلى جسدها:

- لم يسبق لفأر من قبل أن استطاع النجاة من تلك القطة..

رد عليها وهو ينهض وينفض الغبار عن بطنه:

- لأنهم كانوا يهربون من أمامها، فيسهل عليها اصطيادهم من الخلف..

- معك حق؛ إن الأخطار تهزمنا حين نُدير لها ظهرنا ولكننا نهزمها حين نُقرر مواجهتها..

تساءل بينه وبين نفسه كيف لحمامة بسيطة أن تمتلك كُل ذلك الحد من المعرفة لتخرج بحكمة رائعة مثل هذه:

"إن الأخطار تهزمنا حين نُدير لها ظهرنا ولكننا نهزمها حين نُقرر مواجهتها"

قالت الحمامة قاطعة عليه حبال أفكاره:

- يبدو أنك لست من هذه المنطقة..

- لقد جئتُ أبحث عن قلعة أمير العشائر، إن مصير أصدقائي مرتبط بذلك هل تستطيعين أن تدليني على الطريق؟!

اقتربت منه الحمامة وقالت:

- اصعد فوق ظهري أيها الحكيم سأطير بك إلى هناك..

لقد نادته بـ "الحكيم".. فكيف عرفت كُنيته وهو لم يخبرها بها؟!

إنه أمر يبعث على القلق ولكن طالما أنها ستقوم بإيصاله للهدف المطلوب فإن الأشياء الأخرى لا تهم كثيرًا، هكذا فكر الحكيم قبل أن يمتطيها وتحلق به بعيدًا..

٣

بَرقاء

هبطت به الحمامة على إفريز نافذة حُجرة صغيرة توجَد في قمة برج حجري شاهق الارتفاع وحين أطل برأسه لداخل الحُجرة وجد فتاة تدفن وجهها في راحة كفيها وتبكي..

قالت الحمامة له:

- تلك هي بَرقاء اذهب واطلب منها بعضَ زُعافها هيًّا..

وهنا طفح كيله وفاض صبره:

- أنا لم أُخبركِ عن اسم الفتاة ولم أخبركِ بأني جئتُ أطلب زُعافها، كُل الذي قُلته لكِ فقط أن مصير أصدقائي مرتبط بذهابي للقلعة، فكيف عرفتِ كُل هذه المعلومات؟!

قالت الحمامة وهي تدفعه برأسها نحو فتحة النافذة:

- اذهب وسأخبرك بكل شيء لاحقًا..

**

مستعينًا بالنتوءات الدقيقة في الجدار تسلق الحكيم هبوطًا لأرضية الحُجرة، ثم واصل زحفه متجهًا صوب بَرقاء..

عندما وصل إليها لم يكن يعرف كيف يبدأ معها الكلام ففكر أن يكون مرحًا حتى يكسر حاجز اللقاء الأول بينه وبينها فقال بلهجة مشاكسة:

- مرحبًا أيتها الحلوة!!

رفعت بَرقاء رأسها من راحة كفيّها لتنظر من المتكلم وحين شاهدت أمامها فأرًا يحمل أنبوبًا على ظهره اشمئزت وزحفت بمؤخرتها متراجعة للخلف ولكنها استبعدت أن يكون ذلك الصوت صادرًا منه..

فقال وهو لا يزال يرغب في كسر حاجز اللقاء الأول بينه وبينها:

- أنتِ جميلة جدًّا حدَّ أني لو كنت رجلًا لخطفتكِ..

صرخت بَرقاء بكل صوتها تطلب النجدة من حرّاس البرج ليأتوا ويخلصوها من ذلك الفأر المتكلم القليل الأدب..

ومع تلك الصرخة أدرك الحكيم مدى حجم غبائه فقال لها جادًّا وقد بدأ يسمع أصوات أقدام الحراس وهُم يصعدون درجات السلم ويقتربوا من الحُجرة:

- أرجوكِ يا بَرقاء اعذري لساني الطويل، سأخبركِ بكل شيء ولكن لا تستدعِي الحرس!!

إلا أن بَرقاء كانت في حالة من الخوف والهياج لا تسمح لها أن تستوعب ما يُقال من حولها..

تدخلت الحمامة عندما أدركت أن الحرّاس اقتربوا جدًّا من الحُجرة:

- هيا أيها الحكيم تعال إنهم قادمون، دعنا نهرب..

لم يعد ثمّة مجال لإقناع بَرقاء بتغير رأيها.. فاستدار الحكيم وركض نحو الحمامة بقوائمه الأربع القصيرة، ولكن قبل أن يصل إليها ويلوذ بالفرار مدت بَرقاء يدها بغتة وألقت عليه القبض..

**

الحرّاس وهم يدخلون الحُجرة:

- ما الأمر يا سيدة بَرقاء؟!

بَرقاء وهي تدس يدها خلف ظهرها:

- لا.. لقد خُيل إليّ فقط أني رأيتُ شيئًا..

وأردفت:

- عودوا لأماكنكم وأغلقوا الباب خلفكم..

حين ذهب الحرّاس وفتحت بَرقاء قبضة يدها قال لها الحكيم متعجبًا:

- لماذا غيرتِ رأيك؟!

تجاهلت سؤاله وركزت نظرها لخيوط الشعر التي كانت تُثبت القارورة الزجاجية خلف ظهره، سحبت من تلك الخيوط شعرة وشمتها ثم سألته:

- من أين لك هذه الشعرة؟!

قال لها:

- لقد حاولت أن أقول للكِ إن أَوس ابن الشيذمان هو من أرسلني إليكِ، ولكنكِ لم تعطيني فرصة لأتكلم..

حين سمعت اسمه بدا وجهها يصبح أكثر اشراقًا وكأن شمسها للتو تجلّت بعد ليالٍ طويلة من العتمة:

- وكيف هو؟!

أجاب:

- بخير ولكن والده في حالة حرجة..

أنزلت الحكيم من يدها وتمتمت بغضب:

- كُل المصائب التي حدثت بين عشائرنا وقبائل المُستذّئِبين كانت بسبب ذلك الكهل اللعين الذي جاء قبل أسابيع لزيارتنا..

سألها وقد اكتسى وجهه بالجدية:

- أي رجل هذا؟!.. أخبرينا ما الذي حدث؟!..

قالت تفتتح قصتها:

- منذ قديم الزمن وعشائرنا تعيش بسلام مع قبائل المُستذّئِبين بفضل اتفاقية ترسيم حدود مناطق الصيد التي حددها الأسلاف.. ولكن قبل عدة أسابيع جاء لزيارتنا كهل غريب وطلب الاجتماع بشيوخ عشائرنا..

سألت الحمامة:

- وماذا دار في الاجتماع؟!..

٤

شيوخ عشائر الدم

في ذلك اليوم كانت بَرقاء حاضرة الاجتماع بصفتها المستشارة الأولى لوالدها الأمير تليد..

كان الأمير يجلس في صدر القاعة خلف منبر مستدير صُنع من الخشب المعتَّق وابنته بَرقاء تجلس إلى جواره ثم بقية شيوخ العشائر يتوزعون عن اليمين والشمال..

قال الكهل وهو يقف أمامهم ويوزع نظره عليهم:

- إنما أنا لستُ إلا ناصحًا يريد مصلحتكم ولا يرضى أن يراكم تُقاسون الهوان والظلم، ويُصيبكم كُل هذا القحط والجوع والعطش ويسكت..

أنصتوا إليه بآذانٍ صاغية، قال يُكمل حديثه:

- إن أفراد عشائركم يفوقون بالعدد أفراد قبائل المُستذّئِبين؛ ولذلك فإنه من الظُّلم أن تتقاسموا مراعي الصيد بينكم وبينهم بالمناصفة، ينبغي أن تُقسّم الحدود من جديد وتأخذوا أنتم الحصة الأكبر..

بدا أن ذلك الحديث قد مسَّ رغبة دفينة في قلوب الشيوخ مما جعلهم يرتاحون إليه ويجدون فيه الذريعة المناسبة للهجوم على قبائل المُستذّئبين وتوسيع حدود مناطق صيدهم..

لكن بَرقاء كانت لذلك الكهل بالمرصاد حيث قالت:

- ولكنك قد أغفلتَ أمرًا هامًّا..

التفتوا إليها فأكملت تقول:

- إن الفرد من قبائل المُستذّئِبين يفوق حجمه حجم الفرد من عشائرنا ولذلك فإنهم يحتاجون لضعف ما نحتاج إليه من الطعام والشراب؛ وهكذا تكون القسمة بيننا عادلة..

لقد أخمدت بَرقاء بكلامها ذاك الفتنة وأقنعت شيوخ العشائر بالعدول عن فكرة الهجوم غير أن ذلك الكهل قال بنبرة خبيثة:

- كنتُ أريد لعشيرتكِ الخير أيتها المستشارة، ولكن لا عجب في دفاعكِ المستميت عن تلك القبائل وبينهم شخص يُحبكِ وتُحبينه..

عقدت الصدمة لسانها وما عادت تدري كيف ترد، أما والدها الأمير تليد فقد اعتراه الغضب من ذلك الاتهام الجائر الذي قُذفت به ابنته واكتسى وجهه الأبيض الجميل بلون الدم وقال:

- إن كنت ترغب في مغادرة هذا المكان حيًّا فيجدر بك أيها الكهل أن تعتذر عن هذه الكذبة..

- أنا لا أكذب، اسألها بنفسك لتتأكد أن أردت..

واتجهت أنظار الجميع نحو بَرقاء وجعلوا ينتظرون دفاعها عن نفسها وحين طال صمتها أكثر مما يحتمل ذلك الموقف الحساس؛ تكلم والدها يحثها على الكلام:

- قولي شيئًا، صمتكِ يؤكد كلامه..

واقترب الكهل متجرئًا من مكان جلوسها وهمس لها:

- انظري إلى عيني وقولي بأنكِ لا تُحبين أَوس ابن الشيذمان..

عزَّ عليها أن تكذب وهي التي لا ترى في الحُب عارًا يستحق منها أن تخجل من أجله..

نظرت إلى عينيه بثبات وقالت دون اكتراث:

- أنا أُحب أَوس ابن الشيذمان..

وما أن أنهت كلامها حتى كانت الدهشة قد أصابت وجوه الجميع..

**

لم يعد بوسع الأمير تليد أن ينفي التهمة عن ابنته بعد أن اعترفت بلسانها أمامهم.. وأصبح لزامًا عليه اتخاذ عقوبة رادعة بحقها فالتفت نحو بوابة القاعة وصرخ:

- أيها الجُند..

حين حضر الجُند تلبية لندائه فإنه.قال وهو يُشير نحوَ بَرقاء:

- احبسوا هذه الفتاة في أحد أبراج القلعة، ولا تسمحوا لها بالمغادرة إلا إلى قبرها.

عرفت بَرقاء لاحقًا أن ذلك الكهل استطاع إقناع والدها وبقية الشيوخ بإعلان الحرب على قبائل المُستذئِبين من أجل إعادة ترسيم حدود مناطق الصيد وأخذ الحصة الأكبر..

**

صمتت بَرقاء؛ فظن الحكيم أنها انتهت من سرد قصتها.. ولكن الحمامة اقتربت منها ونظرت لعينيها عميقًا وكأنها تفتش فيهما عن الجزء المفقود في القصة ثم قالت:

- هُناك شيء آخر تُخفينه يا بَرقاء أليس كذلك؟!

بدت مترددة ولكنها قالت أخيرًا:

- سمعتُ من أحد حرّاس البرج أن ذلك الكهل أستطاع أن يُقنع شيوخ العشائر بأن الطريقة الوحيدة لقتل الشيذمان وضمان النصر هي في أن يفعل .. أقصد أنه يقوم بـ ..

. وصمتت للحظات وكأنها ليست متأكدة مما إذا كان الحكيم والحمامة سيصدقان الكلام الذي ستقوله بعد قليل..

هتف الحكيم وقد نفد صبره: اكملي!!

قالت:

- لقد اقنعهمَ أن الطريقة الوحيدة لقتل الشيذمان هي في أن يتلبَّس جسد والدي.. قال إن تلك الطريقة هي الوحيدة لضمان إصابته بالزُعاف الذي سيقضي عليه..

سألها وقد أثار أمر ما فضوله:

- أين ذهب ذلك الكهل يا بَرقاء؟!

- لا أعلم؛ لقد اختفى بعد المعركة وكأنه شيء لم يكن..

شك الحكيم في شيء ما فسألها:

- كيف كان شكله، صَفيه لنا؟!

- لقد كان متقدمًا في العمر ولديه لحية بيضاء كثيفة وشارب عريض يُغطي فمه وكان يرتدي ثيابًا واسعة قصيرة..

أدرك الحكيم في نفسه من خلال تلك الأوصاف أن ذلك الكهل ليس طاغين..

غير أن الحمامة سألتها:

- ماذا عن عينيه؟!.. صفِي لنا عينيه..

قالت وكأنها للتو تذكرت أمرًا ما:

- كانت لديه عينان غريبتان، تبدوان وكأنهما أصغر من عمره بكثير..

سألتها الحمامة وقد تضاعف الشك فيها:

- ماذا كان لونهما؟!

- أزرق..

- ألا يوجد بهما علامة مميزة؟!

- ..

- تذكري يا بَرقاء..

- بلى، كانتا شديدتي النقاء وكأنهما..

أكملت عنها الحمامة: وكأنهما برق لمع في السماء.. أليس كذلك؟!

هتفت: تمامًا هذا ما كنت سأقوله..

قالت الحمامة:

- ليس كُل الجن عند التشكل يستطيعون تغيير محاجر وألوان أعينهم.. لقد كان ذلك الرجل طاغين ولكنه جاء متشكلًا بهيئة كهل..

تسائل الحكيم في نفسه:

"كيف تعرف هذه الحمامة كُل هذه الأشياء؟!"

قالت الحمام توجه تحذيرها لبَرقاء:

- لقد أُصيب الشيذمان بزعافكم، ولو مات فإن تلك القبائل سوف تتخذكم عدوًّا أبديًّا لها.. ولن تنتهي الحرب بينكم إلا مع انتهاء آخر فرد فيها أو انتهاء آخر فرد فيكم..

- أليس هناك حل لمنع هذه الحرب من الاستمرار؟!

- هناك حل واحد وهو ألّا يموت الشيذمان..

- كيف؟!

أجابها الحكيم وهو ينزع القارورة الزجاجية عن ظهره ويُقربها بيديه الصغيرتين إليها:

- بعض قطرات من زُعافك سوف تكون كافية لعلاجه..

وأضاف: هيا انزعي عنكِ ملابسكِ، وأعطينا بعضَ زُعافك..

كان ذهنها شاردًا ومشتتاً؛ لذلك فإنها لم تستوعب دعابته وظنّت أنه جاد فيما يقوله وهمّت بنزع ملابسها عن جسدها..

لكن الحمامة قالت لها بصرامة:

- أبقِي ملابسكِ عليكِ لا حاجة لنا في ذلك..

قال الحكيم ساخطًا:

- تبًّا لكِ أيتها الحمامة لقد صدَّقت الأمر!!.. أبعد كُل هذا التعب والتضحيات لا أستحق مكافأة بسيطة؟!

قربت بَرقاء القارورة الزجاجية من فمها وأفرغت فيها سائلًا ثقيلًا شديد السواد واللزوجة أخرجته من أحد أنيابها الحادة الطويلة.. وأعادت القارورة للحكيم الذي التقطها بيديه الصغيرتين وأغلقها ثم وضعها خلف ظهره بعد أن أوثق خيوط الشعر عليها وهمّ بالمغادرة..

همست بَرقاء تستوقفه: أيها الحكيم..

التفت إليها فقالت:

- عندما ترى أَوس قُل له إني أفتقده بشدة وأتمنى لو أني كنت أستطيع إكمال بقية حياتي معه..

هزّ رأسه متأثرًا ثم امتطى الحمامة وهمَّ بمغادرة الحجرة، ولكنه حين نظر للخلف ليُلقي على بَرقاء نظرة الوداع وجدها وقد عادت لحزنها وذبولها وعُزلتها التي ستبقى عليها إلى أن يرحمها الموت ويهب لها قبلته الأخيرة..

نزل عن ظهر الحمامة، وقف مقابلًا لها وسألها:

- أأستطيع أن أثق بكِ في إيصال الزُّعاف لأصدقائي؟!

- وأنت أين ستذهب؟!

- أريد البقاء لأساعد بَرقاء في تحقيق أُمنيتها..

جاء الصوت الحزين متسائلًا من خلفه: ماذا تقصد؟!

التفت الحكيم إليها وقال:

- أريد أن أساعدك في الهرب من هذا السجن يا بَرقاء وأقوم بإيصالك لأَوس فتُكملي معه بقية حياتك؛ هذا الحُب الذي تملكانه أجمل بكثير من أن ينتهي بهذه الطريقة السخيفة..

- أحقًا ستبقى من أجلي؟!

ورغم أنه كان قبل لحظة واحدة مُتحمسًا للبقاء من أجل مساعدتها إلا أنه سرعان ما تردد وغير رأيه؛ وذلك بعد أن فكر في أنه لا يستطيع الوثوق بالحمامة لإيصال الزُّعاف لأصدقائه فقال:

- ولكني لا أستطيع أن أثق بكِ أيتها الحمامة.. لا أستطيع أن أثق بأحد ألتقيه لأول مرة..

همست الحمامة:

- أنت شديد الطيبة أيها الحكيم لكنك شديد الغباء أيضًا؛ لأنك بعد كُل هذا الوقت لم تعرف من أنا ومن أكون..

وحين ركز الحكيم بصره في عينيها تذكر أنه كان قد رأى تينك العينين العميقتيّن الأشبه لونهما بحقول أشجار زيتون مهجورة وقال بشرود:

- أنتِ.. آآ

- نعم، أنا هي..

وما أن انتهت من قول ذلك حتى حاوطها شيء يُشبه السحابة، وظلت تكبر وتتمدد حتى بدا أنها باتت تحجب مخلوقًا بحجم الإنسان البالغ وليس بحجم حمامة صغيرة..

وحين انقشعت السحابة عنها بعد لحظات ظهرت لهما العرّافة..

نظر إليها وهو لا يُصدق ما يراه فقالت وهي تأخذ منه القارورة:

- لا تقلق سأحرص أن يصل الزُّعافِ للشيذمان في الوقت المُناسب وأن يستفيد منه..

قال لها الحكيم:

- قدمي اعتذاري للأصدقاء وأخبريهم أني لن أتأخر كثيرًا..

- بقاؤك هنا لن يكون مفيدًا لبَرقاء فقط بل سيكون مفيدًا لأصدقائك أيضًا..

- ماذا تعنين؟!

قالت العرّافة:

- بعد أن تساعد بَرقاء في الهرب من هذا البرج، أُريدك أن تعقد اجتماعًا مع الأمير وكُل شيوخ العشائر لتُقنعهم بالانضمام للحلف الذي سنحارب به طاغين..

وأضافت:

- كما أريدك أن تتجه شمالًا وشرقًا لتبحث عن قبائل أخرى تضمها إلينا في الحِلف

قال الحكيم:

- ولكن لا أحد سيأخذني على محمل الجد وأنا بهذا المنظر..

تدخلت بَرقاء:

- سوف أساعدك مثلما ساعدتني

وأردفت توجه كلامها للعرّافة:

- اذهبي أنتِ الآن ودعِي بقية الأمر علينا..

وقبل أن تذهب العرّافة من هناك أخرجت رُقعة جلدية سوداء صغيرة بحجم كف اليد ومدتها نحو بَرقاء وقالت توجه الكلام لها وللحكيم:

- هذه رُقعة جلد ملعونة بإحدى طلاسم الانتقال..

أمسكت بَرقاء رقعة الجلد وقد كانت رائحتها نتنة كرائحة الجيفة، سدت فتحتَّي أنفها وقالت بتقزز وهي تُقلّب رقعة الجلد على وجهها وقفاها:

- ماذا نفعل بها؟!

- سوف تنتظران حتى يظهر لكما فيها كلام مكتوب بالدم..

وأضافت تُحذرهما: تذكرا بالدم وليس بالحبر العادي؛ وذلك لأن الشياطين قد تعبث معكما..

قال الحكيم:

- فإذا ظهر الكلام المكتوب بالدم ماذا نفعل؟!

- اقرأاه معكوسًا بصوت واحد ونفس واحد..

- وماذا سيحدث لنا؟!

- حينها ستعرفان..

قالت ذلك ثم اختفت من مكانها..

٥

البصيرة

وفي لحظة يسيرة انتقلت العرّافة سِربيل لقرية المُستذّئِبين وظهرت في الكوخ الذي كان يوجَد فيه كُل من عاصف والشمالي وطائر العنقاء إكليل..

قالت وهي تُظهر القارورة في يدها:

- لقد جلبتُ الدواء للشيذمان..

تساءل عاصف: ما بال صوت الحكيم أصبح أنثويًا فجأة؟!

همس له الشمالي مصححًا: إنها العرّافة وليس الحكيم..

سألت العرّافة وهي تتقدم نحوه: ما بهما عيناك؟!

أوضح لها الشمالي: لقد أصبح كفيفًا فجأة وكنا ننتظر قدوم الحكيم ليفسر لنا الأمر

أخبرتهم أن الحكيم سيطول غيابه وشرحت لهم الأسباب ثم اقتربت من عاصف وتأملت عن قرب بؤبؤيه والعروق الحمراء الدقيقة في قعر عينيه وتمتمت:

- إنها سليمة..

ـ وما السبب إذًا في أني لا أستطيع الرؤية؟!

ـ ربما يكون الحزن الشديد الذي أصابك لفقدك عائلتك..

ـ ما هذا الهراء؟!.. الحزن لا يفعل هذا!!

ـ بل يفعل أكثر، الحزن يقتل صاحبه أحيانًا..

ـ وما الحل؟!.. كيف أستعيد بصري؟!

ثم قال يُحذرها قبل أن تُجيبه:

ـ لا تقولي توقف عن الحزن أو حاول أن تتناسى ما أنت فيه؛ لأن هذه الأحزان التي أشعر بها لن تنتهي إلا بموتي أو عودة ما ضاع مِنّي..

ـ في حالتك هذه يا ولدي النسيان ليس حلًّا لك، حلّك الوحيد هو الأخذ بالثأر..

- كيف أثأر وأنا بهذه الحالة؟!

- ما بها حالتك؟!

- لقد فقدتُ بصري!!

- المحارب الحقيقي لا يرى ببصره بل من خلال بصيرته..

ثم ولتضع حكمتها تلك موضع التمثيل فإنها وجهت إليه صفعة مباغتة وقد ظنّت أنه سينتبه لها ويتفاداها، ولكنه لم يستشعر قدومها فارتطمت الصفعة بوجهه وآلمته فصرخ محتجًا:

- لماذا صفعتني؟!!!

ازعجها أنه أفسد عليها مغزى حكمتها، وقالت تبرر سبب تلك الضربة:

- ظننت أنك سوف تستشعر قدومها وتتفاداها - ثم أضافت:

- ولكن لا عليك ينقصك بعض التدريب فقط لتتجاوز هذه المشكلة وتعود مقاتلًا قويًّا كما كنت..

حين علم عاصف أن ثمّة أملًا بالتدريب لتعويضه عن بصره المفقود فإنه نسي أمر الصفعة وهتف وهو ينهض واقفًا: "أنا مستعد" ولكنه عندما نهض لم ينتبه لسراج النار الذي كان مُتدليًا فوق رأسه فارتطم به وأسقطه من مكانه فكادت النار تشتعل في أثاث الكوخ لولا أن العرّافة صرخت على النار قائلة:

- انطفئي مكانكِ!!

فانطفأت النار مكانها كما لو أنه لم يكن بوسعها عصيان أمر العرّافة التفتت نحو عاصف وقالت:

- يبدو أنه سيلزمك الكثير من التدريب لتعتاد التحرك في الظلام، ولكن أولًا علينا معالجة الشيذمان..

٦

طقوس الشفاء

في الساحة الكُبرى لقرية المُستذّئِبين حضر العديد من أفراد القبيلة، أشعلوا نارًا هائلة وأخذوا يطوفون حولها يُزغردون ويبتهلون لأرواح القدماء يطلبون منهم الشفاء العاجل للشيذمان..

**

أما في الكوخ الكبير: فقد تناولت العرّافة قدرًا نحاسيًّا وضعت في جوفه زيتًا وأعشابًا نادرة خلطتها مع أوراق شجرة سنديانة معمّرة ثم أشعلت نارًا هادئة تحتها..

بعد لحظات وحين بدأ الخليط داخل القدر بالفوران سكبت العرّافة فوقه ثلاث قطرات من الزُّعاف ثم أخذت تحركه بشكل دائري وتُتمتم بينها وبين نفسها بعضَ تعاويذ الشفاء..

وحين انتهت من اعداد الخليط فإنها أفرغته في آنية فخارية، ومدته لأوس وقالت له:

- اسقِ والدك منه..

قرّب أَوس الآنية الفخارية من شفتَّي والده، ولكن السم كان قد تمكن منه وسيطر عليه بشكل كامل مما جعله يغيب عن الوعي ولايستطيع فتح فمه ودفع الشراب لجوفه..

التفت أَوس للعرّافة:

- ماذا نفعل في هذه الحالة؟!

تدخل الشمالي:

- افتح فمه بيدك وضع الدواء فيه..

أَوس:

- ولكن الدواء يحتاج لقوة دفع كي يصل إلى بطنه..

سحبت العرّافة من يده آنية الفخار وسكبت الدواء بفمها ثم دنت من الشيذمان حتى ألصقت شفتيها بشفتيه وجعلت تدفعه من فمها رويدًا رويدًا لتضمن أن يصل كاملًا لمعدته ويستقر فيها..

وحين انتهت من عملية دفع الدواء وإيصاله لمعدته نظرت للخلف فوجدتهم يتعجبون من صنيع فعلها الجريء ذاك، فقالت دون أن يُخامرها ولو مقدار حبة خردل من حياء:

- في سبيل استعادة العرش ما كنت سأتردد لحظة واحدة في تمرير الدواء له وبالطريقة ذاتها من أي فتحة أخرى..

**

مكث الجميع خارج الكوخ الكبير ينتظرون نتائج الدواء الذي تناوله الشيذمان وبينما هم كذلك إذ لفت نظر الشمالي طقوس الشفاء تلك التي كان أفراد القبيلة يقومون بها فسأل وهو يُمرر يده على الريش الأحمر الناعم لإكليل:

ـ ما الذي يفعله أفراد قبيلتك هناك يا أَوس؟!

ـ إنهم يبتهلون لأرواح الأجداد بأن تشفي الشيذمان..

ـ ولماذا لا يبتهلون للرب؟!

ـ نحن لا نؤمن بوجود الرب إنه أسطورة اخترعها القدماء..

كانت العرّافة تستمع لذلك الحديث دون أدنى اهتمام وكانت عيناها مصوبتيّن نحو باب الكوخ تنتظر الأخبار من الخدم الذين يعكفون في الداخل على رعاية الشيذمان..

أما عاصف فإنه في تلك اللحظات كان مستغرقًا في مصائبه، ولم يكن النقاش بين الشمالي وأَوس حول وجود أو عدم وجود الرب يعنيه في شيء..

سأله الشمالي:

- إن لم يكن هُناك رب فكيف تُفسرون وجود هذا العالم؟!

- إنها الصدفة ولا شيء غيرها..

كان الشمالي في أحد تأملاته القديمة قد طرح على نفسه هذا السؤال:

ماذا لو كانت الصدفة هي سبب الوجود، مالذي يجعلني أُوغل في الاعتقاد بأن الرب هو من أوجد هذا العالم؟!..

يذكر أنه آنذاك استغرق مجهودًا ووقتًا طويلًا في التفكير حتى توصل لابتكار قصة اطلق عليها بينه وبين نفسه اسم:

"القصة الخرافية للعربة المُذهبة"

وقد استطاع بتلك القصة القصيرة أن يُجيب عن تساؤلاته ويقنع عقله بأن العالم متقن الصُنع هذا لا يمكن له أن يوجد بمحض المصادفة..

قال يسرد القصة:

- ذات مرة أردتُ الانتقال من القرية التي كنتُ أُقيم فيها لقرية أخرى بعيدة جدًّا.. ولكن للأسف لم أكن أملك حينذاك وسيلة للسفر ثم فجأة ومن اللاشيء ظهرت عربة مُذهبة في السماء يجرها زوج من الخيول المُجنحة وهبطت أمامي..

أمسك الشمالي عن الكلام قليلًا وكأنه أراد بذلك أن يُثير التساؤلات داخل عقل أَوس قبل أن يُكمل له بقية القصة:

- فتح لي أحدهم باب العربة المُذهبة وقال: اصعد سوف ننقلك للقرية البعيدة التي ترغب بالذهاب إليها.. فصعدت للعربة المُذهبة وهكذا انتقلت لتلك القرية بكل سهولة..

قال أَوس باستهانة:

- أتطلب مني أن أُصدق هذه القصة الخُرافية؟!

- ولم لا تُصدقها؟!.. إن الذي يُصدق أن هذا العالم المُذهل الباهر الجميل قد وُجد بالصدفة لن يكون من الصعب عليه أن يصدق القصة الخُرافية للعربة المُذهبة..

دُهشت العرّافة من ذلك الكلام وبدت وكأنها للتو تنتبه له وقالت في نفسها: هذا الفتى معه حق إن هذا النظام الكوني الرائع الذي نعيش فيه لا ينبغي عليه أن يُوجد من غير صانع متمكن قد ابتكره، وعين لا تنام تحرسه وترعاه كُل لحظة..

قال أَوس مستنكرًا:

- ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بشيء لا تراه؟!

كانت الإجابة حاضرة:

- أترى قلبي يا أَوس؟!

- لا..

- ولكن عقلك يؤمن بأنه ينبض في صدري أليس كذلك؟!

لم يفهم ما علاقة هذا بذاك، فأجاب دون أن ينتبه للفخ المنصوب له:

- آآ بلى، أنا أؤمن بأن قلبك ينبض داخل صدرك..

- كيف آمنت بذلك وأنت لم ترَ قلبي بعينيك؟!..

حشره في زاوية ضيقه فلم يعد يعرف كيف يُجيب، أكمل الشمالي يقول:

- أن عدم رؤيتك للشيء ليس سبب كافيًا لإنكار وجوده، فأنا مثلًا لم يسبق لي أن رأيتك قبل هذه الأيام ومع هذا لو أنّ أحدًا حدثني عنك لما كان بوسعي أن أكذبه بحجة أني لا أستطيع أن أؤمن بشيء لا أراه..

ثم تلفت الشمالي ينظر للأشياء من حوله وقال يدعو أَوس للنظر فيها والتأمل:

- انظر لليل للقمر للشُهب ولتلك النجوم الجميلة والتي تبدو وكأنها عيون تقرأنا أو تنظر إلينا من الأعلى، تحسس التراب الهواء الفضاء من حولك والماء وأسأل نفسك من خلق كُل هذه الأشياء ستدرك أنه الرب الذي في السماء..

صمت أَوس قليلًا قبل أن يتمتم قائلًا:

- لقد هزمتني..

قال الشمالي وهو ما يزال يمرر يده على الريش الأحمر الناعم لطائر العنقاء إكليل:

- إننا لا نتجادل حول فكرة ما لكي يهزم أحدنا الآخر بل لكي نقترب من الحقيقة أكثر.. أنا لا أطلب منك أن تؤمن بشيء؛ فالإيمان لا يُطلب.. ولكن أريدك أن تمنح نفسك فرصة لتتعرف فيها على الرب وتراه بنفسك..

بذهول:

- وكيف أراه؟!

- أنه في قلبك، حدثه أطلب منه ذلك وسيجعلك تراه بطريقته..

في تلك اللحظة قطع حديثهما خروج أحد الخدم من الكوخ الكبير وهو يهتف:

- لقد أفاق سيدي الشيذمان، لقد أفاق سيدي الشيذمان!!

٧

قوة المُلوك العظمى

حين دخلوا الكوخ الكبير وجدوا الشيذمان ممددًا فوق السرير وكان جسده الضخم الأسمر يتصبب عرقًا لذلك أبقاه عاريًا ولم يستر إلا جزاه الأسفل..

كان البياض يكسو شعر رأسه وذقنه والشعر المُفلفل في صدره العريض، ورغم تقدمه بالعمر إلا أنه كان يملك جسدًا مفتول العضلات توشك فيه عروق الدم أن تتفجر لفرط ضخامتها..

وما أن رآهم أمامه حتى اعتدل في جلسته وأحنى رأسه لهم احترامًا وتقديرًا لما فعلوه، ووعدهم بأن تكون قبيلته حليفًا لهم في الحرب القادمة حتى آخر مقاتل فيها وسألهم عن الموعد المحتمل لإقامة الحرب كي يبدأ في تجهيز مقاتليه..

تحدثت العرّافة تشرح له الوضع الراهن:

- أن عاصف ليس مستعدًا بعد لقيادة جيشه، بالإضافة إلى أنه لا يملك العدد الكافي من الحُلفاء لكي يضمن أنه لن يكون لقمة سائغة لطاغين وجيوشه..

وأردفت تستعرض أمام الجميع تحالفتهم الحالية:

- إلى هذه اللحظة لدينا قبائل المُستذّئِبين وقريبًا ستنضم إلينا عشائر الدم وبعض القبائل من الشمـ..

قاطعها الشيذمان منفعلًا:

- مهلًا مهلًا أيتها العرّافة.. أنا لن أُقاتل مع عشائر الدم تحت راية واحدة..

قالت له العرّافة: إن عدونا واحد أيها الشيذمان..

قاطعها للمرة الثانية:

- عدونا ليس واحد.. أنتم عدوكم طاغين وسوف نساعدكم في القضاء عليه، ولكن عشائر الدم أعداؤنا الحقيقيون وأنا لن أُقاتل معهم جنبًا إلى جنب!!

- طاغين هو الذي أغواهم وأقنع العشائر بالهجوم عليكم، وهو الذي كان يتلبس جسد الأمير تليد عندما اخترق دفاعات مقاتليك وهاجمك..

- ما هذا الكلام الفارغ الذي تقولينه، إذا أردتِ أن تغيري رأيي نحوهم فيجدر بكِ أن تفكري بكذبة أفضل من هذه!!

- ويحك أيها الشيذمان، أتكذبني وأنت تعرف جيدًا من أنا؟!!

همس بحياء:

- أنا أعتذر لكِ، ولكني لا أصدق ما تقولينه أيتها العرّافة..

قالت تقنعه:

- كيف تفسر إذًا عدم قدرة مقاتلي قبيلتك على الوقوف أمام الأمير تليد؟!.. لقد تخطاهم جميعًا ووصل إليك بكل سهولة أنت نفسك لم تستطع توجيه ضربة واحدة إليه، هل يملك الأمير تليد كُل هذه القوة؟!!

الشيذمان يعرف مدى قوة الأمير تليد جيدًا صحيح أنه قوي ولكن ليس للحد الذي يجعل منه مقاتلًا يستحيل على أحد مسّه، صمت وقد بدا أنه تردد في تصديق العرّافة أو تكذيبها فسألها ليحسم الأمر:

- وما مصلحته من كُل هذا الأمر، لماذا يُشعل الفتنة بيننا وبين عشائر الدم؟!

- إن الشعوب هي قوة المُلوك العُظمى لا توجد قوة في هذه الدنيا تستطيع الانتصار على ملك يقف شعبه خلفه.. وطاغين يُدرك ذلك جيدًا؛ لذا فإنه حرص على زرع الفتن بين كافة قبائل أبابيل كي يضمن أنها لن تكون هناك لنجدة مليكهم عندما يحتاج إليهم..

وأضافت وهي تضرب بيدها صدر عاصف:

- هذا هو الملك الشرعي لأبابيل هل ستقفون معه أم أنكم ستقعون ضحية المؤامرة التي زرعها لكم طاغين، وتُهدرون كُل قوتكم وطاقتكم في مشاكلكم التافهة؟!!

صمت الشيذمان ولم يعلّق لكنها قرأت في عينيه الموافقة ثم أضافت تُكمل خطتها:

- عاصف سيأتي معي.. سأصعد به لقمة جبل غُراب وسنمكث هُناك ريثما يُنهي تدريبه؛ فبعد أن أصبح كفيفًا بات عليه أن يتدرب على القتال باستخدام حواسه الأخرى..

صمتت للحظات ثم تقدمت نحو الشمالي وقالت وهي تركز نظرها في تقاطيع ملامح وجهه الجميل:

- هناك نوعان من القوة.. واحدة نُولد بها وأخرى نحصل عليها؛ لذلك حتى الإنسان العادي يمكنه أن يُصبح ذا قوة خارقة..

وأضافت وهي تُمسك كتفه:

- أنت قوي جدًا يا ولدي ولكنك أيضًا بحاجة للمزيد من التدريب كي يكون وجودك ذا فائدة كبيرة لعاصف في حربه القادمة؛ لذلك أريد منك أن تتجه لأقصى الجنوب حتى تصل إلى وادٍ اسمه جُرهم.. ابحث هناك عن معلم اسمه "**أركائيل**".. قُل له: "أنا سهم العرّافة سِربيل إليك".. ماذا ستقول له؟!

تمتم الشمالي:

- أنا سهم العرّافة سِربيل إليك..

- عندما تخبره بذلك سيهتم بأمرك إلى أن تصبح أقوى مما أنت عليه، وسوف تصبح لديك قوتك الخاصة أيضًا

أنزلت يدها عن كتفه وأضافت تقول له:

ـ وبعد أن تُنهي تدريباتك عند المعلم أركائيل، أريدك أن تواصل بحثك..

في الجنوب والغرب عن قبائل أخرى تنضم إلينا في حلفنا..

أحنى الشمالي رأسه طائعًا وقال بأدبه المعهود:

ـ سأفعل مثل ما تطلبين..

خاف عاصف على صديقه الشمالي أن يذهب وحده في مغامرة جديدة مليئة بالصعوبات والأخطار، وأراد أن يُعززه بقوة إضافية لتكون له سندًا عند الحاجة..

سار متحسسًا بيديه الأشياء من حوله حتى إذا وصل للمكان الذي يقف عليه أوس، رفع إليه يديه وراح يتلمَّس وجهه بمهارة نحات كما لينقش ملامحه في ظلام ذاكرته فيراه فيها..

أنزل يديه وقال بعد لحظات من الصمت:

- أتصبح صديقنا يا أَوس؟!

في الحقيقة بعد أن رأى أَوس أولئك الأصدقاء وارتباطهم الشديد ببعضهم البعض فإنه قد تولدت بداخله رغبة سرية في أن يكون صديقًا لهم في يوم من الأيام لذلك فإنه قال سعيدًا:

- أنه لشرف لي..

ابتسم عاصف وهو الذي لفرط ما عاش من الأحزان في الأيام الفائتة بات يشعر أنه نسى كيف يبتسم..

قال يُعطيه الأمر الأول:

- إذًا ستذهب أنت وإكليل برفقة الشمالي وسوف تشاركانه التدريب عند المعلم أركائيل، ثم ستذهبان معه بعد ذلك للبحث عن حُلفاء جدد - وأضاف يوصيه وهو ينزل يديه عن وجهه:

- وأريدك أن تحميهما بروحك كما أثق تمامًا بأنهما سيفعلان ذلك الأمر معك..

خرج أَوس من الكوخ منطلقًا وقفز في الهواء قفزة عالية وقبل أن تلامس قدماه الأرض كان قد تحول لذئب كبير، وأطلق عَويًّا عاليًا مَهيبًا أسمع به كُل أفراد القبيلة..

قال الشيذمان الذي كان لا يزال فوق فراشه يُفسر صوت العويّ الصاخب الذي يُطلقه ابنه في الخارج:

- إن أَوس بذلك يقطع لك وعدًا أبديًّا بالولاء يا عاصف..

٨

الرحيل

وقف الجميع أمام الكوخ وكل واحد منهم يستعد للذهاب نحو وجهته الجديدة.. كان الحزن يسكن قلب كُل من عاصف والشمالي وإكليل لأنهم لم يعتادوا منذ وقت طويل أن يغيب بعضهم عن بعض لفترات طويلة كتلك الفترة القادمة عليهم..

التفت الشمالي نحو عاصف وقال كي يُخفف عنه وعن نفسه وطأة الرحيل:

- سوف ننتقم لك ونرد إليك عرشك يا صديقي، وإلى ذلك الوقت انتبه لنفسك جيدًا..
- آسف لكل مرة كنتُ فيها قاسيًا معك، أرجوك اقبل اعتذاري..
- سأقول لك الجملة التي كان والدك وأيوب يقولانها لبعض عند كُل لحظة مثل هذه.. الأصدقاء ليسوا بحاجة للاعتذار

عانقه عاصف وهمس له في أذنه:

- إياك أن تسمح لأي مكروه أن يُصيبك؛ فقد خسرت في هذه الحياة الكثير ممن كنتُ لا أتخيل حياتي بدونهم ولم يعد في قلبي مُتسع لاحتمال خسارة جديدة..

ثم سار متلمسًا طريقه نحو إكليل.. ربّت عليه وعانقه وقال له:

- اعتنِ بنفسك جيدًا، سأفتقدك حتى ألقاك مرة أخرى..

وقبل أن يفترقوا بلحظات جمعتهم العرّافة حولها وأخرجت لهم رُقعة جلدية صغيرة بحجم كف اليد مدتها للشمالي وقالت توجه الكلام له وللفريق الذي سيكون معه:

- رُقعة الجلد هذه ملعونة بإحدى طلاسم الانتقال، سوف تنتظرون حتى يظهر لكم فيها كلام مكتوب بالدم ثم ستقرؤونه معكوسًا بصوت واحد ونفس واحد..

سألها الشمالي:

- وماذا سيحدث لنا بعدها؟!

أخرجت قطعة جلد سوداء أخرى كان مرسوم عليها سِهام تُشير للجهات الأربعة ورموز غير مفهومة بالنسبة لهم وقالت:

- هذه تسمى قطعة الاتجاه وستكون مع عاصف والذي عندما سيرغب في استدعائكم فإنه سيبللها ببعض قطرات من الدم وحينها ستظهر لديكم التعويذة التي ستقرؤونها معكوسة بصوت واحد ونفس واحد، بعدها ستختفون من أماكنكم وتظهرون أمامه بفعل التعويذة..

قال الشمالي وإكليل وأوس في وقت واحد:

- مفهوم..

- جيد - قالت العرّافة - والآن انطلقوا وكونوا حذرين..

الباب السابع



١

كوخ جبل غُراب

صباحًا وفي قمة الجبل حيث الكوخ العتيق الغاطسة أساساته في أكوام الثلج كان عاصف يجلس بالقرب من المدفأة والعرّافة سِربيل تجلس متربعة أمامه:

- ما الذي تشعر به في هذه اللحظة؟!

- يائس أيتها العرّافة.. ممزق محطم وكئيب وكأن أحزان العالم كلها اختارت أن تبني لها أعشاشًا في صدري وتسكنه للأبد..

- ماذا أيضًا؟!

- ..

- تكلم..

- وبماذا سيُفيد الكلام؟!

- سيُخفف حرائقك؛ فالكلام الذي نُخبئه يحرقنا من الداخل..

- لكنه لا يُعيد لنا الذين رحلوا.. أليس كذلك؟!

- ..

ثم قال حين طال صمتها ولم تُجب عليه:

- أيتها العرّافة إنه من الأدب أن نلتزم الصمت، عندما نعلم جيدًا أن الكلام لن يُفيد بشيء..

وأضاف بعد لحظات من الصمت المُتبادل:

- الذين حاولوا أن يُخففوا عنّا وقالوا بأن كُل شيء سيمضي.. لم يقولوا لنا إن هُناك أشياء ستبقى عالقة فينا للأبد، وأشياء لن تمضي قبل أن تقتل بداخلنا كُل الذرائع التي كنا نحيا من أجلها..

وأردف معترفًا:

- أنا لم أطمح يومًا بالملك.. كُل ما كنت أحلم به هو منزل صغير منسي أعيش فيه مع زوجتي وطفلتي، وأستيقظ فيه كُل صباح على رائحة الحليب والخُبز ونقرات المطر وهو يطرق زجاج نافذتي..

ثم تنهد وهو يُضيف:

- ولكن يبدو أن هذه الحياة يلَذُّ لها أن تطحن قُلوب الطيّبين أمثالنا، وتبعثر أحلامهم البسيطة..

قالت العرّافة:

- **في هٰذه الحياة ستواجه الكثير من المعارك اليومية ولكن معركتك الأهم ستكون تلك التي تخوضها مع ذاتك؛ لتُبقي فيها قلبك سليمًا وسط كُل الدمار الذي يحدث من حولك..**

صمتت قليلًا ولكن بدا أن كلامها لم ينتهِ بعد فقالت:

- أحزانك يا ولدي..

- ما بها؟!

- إنها عورتك ويجب عليك أن تسترها ولا تكشفها لأحد..

- حتى لأصدقائي؟!

- نعم؛ فأنت لا تعلم متى يخونك القدر ويقلب أصدقاءك أعداء..

ثم أردفت تقول:

- يجب أن تتعلم كيف تُخفي أحزانك عن الجميع؛ لأن كُل الذين حولك لديهم أحزانهم الخاصة ولا يملكون السعة الكافية لاحتواء حزن لا يُخصهم.. الذين يرونك كُل يوم يا ولدي يجب ألّا يعرفوا شيئًا عن حقيقتك يجب ألّا يروا وجهك كيف يكون حين تسقط عنه كُل الأقنعة وتنكشف ملامحه الحقيقية..

كان كلامها يتغلغل لأعماق نفسه فكان يُنصت لها باهتمام وكأنه يخضع لجلسة علاجية:

- ولا تتقاسم جروحك مع أحد ولا تُخبر الآخرين عن ما يؤذيك ولا تكشف لهم عن نقاط ضعفك؛ لأنهم وإن ربتوا عليها اليوم إلا أنهم سيضربونك عليها غدًا..

وقالت توصيه:

- وابتسم.. دائمًا ابتسم..

- كيف وأنا أحمل كُل هذا الحزن؟!

قالت قبل أن تغادر الكوخ وتُبقيه وحيدًا غارقًا في تأملاته:

- **حُزنك لن يغير الماضي ابتسامتك أيضًا لن تُغير الماضي، لكنها على أقل تقدير قد تجعل يومك أفضل..**

بقى عاصف وحيدًا ذلك الصباح يفكر في كلامها ووجده منطقيًا للغاية فالاستسلام للحزن والاكتئاب لن يغير شيئًا في الماضي.. الابتسامة أيضًا لن تغير شيئًا فيه لكنها قد تجعل اللحظة الراهنة أفضل..

في المساء عادت العرّافة للكوخ وكانت تُمسك بيدها لحمًا طازجًا يقطر منه الدم.. غسلته أولًا بالماء والملح ثم وضعته في قدر نحاسية وقطعت عليه بعضَ الخضار..

وبينما كانت تُعد له الحساء قالت:

- ما زالت أمامك فرصة للانتصار.. ولكنك لن تبلغها وأنت خائف هكذا؛ إن الخوف يا ولدي هو السلاح الذي نُهديه لأعدائنا فيهزموننا به..

كوّنت في يدها شعلة نار صغيرة أوقدت بها الأحطاب تحت القدر النحاسية ثم قالت:

- إننا نُولد والخوف يسكننا.. جميعنا نخاف ولا عيب في ذلك.. نخاف على أنفسنا وعلى من نحب.. نخاف ألّا نحقق أهدافنا وأحلامنا.. ولكن العيب يا ولدي كُل العيب هو عندما نسمح للخوف بتقييدنا وفرض كلمته علينا..

**

حين انتهت من إعداد الحساء وضعته في طبق من الفخار، ثم قرّبت الطبق من يده لتساعده في التقاطه:

- خذ، تناول بعض الطعام..

أبعد الطبق من أمامه وتمتم:

- لا أريد..

قالت بسخرية:

- يجب أن تتناول بعض الطعام فنحن لا نريد أن يكتب عنك التاريخ أنك نجوت من طاغين وجنوده، ثم متَّ مقتولًا من الجوع في الأخير..

حفزته كلماتها تلك بأن يُصارحها فيما يدور داخل نفسه:

- أيتها العرّافة.. أتعتقدين أن.. أقصد آآ

قرأت ما كان يفكر به فسألت:

- تقصد زوجتك وابنتك؟!

وهو يهزُّ رأسه ويسألها:

- أتعتقدين أنهما على قيد الحياة؟!

- ..

- ما بكِ لا تُجيبين؟!

- هناك أشياء حتى نحن العرّافات لا نستطيع معرفتها يا ولدي..

تنهد بعمق يشي بمدى اتساع خيبته..

سألته:

- ولكن أخبرني ماذا يقول عقلك بهذا الشأن؟!

- يقول بأنهما ماتتا في الحريق..

- وقلبك؟!.. ماذا يقول قلبك؟!

أضاء وجهه كبرق وهو يُجيب:

- يقول أنهما ما زالتا على قيد الحياة..

قالت:

- عندما تشعر بعدم اليقين، ثق بما يقوله لك قلبك..

حين سمعها تقول ذلك أمسك طبق الطعام وأخذ يتناول ما بداخله بنفس مفتوحة للأكل، وكأن كلماتها تلك قد نجحت في فتح شهيته لآخرها..

وأثناء ما كان منشغلًا هو بتناول الحساء، كانت العرّافة تتأمله بحب شديد وكأن منظره يُذكرها بشخص عزيز عليها..

**

حين انتهى من تناول حسائه نهضت العرّافة من أمامه وسكبت له في الكوب بعضَ نبيذ العنب المعتّق ثم قرّبته من يده وقالت:

– خذ، هذا سيجعلك دافئًا..

أفرغ ما بداخل الكوب في بطنه دفعة واحدة، ثم مسح بيده بقايا الشراب من حول فمه.. وبعد لحظات كان ذلك المشروب قد ساعده في تدفئة جسده وتهدئة أعصابه:

– تعال – قالت وهي تُمسكه من يده:

– دعني أساعدك في الذهاب لفراشك..

**

ساعدته في التمدد فوق فراشه ثم غطته باللحاف:

– نم جيدًا فغدًا سوف نبدأ أول أيام تدريباتك..

أثارت صيغة الجمع التي استخدمتها فضوله فسألها:

– نبدأ؟

قالت توضح له:

- لقد أصر الشيذمان أن يُشاركني تدريبك، ربما ينضم إلينا غدًا أو في الأيام القادمة – وأضافت قبل أن تستدير وتنهض:

- أحلامًا سعيدة..

ولكنه أمسكها من يدها وقال لها قبل أن تبتعد:

- أنا أعرف أن طاغين استطاع في الماضي البعيد أن يخدع جدي جبّار ويأخذ منه العرش ولكني إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف استطاع أن يفعلها وحده..

- لم يكن وحده..

- من كان معه؟!

- إنها قصة طويلة يا ولدي وغدًا لدينا تدريبات مطولة..

- أخبريني – وأضاف: كيف استطاع طاغين أن يهزم الأباطرة كُلهم في ذلك الوقت وأن يستولي على عرشهم؟!

- بالحب – قالت – لقد هزمهم بالحب..

- كيف؟!

بدا أنها لم تكن تريد الخوض في تلك الذكريات المؤلمة، لكنه همس لها بنبرة صوت أقرب للتوسل:

- أرجوكِ..

**

جلست العرّافة إلى جانبه متربعة وقالت:

- لقد بدأت الحكاية عندما أصدر جدك جبّار يومًا حكمًا بإعدام مِعراج..

- ومن يكون مِعراج هذا؟!

- إنه والد طاغين..

- ولماذا حكم عليه جدي بالإعدام؟!

- لأنه أسس عُصبة من اللصوص تقوم بسرقة التجار..

حدس عاصف من كلامها أن الانعطاف الحقيقي في القصة يبدأ من حدث الإعدام فسألها:

- وهل مرَّ الإعدام بخير؟!

- لا.. فعندما شاهدت عاصية رأس زوجها يتدحرج أمامها ثار غضبها وقاتلت الجنود بكل قوتها، لم يحتمل آنذاك ابنها ذو الأعوام الثمانية رؤية كُل أولئك الجنود يقاتلون أمه وحدها ودخل أرض المعركة ليُساندها فوجَّه إليه أحد الجنود ضربة قاضية..

- هل كان قويًا وهو بذلك العمر للحد الذي يستدعي أحد الجنود لتوجيه ضربة قوية إليه؟!

- لم يكن قويًّا ولكنه كان مثل الذبابة التي تُزعج وجهك لفترة طويلة فتريد أن تسحقها بضربة قوية واحدة من أجل التنفيس عن غضبك ولكي تتأكد أيضًا من أنها لن تنهض بعد تلك الضربة لتزعجك مجددًا..

- وهل نجى من تلك الضربة؟!

- لم تصل إليه؛ لقد تلقتها والدته بدلًا عنه فماتت لحظتها..

- وماذا حدث بعد موت والديه؟!

- غادر القرية مع أخته تاج وعاش معها حياة التشرد، يأكلان من القمائم ويقضيان حاجتهما في العراء وينامان حيث يُفاجئهما النوم وأصبحا مهمشيّن كحشرتيّن حقيرتيّن لا أحد يكترث لوجودهما..

ثم أضافت بنبرة ذات مغزى:

- بينما في الحقيقة يا ولدي لم يكونا مهمشيّن للحظة واحدة؛ فقد كان هُناك شخص ما يُراقبهما صباح مساء ولا يسمح لهما أن يغيبا عن ناظريه لحظة واحدة..

- من هو ذلك الشخص الذي كان يُراقبهما صباح مساء ولا يسمح لهما أن يغيبا عن ناظريه لحظة واحدة؟!!

٢

مملكة النور

- في تلك الحِقبة الزمنية يا ولدي كانت أبابيل تُعاني بعض التحديات الخارجية فقد أصبحت بفضل سياسةِ جدك جبّار مملكة قوية قادرة أن تحمي حدودها بنفسها وتفرض سيطرتها على بقية الممالك المجاورة الأمر الذي أزعج إحدى ممالك العالم العُظمى "**مملكة النور**" مما جعلهم يسعون لمحاولة تفكيك أبابيل وتخفيض قوتها العسكرية؛ لتعود مملكة هشَّة ضعيفة بإمكانهم السيطرة عليها والاستفادة من أموالها ومواردها..

- وماذا فعلوا لتحقيق ذلك؟!

- أرسلوا مجموعة من الجواسيس لتحسس أحوال الشعب والبحث عن ثغرة يستطيعون من خلالها تحقيق مخططاتهم.. واستطاع أحد الجواسيس الذين شهدوا إعدام مِعراج ومقتل زوجته عاصية في ذلك اليوم أن يرصد غضب الطفليّن طاغين وأخته تاج.. ثم ومن خلال التجسس عليهما صباح مساء ومراقبة سلوكهما لحظة بلحظة عرف الجاسوس أنهما مناسبان للخطة، فألقَى عليهما القبض ذات يوم من غير أن يراه أحد ووضعهما في شواليّن متينين وسافر بهما للبعيد..

حين أفاق طاغين في اليوم التالي وجد نفسه في حُجرة واسعة وأمامه يقف جني ضخم الجثة؛ فاستنتج أن ذلك الجني هو نفسه من هاجمه وأخته ليلة البارحة..

هجم طاغين عليه ليوسعه ضربًا غير مكترث لفرق الحجم الهائل بينهما.. غير أنه لم يستطع تجاوز مسافة المترين حتى سقط مكانه؛ لينتبه إلى أن ساقه كانت مُكبلة بسلسلة حديدية تشده للحائط:

- هدئ من روعك يا فتى - قال ذلك الجني - فليس ثمّة ما يدعو المخوف أو القلق..

- لماذا اختطفتنا - صرخ عليه - وأين أختي؟!!

أومأ له الجني برأسه مشيرًا لإحدى زوايا الحُجرة فنظر طاغين للجهة المُشار إليها ووجد أخته تاج وقد كانت فاقدة الوعي وساقها مُكبلة أيضًا بسلسلة حديدية، فصرخ باتجاهها:

- تاج - ثم بصوت أعلى وأكثر خشونة: **تاااج!!**

أفاقت تاج على الصراخ فزعة:

- ماذا هناك؟!! - وحين استوعبت ما حولها سألت: أين نحن؟!

- هل أنتِ بخير؟!

هزّت رأسها بإشارة "نعم" وتمتمت وهي تحتضن نفسها، وتستطلع المكان حولها:

- ما هذا المكان الغريب.. أنا خائفة.. خائفة جدًا يا أخي..

أجابها طاغين "انظري إلي.. تاج انظري إلي" نظرت إليه كما طلب منها، فقال لها يُطمئنها: "لن يحدث لكِ مكروه، اطمئني أنا معك".. فهزت رأسها واغتصبت ابتسامة على وجهها كما لتخبره أنها تثق به..

التفت طاغين نحو الجني الذي أمامه وسأله:

- أين نحن؟! وما الذي تريدونه منّا؟!

قال له الجني:

- اسمي **كوكب**، وأنا هُنا لأشرف على تدريبك..

كان ذلك الجني يتحدث اللغة ذاتها التي يتحدث بها طاغين وأخته، ولكنه ينطق بعض الكلمات بطريقة مغايرة بعض الشيء الأمر الذي دفع طاغين ليستنتج أنهم ليسوا في أبابيل:

- أين نحن؟!!

- نحن في مملكة النور..

ولأنه لم يسبق من قبل أن سمع اسم تلك المملكة؛ فإنه أدرك بأنها بعيدة عن موطنه الأصلي:

- ومن أجل ماذا ستشرفون على تدريبي؟!

قال له كوكب:

- لتقتل جبّار، ثم تحكم شعب أبابيل بنفسك..

تساءل طاغين بدهشة:

- كيف؟!!

- لدينا خطة ولكن قبل أن نبدأ في تنفيذها علينا أن نتأكد من جاهزيتك لها؛ ولهذا السبب سوف أشرف على تدريبك..

- وأختي تاج ماذا عنها؟!

- سوف تقوم شيطانة بتدريبها؛ لتساعدك في مُهمتك..

- تدريبها على ماذا؟!

- على فنون الجنس والحُب والإغواء..

كان طاغين أصغر سنًّا من أن يعي ويفهم بشكل كافٍ ودقيق معاني تلك الكلمات الثلاث، ولكنه كان مستعدًّا لفعل أي شيء من أجل أن يُحقق ثأره فوافق..

**

وغاب عن أخته مدة تسع سنوات أخضعوه فيها لجدول تدريباتٍ قاسٍ لا يعرف الرحمة حتى أصبح مُقاتلًا قويًّا للغاية وعالمًا في أمور الحرب والمكيدة والسياسة..

وحين أنهى كُل تدريباته أخيرًا وأصبح جاهزًا للمهمة أخذه مدربه كوكب ليعرضه على "**قِنديل**" ملك مملكة النور العُظمى..

كان بلاط الملك حينها مقتصرًا على عدد مختصر جدًّا من حاشيته؛ بسبب سريّة الأمر الذي سيقدمون عليه.. وقف طاغين عند أعتاب العرش وقد كانت أخته تاج تقف قريبًا منه ولكنه لم يلتفت إليها كما لو أن وجودها من عدمه لم يكن يعنيه في شيء..

كان يُفترض عليه أن يؤدي للملك نصف انحناءة على الأقل، وأن يُخاطبه بألقاب لائقة مثل "سيدي، جلالتك، مولاي" إلا أنه كبرياءه منعه من الاعتراف بسيادة أحد عليه وأكتفى بأن قال:

- طاغين بين يديك..

التفت الملك نحو وزيره وقال: أريد أن أختبر قوته البدنية..

أدلى الوزير باقتراح خبيث: أرى أن يتقاتل مع مدربه كوكب جلالتك، فإن قتله أثبت لنا أنه قوي وإلا استبعدناه ورأينا غيره..

التفت الملك نحو طاغين وسأله: ما رأيك؟!

صحيح أن الأعوام التسعة التي قضاها بصحبة مدربه قد خلقت بداخله نوعًا من التقدير والاحترام له، ولكن إن كان هذا هو الاختبار الذي سيحدد جاهزيته للمهمة من عدمها فإنه سيخوضه بكل قوته:

- سأفعل ما تأمر به..

واشتبك الاثنان في معركة عنيفة اهتزت لها جدران القاعة وكان الملك قِنديل ووزيره يراقبان القتال بلَذّة ومتعة، بينما تاج تراقب القتال بالخوف ذاته الذي كانته قبل أعوام تُراقب فيه أمها وهي تقاتل الجُنود في ساحة الإعدام..

**

توقفت العرّافة عن سرد الحكاية وسألت عاصف:

- من تتوقع أن ينتصر في معركة مثل هذه؟!

أجابها قائلًا:

ـ كوكب؛ فهو يُدرك جميع نقاط ضعف خصمه..

ـ لقد كان كوكب فعلًا يُدرك جميع نقاط ضعف خصمه إلا أن ذلك لم يعفه من أن ينال هزيمة ساحقة في نهاية المعركة..

ـ كيف حدث هذا؟!

ـ بقوة المُخيلة؛ فقد كان طاغين في خياله قد نزع رأس كوكب ووضع بدلًا عنه رأس جبّار.. لقد كان يقاتل مدربه ولكنه يتخيل أنه يقاتل عدوه اللدود لذلك كان من الصعب أن يُهزم..

ـ وماذا حدث بعد انتهاء المعركة؟!

**

بعد انتهاء المعركة عاد طاغين ليقف على أعتاب العرش ويؤدي نصف انحناءة للملك قِنديل ويقول:

- أنا جاهز للمهمة..

لقد نجح في اختباره البدني وأثبت أنه قوي فعلًا، لكن الملك قِنديل كان بحاجة ليختبر فيه قوته النفسية أيضًا فقال:

- أنت تعلم أن أختك تاج قد تعلمت طوال السنوات الماضية فنون الحُب والجنس والإغواء.. هل تُمانع يا طاغين أن أختبرها في حُجرة نومي؟!

التفتت تاج نحو أخيها وقد كانت واثقة أنه لن يوافق؛ إنه أخوها الذي يُحبها ويحميها بروحه إن تطلب الأمر أليس هو الذي مسح عن عينيها الدموع وقال لها عندما كانت تبكي لوفاة والدتها ووالدها: "منذ هذه اللحظة، أنا أبوك وأنا أمك وأنا كُل عائلتكِ الكبيرة"..

قطع طاغين عليها حبال أفكارها بأن قال للملك:

- أيها الملك كم يبلغ عدد جنود جيشك؟!

- عددهم لا يُحصى كذرات الرمال ولكن لماذا تسأل؟!

- لأني أريد أن أخبرك بأنه من أجل تحقيق الثأر، فأنا لا أمانع أن تجعل كُل جنود جيشك يختبرونها بعدك في حجرات نومهم..

**

لقد تصدع قلب تاج لشدة الخوف بعد ما سمعت تلك الإجابة وتأكدت حينها من أنها فقدت أخاها مثلما فقدت في وقت سابق أمها وأباها، وشعرت لحظتذاك أنها تقف أمام شخص غريب لا تعرفه..

ابتسم ملك مملكة النور حين سمع الإجابة وعرف أن طاغين أصبح مستعدًّا بدنيًّا ونفسيًّا لتنفيذ المهمة، فقال وهو يلتفت لوزيره:

- ابدأ تنفيذ الخطة..

في اليوم التالي بدأ الوزير بتنفيذ المؤامرة التي كانت حكومة مملكة النور قد خططت لها قديمًا لإسقاط أبابيل حيث قام بكتابة رسالة طويلة للملك جبّار يحثه فيها على عقد حِلف بين المملكتين

وكان هذا مُختصر ما جاء في الرسالة:

"من قِنديل ملك مملكة النور..

إلى جبّـار ملك مملكة أبابيل أما بعد،

فقد وقع بيننا الكثير من سوء التفاهم في الأعوام الطويلة السالفة، وقد آن الأوان أيها العزيز لنطوي العهد القديم ونبدأ عهدًا جديدًا؛ لذلك أدعوك لقبول هذا الحلف المتين بين المملكتيّن، وهذه الهدايا التي يحملها إليك رسولنا"

**

بعد أيام وما أن وقعت الرسالة بين يدي جبّار وقرأها حتى شعر بالكثير من الزهو والفرح؛ لأنه كملك كان كُل ما يطمح إليه هو أن يُحصن مملكته ويجعل منها بلادًا قوية آمنة قادرة على الوقوف أمام تحديات الزمان..

قالت امرأة من الجن كانت حاضرة في قاعة المُلك:

- قلبي ليس مطمئنًا لهذا الأمر..

كان جبّار سيصرخ عليها لولا أنه حين التفت إلى المتكلمة وجدها العرّافة سِربيل فقال لها بتأدب:

- بهذا الحِلف ستُصبح مملكتنا أكثر قوة من ذي قبل وأشد حصانة..

قالت تحثه على التفكر:

- لماذا بعد ثلاثين عامًا من العداء والقطيعة أصبح الملك قِنديل فجأة يريد عقد حلفٍ معنا؟!

- لأن مملكتنا اليوم ليست كما كانته قبل ثلاثين عامًا، والملك قِنديل يعرف هذا الأمر جيدًا؛ لذلك أرسل لنا اليوم طالبًا عقد حِلف معنا..

وأضاف جبّار وهو يطوي في يديه الرسالة:

- كما أننا لن نخسر شيئًا بعقد الحلف معه فنحن لن نفتح لجنوده أراضينا، كُل ما في الأمر أننا سوف نكون في صفه حين تتعرض بلاده للحرب وسوف يكون هو في صفنا عندما نتعرض نحن للموقف نفسه..

ثم نهض وقتها من فوق عرشه ليستطلع عن قرب الهدايا التي حملها إليه الرسول.. كانت الهدايا تتضمن الكثير من صناديق الذهب والمجوهرات النادرة والثمينة، بالإضافة لخمسة عشر عبدًا قويًّا كان طاغين واحدًا منهم وثلاث جوارٍ حسناوات وكانت تاج واحدة منهن..

وهكذا ودون أن يشعر أحد من عائلة الأباطرة استطاعت مملكة النور أن تخترق الحصون المنيعة لأبابيل، وأن تزرع جواسيسها الأشد خطورة داخل القصر..

**

في تلك الليلة وبعد انقضاء مجلس الحُكم طلب جبّار من خادمه الخصيّ "أمرد" أن يُحضر له واحدة من الجواري الثلاث اللائي جئنَ مع هدايا مملكة النور..

حين وقف أمرد أمام الجواري الثلاث لم يعرف أيهن يختار فقالت جاريتان منهن - وضمن خطة مسبقة - إنهن لا يستطعن الليلة لقاء الملك لأسباب يخجلن من البوح بها، فقالت الجارية الثالثة "تاج":

- أنا مستعدة لمقابلته..

- اتبعيني، سأقودك لجلالته..

**

كان جبّار حينها جالسًا فوق كنبة مواربة للسرير.. عندما دخل الخادم أمرد تتبعه الجارية الجديدة.. وهمس لها يوصيها قبل أن يتراجع من الجناح وينسحب تاركًا لها ولسيده المجال:

- افعلي مثلما أفهمتكِ أيتها الجارية، وإياك أن تقولي كلمة "لا".. لأي أمر يطلبه منكِ سيدنا!!

تقدمت تاج في الجناح الملكي الواسع وبدلًا من أن تصعد فوق السرير وتنزع عنها فستان الحرير الطويل الذي كانت ترتديه كما تفعل الجواري الباقيات عندما يتم استدعاؤهن فإنها تقدمت أكثر وجلست مباشرة أمام جبّار..

تعجب جبّار من جرأة تلك الجارية وفكر أن يستدعي أمرد ليأخذها عنه ويُحضر له واحدة أخرى بدلًا عنها، إلا أنه سألها ليتأكد فلربما اختلط عليها الأمر:

- أتعرفين لم أنتِ هُنا أيتها الجارية؟!

هزّت رأسها تؤكد له أنها تعرف سبب استدعائها فطالعها قليلًا من تحت حاجبيه الكثيفيّن وفكر في أنها قد لا تملك ما يكفي من الخبرة لتفعل ما هو مطلوب منها:

- ألم يُفهمكِ أمرد ماذا عليكِ أن تصنعي عندما تدخلين الجناح؟!

- بلى قد أفهمني..

- لماذا أراكِ تجلسين أمامي إذًا بدلًا من - وأشار بعينيه للسرير..

مدت يدها بحركة غير متوقعة ومسّت بها وجهه..

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُعامل فيها أحدهم جبّار بتلك الجرأة، وقد قرر أن يستدعي الخادم ويطلب منه إعادة هذه الفتاة المجنونة من حيث أحضرها ولكنها قالت شيئًا أثار فضوله:

- لقد سمعت عنك الكثير وأنا في قصر قِنديل، وأردت أن ألمسك لأتأكد مما إذا كنت حقيقيًا أو أنك مجرد أسطورة تتناقلها الألسن..

لم تكن كلمات المديح تلك ما أثار فضوله بل الطريقة التي نطقت بها اسم قِنديل؛ إذ إنه كان ينبغي عليها أن تقول "الملك قِنديل" لا أن تناديه باسمه مجردًا من الألقاب:

- ما لي أراكِ نزعتِ عن قِنديل صفة المُلك؟!

- لأنه لا ينبغي أن يُقال عن أحد في هذا العالم بأنه ملك غيرك..

ورغم أن وجهه كان لا يزال عابسًا ومقطبًا إلا أن شيئًا في نفسه ابتسم لذلك الإطراء.. وتنازل قليلًا عن فكرة استدعاء الخادم أمرد؛ فقد بدأ يستلطف حديثها وفصاحة لسانها:

- ما اسمكِ؟!

نهضت من مكانها ورفعت فستانها الحريري الطويل بطرفيْ يديها وكأنها كانت تستعد للقفز من فوق بقعة أرض مبللة، ثم أحنت رأسها باحترام مبالغ به وقالت بشقاوة مُحببة:

- أنا الأميرة تاج جلالتك..

ضحك طويلًا من تلك الإجابة ثم سألها وهو يُغالب ضحكاته:

- كيف تقولين عن نفسك إنكِ أميرة وأنتِ لستِ إلا جارية؟!

أجابت بذكاء:

- لأنه في حضرتك، حتى الجارية الذليلة تغدو أميرة عظيمة..

**

في تلك الليلة استمتع جبّار كثيرًا بالسهر معها.. ربما لم يُمارس معها الجنس لكن وهو الذي - لم تكن الثرثرة من عاداته - إلا أنه ضحك تلك الليلة حتى آلمه بطنه، وأفرط في الكلام حتى جف حلقه وتمنى في قلبه أن تتأخر شمس الصباح عن الشروق فلا يكون مضطرًا لقطع خلوته والذهاب لمجلس الحكم..

وفي الليالي والأسابيع التالية ما عادت الجواري الأخريات يستطعن إشباع رغباته مثلما كانت تفعل تاج؛ فقد رفعت لديه سقف الكفاية حتى أصبحت بقية النساء الأخريات أقزامًا في نظره..

ومع الوقت استطاعت تلك الفتاة الشابة أن تسكن قلبه وتصرفه شيئًا فشيئًا عن شؤون القضاء والحكم والسياسة إلى شؤون الحُب والعشق والهُيام..

وهذا ما أزعج العرّافة وقتها ودفعها لتواجهه بمخاوفها:

- إنك تُسرف في الاهتمام بهذه الجارية، وتنسى واجباتك كملك.

- لقد انغمست طيلة الأعوام الطويلة الماضية في مهام المُلك للحد الذي نسيت فيه معه أنني كائن حي، وهذه الفتاة قادرة بمجرد ابتسامة بسيطة أن تذكرني بأنني لا أزال حيًّا..

تضاعف خوف العرّافة آنذاك حين سمعت تلك الإجابة؛ فكيف تمكنت فتاة صغيرة لم يتجاوز عمرها العشرين عامًا أن تستحوذ على قلب كبير الأباطرة بتلك الطريقة إلا أن تكون فتاة مدرَّبة فقالت:

- يجب أن تطرد هذه الجارية من القصر يا جبّار، وتطرد الجاريتيّن والعبيد الخمسة عشر الذين جاؤوا معها من مملكة النور..

لقد كان ذكيًا للغاية ولكن عندما يدخل الحُب من باب القلب فإن العقل يهرب من نافذة العقل:

- أنتِ تُبالغين في ردة فعلك..

- فكر جيدًا بالأمر إنها ليست جارية عادية، إنها ..

أسكتها بحركة من يده، وقال لها:

- لقد أخبرتني فيما مضى أنكِ تودين مغادرة القصر والانعزال وحدكِ في قمة جبل غُراب، ولكني حينها رفضت ذلك الأمر وطلبتُ منكِ البقاء معنا..

كانت تعرف ما يود قوله فطالعته بنظرات كُلها عتب علّه يستحي فلا يُتمم جملته، إلا أنه أكمل قائلًا دون أن يكترث لها أو بالعلاقة الوطيدة التي كانت تجمعه بها:

- أنتِ حرة في الانصراف إذا أردتِ..

كُل المشاعر يُمكن تعويضها إلا الكبرياء هذا ما كانت تُدركه العرّافة جيدًا لذلك فإنه لم يكن بوسعها البقاء لحظة واحدة بعد أن سمعت تلك الكلمات؛ واختفت من مكانها فورًا ولم يعد أحد يراها في القصر بعد ذلك اليوم..

**

لاحقًا قرر جبّار من تلقاء نفسه الاستغناء عن جميع جواريه وأن يكتفي بتاج وحدها كفتاة تُغنيه عن النساء جميعًا، كما قرر أيضًا أن يُحررها من كونها جارية عبدة مملوكة إلى فتاة حُرة كاملة التصرف في كُل ما يخص شؤون حياتها وقدم لها العرض التالي:

- أريدكِ أن تكوني زوجتي، وملكة لأبابيل..

في الحقيقة عندما سمعت تاج ذلك الطلب دق قلبها منتشيًا وعبّرت عن سعادتها بصدق دون الحاجة للتمثيل أو تزييف مشاعرها هذه المرة؛ فقد وجدت في ذلك الرجل الشيء الذي ظلّت طوال عمرها تبحث عنه أنه "**الأمان**" لذلك فإنها كانت مستعدة لأن تمحو أحقاد ماضيها من قلبها وتبدأ معه صفحة جديدة:

- ماذا قلتِ يا تاج، هل تقبلين بي زوجًا لكِ؟!

أخرجها سؤاله ذاك عن الأفكار التي تدور في عقلها وكادت أن توافق مباشرة إلا أنها تذكرت كمّ المصائب التي قد يفعلها طاغين بها لو أنها انسحبت؛ لذلك قررت أن تُكمل الخطة:

- آسفة لا أستطيع أن أكون زوجة لك..

- لماذا؟!.. ما الذي يمنعكِ؟!

- إنه نذرٌ قديم نذرته على نفسي، ولن أتزوج قبل أن أُحققه..

- وما هو هذا النذر قد أستطيع تحقيقه لكِ..

كانت مترددة للغاية؛ إنها لا تريد أن تصمت فتؤذيه وفي الوقت ذاته تعلم أنها لو تكلمت فإنها قد تؤذي نفسها بخسارته، هي التي عاشت طيلة حياتها مُطاردة لم يكن بوسعها أن تُغامر بملاذها الوحيد..

مدت يدها الصغيرة الناعمة ووضعتها فوق يده الكبيرة القاسية وكأنها بذلك الفعل تعتذر له مقدمًا عن خداعها، لم يفهم جبّار سر تلك الحركة بالشكل الصحيح فقال لها:

- قولي ما هو النذر الذي عليكِ وسأبذل كُل جهدي لأحققه..

- لقد نذرتُ ألّا أتزوج قبل أن يُعتق أخي من كونه عبدًا مملوكًا ويصبح حُرًّا..

- أخبريني أين هو وسأحرك الجيوش إن تطلب الأمر لأُحرره..

- ليس عليك أن تحرك جيوشك، إنه هُنا في القصر..

- ماذا تقصدين؟!

قالت تشرح له:

- أتذكر الخمسة عشر عبدًا الذين جلبهم لك رسول مملكة النور كهدية أثناء عقد الحلف معهم؟!..

هز رأسه وهو يتمتم: نعم أذكر، ما بهم؟!..

- أخي واحدٌ منهم..

- ولماذا لم تخبريني قبل هذه المرة فأحرره؟!

- خشيت أن أخبرك فتعتقد أني أستغل مكانتي لديك بشيء لا يحق لي أن أطلبه منك..

لقد كانت كُل الإشارات تقوده للشك غير أنه كان يختار بمحض إرادته عدم الانتباه لها..

هزّ رأسه متفهمًا وسألها: ما اسمه؟!

وهي تبتلع ريقها خوفًا: طط، طاغين..

- أليس هذا هو العبد ذاته الذي طلبتْ الوزيرة خيزران أن يكون ضمن عبيدها؟!

- نعم.. أنه.. هو..

قال كي يُخفف عنها الحزن ويمنحها الثقة بنفسها:

- لن أكتفي فقط بأن أُحرره من عبوديته يا تاج بل سأقربه من مجلس الحُكم فيصبح من خاصتي ومن أكثر المقربين لي..

كادت حينها تُحذره من مغبة فعل ذلك ولكنها انتبهت في اللحظة الأخيرة إلى أنها بذلك التحذير ربما قد تُثير فيه الشكوك والتساؤلات فالتزمت الصمت وعقدت العزم في قلبها أن تذهب لأخيها الليلة التالية وتطلب منه إلغاء الخطة..

**

في الليلة التالية وحين تأكدت أن جبّار لن يزورها في جناحها لأن لديه بعض المهام التي يجب عليه القيام بها، فإنها تسللت خِلسة لجناح أخيها دون أن يشعر بها أحد..

كان طاغين حينها يجلس في حُجرته وحيدًا ساهم الفكر يُرسل بصره من خلال النافذة للسماء السوداء عندما فتح أحدهم عليه باب الحُجرة ودخل..

عرفها من خلال صوت خطوات أقدامها فسأل دون أن يلتفت:

- ما الذي جاء بكِ؟!

لم تكن تعرف كيف تفتتح الكلام معه لذلك فإنها جلست بينه وبين النافذة ثم قالت مداعبة:

- خادمات القصر يتهامسن، يقلن بأنك واقع في حُب فتاة..

لم يعلِّق وكأنه لم يسمع ما قالته، فسألته بلطف:

- من تكون تلك الفتاة التي تُحبها يا تُرى؟!

في الحقيقة نعم.. لقد كان طاغين واقعًا في حُب إحدى فتيات القصر لكنه لسبب ما كان يُحافظ على علاقته بها سريَّة..

لذلك فإنه قال ليغير الموضوع:

- لا أظن أنكِ جئتِ في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل كي تنقلي لي أحاديث خدم القصر - وأضاف بجدية وهو ينظر إليها:

- لماذا جئتِ يا تاج؟!

قالت بصوت جاد رقيق النبرة:

- بعد ثلاث ليالٍ سأتزوج من جبّار..

- جيد، إننا نسير وفق الخطة..

- وهذا بالتحديد ما جئت أحادثك بشأنه..

تحولت النظرة الباردة في عينيه إلى نظرة اهتمام:

- تكلمي..

- أريد الانسحاب من الخطة..

حوّل بصره عنها وعاد ينظر للسماء من خلال النافذة وقال بهدوء يشي بعدم اكتراثه:

- لا بأس؛ فدورك في الخطة قد أوشك على النهاية وكُل ما هو قادم سيكون على عاتقي..

كانت الخطة تقتضي أن يحرص طاغين في الشهور القادمة على القيام بتجنيد الجن من ذوي المناصب المهمة في جيش أبابيل إلى صفه حتى إذا جاء الوقت المناسب انقلب على جبّار وقتله وحكم شعبه..

قالت:

- يبدو أنك لم تفهم ما قصدته يا طاغين..

عاد ليلتفت لها بنظرة مستفهمة فقالت:

- أريد إلغاء الخطة؛ فجبّار سيكون زوجي وأبًا لأبنائي ولا أريدك أن تؤذيه..

- أبنائك؟!

- نعم إن المتزوجين ينجبون الأبناء، لماذا تبدو متفاجئًا؟!

- لقد ظننت أنكِ تتزوجينه التزامًا بالخطة لا أكثر - ثم سألها والغضب يتقد في عينيه: هل وقعتِ في حبه فعلًا؟!

هزّت رأسها بالإيجاب وأردفت:

- وقد اتفقنا أن نكوّن عائلة..

- وعائلتنا التي قُتلت ظلمًا هل أسقطتها من ذاكرتك؟!

- لا يمكن للثأر تغيير الماضي، ولكن بالمغفرة يُمكننا تغيير المستقبل..

- كيف اتسع قلبكِ للحب؟!

- لقد وجدت الأمان، والمرأة عندما تجد الأمان تنسى أحقادها..

صمت ينظر إليها بازدراء وكأنه لم يرضَ عن جوابها..

فقالت تُحاجِجه:

ـ وأنت ألم يتسع قلبك للحب أيضًا؟!

ـ أنا أختلف عنكِ..

ـ في ماذا تختلف عني هاه؟!

ـ أنا لم أسمح للحب أن يصرفني عن هدفي ولكن انظري لنفسك، لقد أنساكِ الحب ما أنتِ هنا لأجله - ثم أخفض صوته وهو يُردف قائلًا:

ـ الثأر يا تاج، الثأر!!

قالت ببرود: الثأر لن يُعيد لنا الذي خسرناه..

وعرف بعد أن سمع ردها ذاك ألّا فائدة تُرجى من الحديث معها، وأدرك ضرورة الصبر لأنه لو صارحها بحقيقة أنه لن يُلغي الخطة فإنها لن تتردد في كشف مؤامرته..

ووَدَّ لو يخنقها في تلك اللحظة ويتخلص منها لكنه لا يستطيع ليس لأنها أخته أو لأنها وصية أمه الأخيرة بل لأن وجودها كان مهمًا في صرف انتباه جبّار عنه وبالتالي يستطيع التحرك دون رقابة مشددة..

لذلك فإنه حاول أن يبدو أمامها وكأنه اقتنع بحديثها فتبدلت النظرة في عينيه من الغضب الشديد، إلى الخضوع والندم ثم قال بصوت خاشع محاولًا أن يُثبت لها حُسن نيته:

- معكِ حق يا أختي؛ فالثأر في نهاية المطاف لن يُعيد لنا والدينا..

ابتهجت تاج حين سمعته يقول ذلك وهتفت:

- أتعدني أن تنسى الماضي، وتلتفت للمستقبل؟!

- نعم، أعدكِ بذلك..

كان يعلم أن أخته لن تقتنع بتمثيليته السخيفة تلك وأنها ستظل لشهور كثيرة قادمة تراقبه لتتأكد من أنه لا يكذب عليها؛ لذلك فإنه في الشهور التالية وأثناء ما كان يُجند الجن من حوله ويكسب ولاءهم كان يبذل في الوقت ذاته جهدًا شاقًّا كي يُثبت لأخته صدق نواياه الحسنة..

**

لاحقًا وعندما اكتمل فريق الانقلاب الخاص به وأصبحت خطته جاهزة للتنفيذ، كان يجب عليه أن ينتظر الوقت المناسب - الوقت الذي يكون فيه متحررًا بشكل كامل من رقابة أخته - حتى يضمن أن شيئًا لن يُعرقل تحركه..

وهكذا مكث ينتظر طويلًا حتى أنجبت أخته أول مولود لها وكان ذكرًا وأسمته "**أساطير**".. ثم انتظر بعدها بثلاثة أعوام أخرى حتى أنجبت مولودها الثاني وكانت أُنثى وأسمتها "**جومانا**" وحين تأكد من أنها انغمست في مهامها الأمومية وأبعدت عينيها كليًّا عنه بدأ يُحرك خلاياه النائمة في القصر ويضع خطته موضع التنفيذ..

كان بعض كُبراء الأباطرة ينقلون لجبّار أخبارًا عن تحركات مريبة تحدث في ردهات القصر يقودها طاغين ولكن تاج كانت دائمًا تؤكد لزوجها أن أخاها لا يمكن أن يفعل شيئًا قد يؤذيه فكان جبّار لفرط حبه لها يُصدقها ويكذب الآخرين..

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي استشعر جبّار فيه وهو نائم تحركات مريبة تحدث فوق جزيرة الأرباب وحين وثب من فوق سريره واقترب من النافذة ثم أزاح الستارة عنها شاهد شيئًا لم يتوقعه: لقد شاهد طاغين يقف وخلفه جيش كبير من الساحرات وقوات مجهولة المصدر وقد جاء ليقضي عليه وعلى جميع كُبراء الأباطرة!!

**

في ذلك اليوم المشؤوم قاتل كُبراء الأباطرة بكل قوتهم وحاولوا استدعاء جيش المملكة ليُساندهم في معركتهم ولكن الجيش كان منشغلًا بمحاربة الانقسامات والفوضى التي أحدثها أولئك القادة الخونة الذين كان طاغين في وقت سابق قد جندهم لمصلحته..

في تلك المعركة قتل طاغين الكثير من الأباطرة وحاول الوصول لجبّار وقتله ولكن جبّار استطاع أن يهرب في اللحظة الأخيرة من هناك ومعه زوجته وطفلاه وبعضُ الوزراء وكُبراء العائلة..

**

ولأن جبّار وقتها لم يكن يعلم إلى أين يذهب بالذين معه فإنه اختار الذهاب للعرّافة فيلقاها ويطلب منها النصيحة..

صحيح أنه طردها من القصر في وقت سابق لكنه يملك أسبابًا كافية تجعله واثقًا من أنها ما أن تراه حتى تنسى له كُل شيء وتغفر له..

قال للذين معه:

- استعدوا سنذهب لجبل غُراب..

**

عندما صعدوا قمة الجبل لم يكن جبّار مضطرًّا لطرق باب الكوخ الغاطسة أساساته في أكوام الثلج فقد وجد العرّافة تنتظره عند الباب كما لو أنها كانت على موعد معه..

تقدم إليها بخطوات خائبة حتى إذا وقف أمامها نظر إليها بندم سحيق وقال:

- لقد هُزمت يا أمي..

**

اقتربت منه العرّافة آنذاك بصمت ثم طوقت بذراعيها جسده المترع بالندوب والجروح والطعنات.. وأطالت عناقه؛ لأنها تدرك أن في العناق شفاء وجبر للقلوب المكسورة..

ربتت على ظهره بيدها وتمتمت:

- يا للأبناء.. فمهما تقدم بهم العمر إلا أنهم عند المصائب يركضون نحو أمهاتهم كالأطفال..

قال بنبرة صوت مقهورة:

ـ كيف أواصل الحياة بعد أن فقدتُ عرشي؟!

ـ تماسك يا ولدي، فالعرش سوف يعود للأباطرة..

سأل بلهفة وهو لا يكاد يُصدق نبوءتها:

- متى؟!!

قالت بنبرة غامضة وكأن السماء كانت تُلقنها نص النبوءة:

"عندما يتحد الطين بالنار، يعود العرش للأباطرة"

لم يفهم كلامها وحاول أن يأخذ منها شرحًا إضافيًا ولكنها أسكتته بحركة من يدها تُشبه تلك الحركة التي أسكتها هو بها عندما كانت تحاول تحذيره في القصر من تاج..

قالت بشرود كما لو أنها كانت تُكمل نبوءتها:

- اذهب لقرية الجساسة لا تسكنها ولكن أسكن بالقرب منها..

همس لها بصوت خفيض كي لا يُسمع اللذين خلفه:

- وتاج.. ماذا أفعل معها؟!

- لقد حاولتُ مرة أن أتدخل في هذا الأمر يا ولدي ولكني لقيت منك ما لا يُعجبني؛ لذلك لن أتدخل فيه مرة أخرى..

**

قال عاصف الذي كان يُنصت للقصة بشغف وإخلاص:

- إذًا أنتِ والدة جدي جبّار..

همست بصوت خفيض "نعم" فأدرك تلك اللحظة سر نظراتها الغريبة له وذلك الحُب الذي كان يلمحه يبرق في عينيها كلما صادفت نظرته نظرتها..

قالت:

- طاغين لم يكن يطمح إلى الملك منذ البداية كُل ما كان يريده هو الانتقام من جدك لأنه قتل والده، ثم الانتقام من شعب أبابيل الذي هتف للجنود ذلك اليوم حاثًا إياهم على قتل والدته..

أكملت العرّافة:

- وقد استطاع أن ينتقم من جدك عندما سلبه العرش، ولكنه كان من الصعب عليه أن ينتقم من الشعب فردًا فردًا..

قال عاصف مستنتجًا:

- لذلك أنشأ منظمة الجاثوم؛ لقد أنشأها كي ينتقم بواسطتها من الشعب ويُحافظ في ذات الوقت على يديه نظيفة أمامهم كملك..

**

أكملت العرّافة له بقيَّة القصة:

- بعد أن غادر جدك جبل غُراب ذهب نحو قرية الجساسة كما طلبتُ منه وفتش حولها عن مكان آمن حتى وجد غابة مهجورة اسمها "**الغابة المُظلمة**" ونزل فيها هو والذين معه..

حين استقر جبّار في تلك الغابة جمع أفراد عائلته حوله ثم التفت نحو تاج ينظر إليها بنظرات تتقد شررًا..

عرفت تاج من خلال نظراته تلك أنه بصدد اتخاذ إجراء صارم بحقها، فقالت تدافع عن نفسها:

- لقد طلبتُ منه إلغاء الخطة وكنت أُراقبه طيلة الوقت لكي أتأكد من أنه لا يخدعني، أُقسم لك برأسي ابنينا يا جبّار إنني صادقة فيما أقول..

اختفى جبّار من مكانه وحين ظهر أمامها كانت يده الكبيرة تُمسك بعنقها.. خنقها بقوة وهو يرفعها بضعة أشبار فوق الأرض ويتمتم بصوت حاقد خرج من أعماق قلبه المكسور:

- **لا تُقسمي برأس أساطير وجومانا أيتها الفاجرة..**

وأنساه الغضب أن يفلت عُنقها وظل يخنقها دون اكتراث لتعابير وجهها المتوسلة، حتى اقتربت منه الوزيرة خيزران وقالت كما لو أنها تذكره:

- ستموت في يدك يا سيدي إن لم تدعها تلتقط أنفاسها..

أفلتها جبّار من يده فسقطت أرضًا وعاد يجلس مكانه..

بعد قليل نهضت تاج من فوق الأرض وتقدمت نحوه بخطوات آسفة دون أن تكترث بكرامتها المهدورة ولا بنظرات الغضب المسلطة عليها من قِبل الوزراء وكُبراء الأباطرة:

- أنا آسفة، أرجوك سامحني..

نظر حوله وأخذ يتأمل الظلام والبرد والزمجرات المرعبة للوحوش القادمة أصواتها من أعماق الغابة، ثم التفت لمن حوله يتأمل في وجوههم تعابير الجوع والعطش والخوف وقال:

- منذ قرون طويلة والأباطرة ملوك أبابيل.. ولكن انظري اليوم أين أصبحنا بفضلك.. مشرَّدين ومطاردين وقد يفتك بنا طاغين في أي لحظة.. لا أحد فينا يستطيع أن يُسامحك يا تاج لأننا في كُل لحظة نجوع فيها أو نخاف أو نعطش أو ننظر لهذه الغابة الموحشة فإننا سوف نتذكر خيانتك لنا..

صمتت تاج قليلًا ليس بسبب نشيجها وبكائها المكتوم بل لأنها استنتجت شيئًا من الكلام الذي سمعته توًّا وقالت متسائلة:

- ولو أعدتكم للقصر، وأعدتُ لكم عرشكم؟!

قال جبّار لها:

- حينها نغفر لكِ كُل شيء وتعودين واحدة منا - وأضاف وكأنه يلفت نظرها لنقطة هامة:

- وإلى ذلك اليوم أنتِ لستِ واحدة من هذه العائلة، وليس لكِ مكان فيها..

غادرتهم تاج ذلك المساء وقد أقسمت لنفسها أن تفعل كُل ما يتطلبه الأمر لإثبات براءتها أمام جبّار واستعادة مكانتها في قلبه..

**

أنهت العرّافة سرد الحكاية ولكنها قالت تعلق على أمر أخير:

- بعد أن تزوجت والدتك من والدك وجئت أنت، كانت تاج الوحيدة التي أدركت حينها معنى النبوءة: "عندما يتحد الطين بالنار، يعود العرش للأباطرة" فحرصت بكل دهائها ومكرها أن تستحوذ عليك مهما كلفها ذلك الأمر من خسائر وأن تُشعل في قلبك قوة النار لتدربك وتستخدمك في التغلب على أخيها طاغين، وتعيد العرش للأباطرة فيغفر لها جبّار ويردها إليه..

لم يعلّق عاصف فالتفتت إليه ووجدته قد أغمض عينيه واستغرق في النوم، فحبكت على جسده اللحاف الثقيل ووضعت قُبلة على خده وتمتمت بحزن:

- تشكو أيامك التي مضت يا ولدي، وأنت لا تعرف المصائب التي ستحدث لك في أيامك القادمة..

الباب الثامن

١

التدريب

في صباح اليوم التالي كان على العرّافة سِربيل أن تبدأ تدريب عاصف على استخدام حواسه الأخرى؛ ليكون قادرًا على القتال وهو كفيف البصر..

لذلك حين أفاق أخرجته للساحة الأمامية لكوخها وتعمدت أن تجعله يقف عاري الصدر أسفل الثلوج المتساقطة.. تربعت في الهواء وقد كانت تُحيط نفسها بهالة حمراء تقيها من البرد وقالت:

- أولئك الذين يطاردونك وينصبون فخاخهم لك في الطريق ويتمنون لكِ الأسوأ ليسوا هم أعداءك الأخطر يا ولدي.. أعداؤك الأخطر يأتونك دائمًا من الداخل..

اقتربت منه ووضعت يدها فوق قلبه:

- يأسك خوفك عدم ثقتك بنفسك تشاؤمك ذكرياتك السيئة، ترددك وكلمة لا أستطيع هؤلاء أعداؤك الأخطر.. هؤلاء من يجب عليك أن تحذرهم..

قال بعد أن كاد جسده يتجمد لفرط البرد:

- أيتها العرّافة أكاد أموت من البرد..

أكملت تقول وكأنها لم تستمع لما قاله:

- المحارب يُقاتل في جميع الظروف وسط الزلازل والطوفان.. وسط اللهيب والعُتمة والإعصار؛ فأعداؤك يا ولدي لن يستأذنوك قبل الهجوم عليك، لن يختاروا أكثر الأوقات الملائمة لك ويقاتلوك فيها..

ثم تناولت بيدها عصًا خشبية مدببة تكفي لإسقاط حصان بالغ لو أن أحدًا ضربه بقوة بها، ثبتت عند مقدمة العصا أجراسًا صغيرة تُصدر صوتًا عند الحركة وقالت:

- أنصت لقرع الأجراس، وحاول أن تتفادى الضربة..

ثم وجهت إليه الضربة الأولى..

استطاع عاصف أن يرصد صوت قرع الأجراس الصغيرة وهي تقترب منه، لكنه كان أقل خبرة من أن يُحدد مسارها بدقة فارتطمت العصا المدببة بوجهه..

تسببت تلك الضربة بفتح جرح عند منتصف جبينه، لكن الدماء ما كادت أن تنثال منه حتى تجمدت مكانها لفرط برودة الطقس، قالت:

- إن المحارب الحقيقي لا يتحرك بحاسة البصر بل يتحرك بكُل حواسه..

وأضافت: سأكرر الضربة مرة أخرى، استعد..

توقع أن تكرر الضربة في المكان ذاته؛ لذلك فإنه غطى وجهه بيديه غير أنها سددت ضربتها هذه المرة تمامًا بين فخذيه فسقط مكانه يتلوى لشدة الألم..

استغلت العرّافة سقوطه أرضًا وأخذت تسدد له بالعصا ضربات متتالية قوية في أماكن متفرقة من جسده..

ولم تتوقف عن فعل ذلك إلا عندما نهض عاصف واقفًا وقد اعتبر نفسه لفرط الغضب يقف أمام عدو حقيقي فتحولت عينه اليسرى للون الأحمر الداكن وطالت مخالبه وبرزت أنيابه..

صرخت عليه: لا تغضب!!

ولكنه لم يُصغِ لها وجعل يحوم حول نفسه يبحث عنها مثل نمر يبحث عن طريقة للهروب من قفصه..

صرخت عليه مرة ثانية: كُن هادئًا!!

كان يريدها أن تواصل حديثها معه كي يُحدد موقعها من خلال ترددات صوتها ويهاجمها فقال يستدرجها لمواصلة الحديث:

- كيف تريدين مني أن أهدأ؟!

أدركت ما كان يُفكر به فاقتربت منه بسرعة عالية وضربته بالعصا المدببة على رأسه بقوة وصرخت عليه:

- أفكارك مكشوفة أيها الأحمق، أستطيع بسهولة قراءتها..

أخذ يلكم بيديه الهواء من حوله معتقدًا أنه يستطيع إذا ما استمر بفعل ذلك بسرعة وبطريقة عشوائية أن يُصيبها، ولكن العرّافة كانت قد ابتعدت عنه مسافة تضمن فيها البقاء آمنة:

- تعلم أن تضبط أعصابك، إنك بالغضب لن تؤذي إلا نفسك..

استطاع أخيرًا أن يحدد موقعها فركض نحوها كثور هائج لوّح له أحدهم براية حمراء، ولكنه حين وصل إليها استطاعت العرّافة بسهولة أن تتفاداه فأكمل هو ركضه ولم يتوقف إلا عندما داس عن طريق الخطأ على قشرة جليدية رقيقة لم تحتمل ثقله فتهشمت وسقط في الماء..

خرج من الماء بعد لحظات وتمدد فوق الجليد كبطريق وهو ينتفض بردًا ويشعر أن العالم كله يدور في رأسه وأن أعدادًا لا نهائية من الدبابيس المكهربة قد انغرست في جسده دفعة واحدة..

اقتربت العرّافة منه وسألته:

- أأنت بخير؟!

هزّ رأسه بعلامة "لا" بينما جسده ما زال ينتفض لشدة البرد، وبدلًا من أن تأخذه فورًا للكوخ وتمنحه بعض الدفء والشراب الساخن فإنها ضربت رأسه بالعصا الخشبية المدببة مجددًا وصرخت عليه:

- لقد قلتُ لك لا تغضب!!

حملته للكوخ ومددته بجوار المدفأة بعد أن نزعت عنه ملابسه المبللة، ثم دست في فمه بضع ملاعق من الحليب الدافئ المخلوط بالريحان والعسل، وتركته هناك ليجف ويأخذ قسطًا من الراحة..

٢

القرين

حين أفاق في صباح اليوم التالي وجد نفسه خارج الكوخ ملقًى على ظهره فوق رأس قمة شاهقة الارتفاع تُطل على هاوية سحيقة لا قرار لها..

كاد أن ينهض من مكانه ولكن العرّافة الجالسة أمامه على بعد عشرة أمتار حذرته:

- لا تتحرك..

لم ينهض واكتفى بأن اعتدل في وضعيته وجلس متربعًا، كان البرد يقرص جسده الذي لم يكن يرتدِي فوقه غير ثياب خفيفة.. احتضن نفسه بذراعيه القويتيْنِ ليدفئ نفسه:

- أين أنا؟!

- أنت فوق قمة تُطل على هاوية سحيقة، حركة واحدة متهورة منك ربما تكون سببًا في نهايتك..

- بدأت أعتقد أنكِ جئتِ بي إلى هنا كي تعذبيني حتى الموت..

- لا تقلق لن تموت اليوم..

- إذًا دعينا نعد للكوخ، فهذا البرد يكاد يقتلني..

- لن نعود قبل أن ينتهي تمرين اليوم
- ومتى ينتهي تمرين اليوم؟!
- بعد أن تهزمني..
- وكيف أهزمكِ؟!
- كُل ما هو مطلوب منك أن تلمسني بيدك - وأضافت:
- وإذا استطعت أن تلمسني تكون قد هزمتني..
- إذًا لن أهزمكِ أبدًا؛ لأني لو تحركت من مكاني فسأسقط، وحينها ستعودين للكوخ وحدكِ...

إنها تعلم بأن شعوره بالخطر سيساعده في مضاعفة جميع حواسه مما يجعله قادرًا على التحرك بيسر وسهولة قالت:

- هناك جانب من قوتك لا أحد يعرفه، بل أنت نفسك ربما لا تعرف عنه شيئًا.. أنت لست من تظن نفسك، أنت أقوى بكثير مما تعتقد..

وأضافت: أريدك أن تصل لأحد ينابيع قواك الكامنة..

- وكيف أصل لها؟!
- إننا نُولد ومعنا مخلوق آخر ملتصق فينا كالتصاق الجلد بالعظم، ومع ذلك إلا أن الكثير منا يرحل عن هذه الحياة دون أن يتحدث معه..
- من هو؟
- **إنه القرين..**
- القرين؟!

هزّت رأسها ثم قالت:

- قرينك يعرفك جيدًا وإذا أردت أن تصل إلى أحد مكامن قوتك فعليك أن تتحدث معه وتطلب منه أن يدلك عليه..

- هل أنا وقريني شخص واحد؟!

- لا، إنه كائن مستقل عنك ولكنك سيده ويجب أن تتصرف معه على هذا النحو..

- وأين أجده..

- فيك، إنه يسكنك..

وأردفت تقول:

- لقاؤك الأول به مهم للغاية؛ لا تسمح له أن يعصيك أو يرفع صوته عليك أو يفرض عليك رأيًا.. فهذا اللقاء هو ما سوف يحدد طبيعة علاقتك به في الأيام القادمة..

- وماذا أفعل لو عصى أمري؟!

أخرجت له من جيبها خاتمًا ذا فصّ أخضر اللون وقالت:

- مد يدكَ اليُسرى..

مد عاصف يده اليسرى أمامه.. فاستخدمت قوتها الخاصة في التحكم بالخاتم الذي سار طافيًا في الهواء حتى استقر في راحة كف اليد الممدودة..

- ما هذا الشيء؟!

- خاتم.. البسه في أحد أصابع يدك اليُسرى..

كان مقاس الخاتم كبيرًا ومع ذلك حين لبسه على الأصبع السبابة ليده اليسرى فإنه ضاق من تلقاء نفسه وأصبح ملائمًا لمقاس أصبعه:

- لماذا أعطيتني هذا الخاتم؟!

- إذا عصاك قرينك قل له إنك ستحبسه في هذا الخاتم للأبد..

ثم أضافت: والآن ابدأ في التخاطب معه..

رغم ضجيج الهواء وبرودة الطقس وخطورة المكان إلا أن عاصف بدا أكثر هدوءًا وحكمة واتزانًا من أي وقت مضى..

أغمض عينيه وبدأ يأخذ أنفاسه بطريقة منتظمة حتى بات بإمكانه أن ينفصل عن الضجيج الذي حوله ويُصغي لصوت نبضات قلبه وتدفق الدماء في عروقه..

قالت تدله على كيفية استدعاء القرين:

- **استجمع طاقتك.. كُل طاقتك.. وقُل مرحبًا أيها القرين..**

صمت للحظات يستجمع طاقته وحين شعر أنه مستعد قال:

- **مرحبًا أيها القرين..**

شعر عندما لفظ كلمة "**قرين**" بأن هناك شيئًا ما انتفض بداخله كميت عادت إليه الروح..

وبعد أن مكث قليلًا دون تلقي الإجابة عاد يكرر:

- **مرحبًا أيها القرين، هل أنت هنا؟!**

زادت نبضات قلبه وصمت كاتمًا أنفاسه ينتظر الإجابة ولكن صمته طال هذه المرة أيضًا دون أن يتلقَّى ردًّا.. وظن أنه أخفق في التواصل مع قرينه فكاد أن يفتح عينيه ويعود من أعماق النفس لسطح وعيه إلا أنه سمع صوتًا ينبعث من الداخل يُشابه صوته لدرجة التطابق يقول:

- ما الذي جاء بك بعد كُل هذه المدة الطويلة؟!

أحس بقشعريرة الرهبة تغزو كُل أنحاء جسده، ابتلع ريقه بصعوبة وبدأت أنفاسه تضطرب إنها المرة الأولى التي يُدرك فيها أن هناك مخلوقًا حقيقيًّا يسكن بداخله:

- أريدك أن تدُلني لأحد مكامن قوتي..

- ولماذا قد أفعل هذا؟!..

- لأني أصبحتُ كفيفًا وبحاجة لمضاعفة حواسي الأخرى، فأستطيع أن أقاتل دون الحاجة للرؤية..

قال قرينه:

- هذا الكلام لا يعنيني في شيء..

- ألا يعنيك وأنت فيَّ أن أبقَى حيًّا وأنتقم ممن خدعني وشتت عائلتي، واحتل مملكتي وسلب عرشي وقتل أعز أصدقائي؟!!

- ولماذا يعنيني؟!.. فأنت لا تكترث لأمري ولم يسبق لك أن تحدثت معي مرة واحدة طوال السنوات الكثيرة الماضية ولولا أنك بحاجة لي الآن لما أعرتني انتباهًا..

وأضاف القرين معترفًا وهو يضحك:

- أتعلم؟!.. طوال الأيام الماضية كنتُ أتشدق من الضحك كلما أصابك مكروه..

ثم أردف وضحكاته تعلو وترتفع وتصبح أكثر صخبًا:

- كان شكلك مضحكًا في منطقة مزَار الشُّهب عندما ذهبت خلف ذلك الجبل وتفاجأت برؤية طاغين وجثث جنودك مُلقاة تحت قدميه وأقدام قواته.. أو عندما دُستَّ بقدمك كماشة الحديد في غابة الأخدود وكاد ذلك المقرون أثيم أن يجزَّ رقبتك بفأسه أو عندما شاهدتَ قصرك يحترق أمامك، أو عندما أفقت من غيبوبتك واكتشفت أنكَ أصبحتَ كفيفًا لا ترى!!

ثم انقلب صوت القرين جادًّا مُخيفًا وهو يقول:

- آه لو تعلم يا عاصف كم أتمنى موتك بفارغ الصبر كي أتحرر من قاعك وأعيش حرًّا طليقًا بعيدًا عن تجاهلك وجحودك..

في وقت آخر كان عاصف سيغضب ويتهوَّر ولكنه تعلم كيف يضبط سلوكه الانفعالي فلا يسمح لمن حوله بإثارة غضبه بسهولة، رفع يده اليُسرى بهدوء وثقة وقال:

- لن تتحرر بموتي؛ لأني سأحبسك في هذا الخاتم وأحرص أن أدفنك في مكان سحيق فلا يُخرجك أحد منه للأبد..

حين شاهد القرين ذلك الخاتم ذا الفص الأخضر يلتمع أمامه فإنه خرَّ مكانه ساجدًا وتمتم بخضوع واستسلام لا نهائي:

- آسف يا سيدي، آسف..

لم يكن عاصف يستطيع رؤيته لكنه أحس من خلال انكتام الصوت أن قرينه كان يسجد أرضًا فقال له:

- ارفع رأسك..

- أرجوك لا تحبسني سأدلك على أحد مكامن قوتك..

- أنا آمرك أن ترفع رأسك..

رفع القرين رأسه وتمتم متوسلًا: أرجوك يا سيدي..

نزع من أصبعه ذلك الخاتم ثم داس عليه بقدمه وقال بلطف ورحمة:

- أعتذر لك عن كُل الأيام الماضية التي همشتك فيها.. وعن هذه الطريقة السيئة التي عاملتك بها للتو.. أنت حُر في أن تَدُلني أو ألّا تفعل، وثق تمامًا بأني في كلتا الحالتين لن أحبسك داخل الخاتم..

صمت القرين لبعض الوقت فظن عاصف أنه بذلك الصمت يخبره بأنه يرفض مساعدته، وكان سيعود لوعيه لولا أن قال له القرين في آخر لحظة:

- عليك أن تغوص لقاع نفسك وعندما تفعل سوف تجد القوة هناك بانتظارك، يكفيك فقط أن تلمسها بيدك فتنتقل لكل أنحاء جسدك..

- هل تأخذني إليها؟!

أمسك القرين بيد سيده وقال: على الرحب والسعة..

غاص القرين بسيده داخل أعماق النفس حتى وصل به للقاع حيث كانت بانتظارهما بركة ماء راكدة مُشعَّة بلون أسود كليلة ممتلئة بنجوم متلألأة..

قال له القرين:

- أنت تقف عند طاقتك السوداء، المسها بيدك فقط..

انحنى عاصف ووضع يده عليها وما أن فعل حتى تحول ذلك الركود الساكن في البركة إلى اهتزازات قوية مُخيفة ثم تسلقت المياه يده وغطت كُل أنحاء جسده مكونة حوله هالة سوداء مُشعة..

قال له القرين:

- عُد لوعيك الآن، لقد أصبحت مكللًا بالقوة..

**

حين عاد عاصف لوعيه وفتح عينيه كانت عيناه الاثنتان - وليست اليُسرى فقط - تشعان بلون أحمر داكن كالدم، وثمّة هالة سوداء مُشعّة تُحيط بجسده..

صحيح أنه لا يزال كفيف البصر ولا يرى غير الظلام إلا أنه كان يستشعر الأشياء من حوله بكثافة إحساس لا نهائية كما لو أن آلاف القرون الاستشعارية قد نبتت له فجأة..

نهض واقفًا على قدميه ثم قفز للوراء نحو هاوية الجبل السحيقة سامحًا لنفسه بالسقوط فيها، شعرت العرّافة بالرعب حين رأته يقفز للهاوية وصرخت:

- عاصف لا!!!!

وأطلّت برأسها لتنظر إليه كي تحدد مكانه فتهب لإنقاذه، ولكنه كان قد استخدم قواه الخاصة الجديدة للاختفاء دون أن تلحظه وظهر في أقل من لحظة خلفها..

طوق عنقها بين ذراعيه وهمس لها قائلًا:

- هزمتكِ..

ابتسمت حين أدركت خسارتها ثم قال لها: هيا لنعد للكوخ..

**

في الأيام التالية انضم الشيذمان لهما في التدريبات واستمر مع العرّافة يُدربان عاصف لمدة ثلاثة أعوام، مما صقل قوته الجديدة وجعله أكثر قُدرة على التحكم بها..

واستمرت تدريباتهما المكثفة له إلى أن جاء ذلك اليوم الذي طرق أحدهم فيه باب الكوخ، وحين ذهب عاصف وفتح الباب سمع صوتًا يقول:

- حمدًا للسماء أنك بخير أيها الملك..

دُهش حين سمع ذلك الصوت وتملكه الفرح الشديد إنها قائدة الفيلق الثاني والذي كانت مهمته حراسة القصر وجزيرة الأرباب إنها صديقته الوزيرة خيزران..

قالت له:

- لقد عرفتُ من خانك أيها الملك وسرَّب خطتك لطاغين إنها سُندس؛ لقد خانتك بعد أن وعدها طاغين أن يجعلها نائبة على المُلك من بعده..

لم يكن عاصف يُهمه كثيراً سماع ذلك كُل ما كان يعنيه لحظتها هو أن صديقته بخير..

قالت الوزيرة خيزران تُكمل حديثها:

- لقد أودعها الجُند زنزانتها لكنها هربت من هناك.. هربت ثم بحثت عن طاغين حتى وجدته وأخبرته بكل تفاصيل خطتك..

متجاهلًا كُل ذلك الكلام.. اجتذبها عاصف إليه وعانقها سعيدًا باكتشاف أنها لا تزال حية:

- حمدًا للرب على سلامتك لقد ظننا أن أحدًا لم ينجُ من الفيلق الثاني، أهناك ناجون غيركِ يا خيزران؟!

- لا أيها الملك لقد كنتُ الناجية الوحيدة..

٣

الناجية الوحيرة

بالقرب من مدفأة الكوخ جلست الوزيرة خيزران تأكل بعضَ الطعام.. بينما مكث كُل من عاصف والعرّافة والشيذمان في انتظارها حتى تفرغ من تناول طعامها، وحين انتهت سألها عاصف:

- أخبرينا كيف استطعتِ النجاة؟!

بدأت خيزران برواية القصة منذ لحظة الهجوم على الجزيرة:

- استطاع فيلقنا في البداية التصدي لهم ومنعهم من تخطي حدود الشاطئ.. ولكنني كنتُ أعلم أن جنودنا لن يستطيعوا المقاومة لوقت أطول؛ لذلك أعطيتُ أمرًا لحامل البوق أن يأمرهم على الانسحاب للقصر.. انقسم الفيلق لفئتين.. فئة انسحبت وفئة ظلّت تقاتل لحماية ظهور الفئة المنسحبة..

كانت الوزيرة متأثرة بفضاعة الأحداث فلم تستطع رواية القصة بسلاسة وسهولة؛ لذلك تكلمت العرّافة بدلًا عنها وقد استنتجت ما حدث:

- استطاع طاغين أن يغلب تلك الفئة ثم تقدم بقواته وحاصركم في القصر، وكنتِ تعتقدِين أن الأسوار والأبواب الملعونة بطلاسم الأباطرة ستكون كفيلة بحمايتكم منه أليس كذلك؟!

هزّت خيزران رأسها بأسف وهمست:

- لم أكن أعتقد أنه سوف يشعل النار في القصر..

انفعلت العرّافة وقد أغضبها ذلك الخطأ العسكري الفادح:

- كيف يصدر عنكِ هذا الخطأ وأنتِ من أكثر الوزراء ذكاءً؟! كان يجب عليكِ أن تُدركِ أن فيلقكِ هو الخط الدفاعي الأخير لأبابيل كان يجب عليكِ أن تتقي بجنودك وتقاومي حتى النهاية..

سكتت الوزيرة قليلًا قبل أن تبرر بندم:

- لقد خفت على الملكة والأميرة الصغيرة، وكنت أريد حمايتهما..

سألها الشيذمان:

- وكيف نجوتي منه ولم تلقَي حتفكِ مع بقية جنود الفيلق؟!

- لقد اختبأت أسفل الجثث التي ماتت حرقًا، فمضت قوات طاغين من جواري ولم ينتبهوا إليَّ.. وحين حانت الفرصة المناسبة أزحت الجثث من فوقي وهربت..

- وأين كنتِ طيلة الثلاث أعوام الماضية؟!

- في البداية لم أكن أعرف أين أذهب لقد ظننت أن طاغين قتل الجميع؛ لذلك غادرت أبابيل حتى تهدأ الأوضاع ثم عدتُ إليها متسللة.. وقصدتُ كوخ العرّافة كي أطلب منها النصيحة فيما يجب عليّ فعله وهكذا وجدتكم هنا..

أراد الشيذمان أن يوجه إليها سؤالًا آخر لكن عاصف منعه بإشارة من يده وقال:

- دعونا لا نرهقها بالأسئلة، يجب أن تأخذ خيزران قسطًا من الراحة..

نظرت الوزيرة إليه وهمست بحياء ودمعة الألم تفيض من عينيها:

- آسفة لقد خيبتُ ظنَّك فيّ، أرجوك اغفر لي..

هو يعلم أنها أخطأت حين أمرت جنود الفيلق بالانسحاب وأنه كان يتوجب عليها الثبات لآخر مقاتل ولكن ما يُعزيه في الأمر هو أنها فعلت ذلك خوفًا على زوجته وابنته ورغبة منها في حمايتهما..

قال:

- لا داعي للاعتذار لقد فعلتِ ما فعلتِه لأنكِ كنتِ تظنينه صوابًا..

وأضاف وهو يُربت على يديها:

- أعدكِ أننا سننتقم منه عندما يحين الوقت المناسب..

قالت الوزيرة خيزران وقد التمع وجهها:

- وهذا ما جئتُ لكوخ العرّافة أطلبها النصيحة من أجله - ثم صمتت قليلًا قبل أن تكشف عن مفاجئتها:

- لدي خطة أكيدة سوف تجعلنا ننتقم من طاغين..

٤

خطة الوزيرة

أثارت تلك الجملة الأخيرة التي قالتها الوزيرة انتباه الجميع وأخذوا يترقبون بلهفة ما ستقوله لهم..

قالت أخيرًا تكشف عمّا لديها:

- لديَّ أخبار مؤكدة تقول إن طاغين سوف يبدأ في زيارة قبائل وقرى أبابيل غدًا ليأخذ منهم عهود الولاء والطاعة، وإنه سوف يبدأ أولًا بزيارة قرية الجساسة..

دق قلب عاصف عندما سمع تلك المعلومة، ولكن العرّافة استوقفتها بأن قالت:

- كيف حصلتِ على هذه الأخبار وقد كنتِ طيلة الوقت خارج أبابيل؟!

أجابت:

- لدينا بعض الخدم الأوفياء لعائلة الأباطرة داخل القصر وقد نقلوا إليَّ هذا الخبر- وأردفت تقول وهي توزع نظرها للوجوه الثلاثة:

- إننا فجرًا وبكتيبة قليلة من المقاتلين نستطيع أن نفاجئ طاغين هُناك ونقتله..

لقد تركت بكلماتها تلك أثرًا عظيمًا في نفوس المستمعين إليها، وعمَّ الصمت المكان للحظات قبل أن يقول الشيذمان:

- صحيح أن الوقت ليوم الغد قصير جدًّا إلا أنكم إذا اتخذتم القرار في الهجوم عليه، فإني أستطيع أن أُجهز لكم من قبيلتي كتيبة من المحاربين الأقوياء..

قالت العرّافة:

- هذه الاستعدادات لن تكفي لضمان الانتصار، يجب أن ننتظر التحالفات التي سوف يجلبها لنا كُل من الحكيم والشمالي..

وأضافت تشرح وجهة نظرها:

- إن طاغين الآن شئنا أم أبينا ملك أبابيل، وهذا يعني أن تحالفاته سوف تكون قوية للغاية؛ فهو لن يتحالف مع قبائل متفرقة بل مع ممالك كُبرى وعُظمى..

قالت الوزيرة خيزران:

- ولكننا لن نُعلن عليه الحرب فنخاف أن يحشد تحالفاته ضدنا هو لن يتوقع هجومنا غدًا بأي حال من الأحوال وهذا يعني أنه سيكون مع مجموعة قليلة من جنوده فنضمن النصر عليه..

ثم التفتت نحو عاصف وقالت:

- أرجوك يا سيدي ثق بي..

التفت عاصف نحو الجهة التي تجلس فيها العرّافة وسألها:

- ما رأيكِ؟!

- قلبي ليس مطمئنًّا لهذا الأمر يا ولدي - وأضافت:

- ولكننا في جميع الأحوال سندعمك في أي قرار تتخذه..

التفت نحو الجهة التي يجلس فيها الشيذمان:

- وأنت أيها الشيذمان.. ماذا تقول؟!

- إن كانت المعلومة التي أعطتنا إياها الوزيرة صحيحة، فأنا أؤكد لك أنها ستكون فرصة سانحة لأخذ ثأرك واستعادة العرش..

**

أخذ عاصف نفسًا عميقًا وجعل يُفكر بخطة الوزيرة بصوت مسموع كما ليُشرك الآخرين معه:

- إن أنسب وقت للهجوم هو الوقت الذي لا يتوقعك فيه العدو ويوم الغد سوف يذهب طاغين لأخذ عهود الولاء والطاعة من قبائل وقرى أبابيل وسوف يبدأ أولًا بالجساسة وبطبيعة الحال فإنه لن يصطحب معه جنودًا كثر في مهمة مثل هذه وهذا يعني أننا لو باغتناه بالهجوم فستكون لدينا الأفضلية للنصر..

ساعدته تلك اللحظات من الهدوء والتفكير بصوت مسموع على اتخاذ قراره..

قال وهو يوجه رأسه للجهة التي تجلس فيها الوزيرة:

- **لقد حان الوقت لننتقم ونأخذ بثأرنا..**

أحنت الوزيرة رأسها وقالت:

- سأذهب لأجري بعض الترتيبات، وسأعود عند الفجر - وأضافت قبل أن تختفي:

- شكرًا لأنك منحتني ثقتك..

أما الشيذمان فإنه قال وهو يهم بالنهوض والمغادرة:

- سوف يكون المقاتلين تحت أمرك قبل موعد التحرك..

**

أخرج عاصف من جيبه رُقعة الجلد خاصته وهمَّ بجرح نفسه وتبليلها بالدم فسألته العرّافة:

- لماذا أخرجت رُقعة الاتجاه؟!.. ماذا تنوي أن تفعل؟!

- سأستدعي الأصدقاء أريدهم أن يشاركوني في معركة الغد..

- لا تفعل..

- لماذا؟!

قالت تضع خطة بديلة:

- دعهم يثأروا لنا في حال لم نتمكن غدًا من إنجاز المهمة..

- ما هذا الكلام الذي تقولينه أيتها العرّافة؟!

- طِعني في هذه يا ابن حفيدتي جومانا..

- ولكن..

قاطعته: أرجوك، من أجلي على الأقل..

أعاد رُقعة الجلد لمكانها وهو يُتمتم:

- من أجلك سأفعل..

**

لقد كان حماسه كبيرًا لثأر يوم الغد..

ولم يخطر في باله أبدًا أن النهاية كانت تنتظره في الجساسة..

٥

يوم الغد
الثأر
الجساسة

مع بزوغ فجر يوم الغد ظهرت الوزيرة خيزران أمام الكوخ الغاطسة أساساته في أكوام الثلج.. وقد كان عاصف والعرّافة بانتظارها عند عتبة الباب..

قالت وهي تدنو منهما ومعها الأخبار المؤكدة:

- لقد تحرك طاغين من القصر وما هي إلا ساعات قليلة حتى يصل إلى الجساسة.. يجب أن نتحرك بسرعة كي نصل إلى هناك قبلهم فتكون لنا أفضلية المكان..

استشعر عاصف خطوات أقدام سريعة تقترب قادمة من اتجاه مدخل جبل غُراب فقال:

- لقد وصلت تعزيزات الشيذمان..

وما أن قال ذلك حتى ظهر من بين ضباب البرد الكثيف قطيع كبير يتجاوز الألف ذئب محارب ضخم يقودهم الشيذمان بنفسه..

قال الشيذمان وهو يقترب منهم:

- لو كان لدينا ما يكفي من الوقت لخرجت بكل مقاتلي القبيلة..

قالت الوزيرة خيزران:

- لن نكون بحاجة لكل المقاتلين؛ يكفي ما جلبته معك..

تمتمت العرّافة وهي تنظر لعاصف:

- قلبي ليس مرتاحًا لهذا الأمر يا ولدي..

تجاهل عاصف حدسها.. وامتطى ظهر الشيذمان وتشبث بفروه الناعم الطويل وقال:

- لنتحرك الآن..

صعدت العرّافة فوق أحد المُستذّئبين وكذلك فعلت الوزيرة خيزران ثم انطلقوا جميعًا نحو الجساسة..

**

حين وصلوا إلى هناك كانت الشمس لتوها قد بدأت بالشروق.. تقدمت الوزيرة خيزران الجميع وهي على ظهر المُستذّئِب وأخذت تقود القطيع نحو نقطة ما..

كان الموقع الذي قادتهم إليه الوزيرة عبارة عن أرض واسعة مكشوفة تقع على الحدود الشمالية لقرية الجساسة.. رفعت الوزيرة يدها لتُعطي الأمر للبقية بالتوقف فتوقف الجميع..

ترجلت الوزيرة عن ظهر المُستذِئب وسارت بقدميها للأمام بضع خطوات قبل أن تتوقف وتنظر للخلف وطيف ابتسامة غامضة يرتسم على وجهها ثم تقول:

- **يا لكم من حمقى وسُذَّج، لقد ابتلعتم الطعم بكل سهولة..**

**

ذُهل الجميع مما سمعوا.. وقبل أن يستوعبوا الفخ الذي وقعوا فيه كانت خيزران قد ضربت الأرض بقدمها فخرج من تحت الأرض قرابة ثلاثة آلاف شيطان مسعور..

حاوطت الشياطين عاصف وأصدقاءه في المنتصف ووقفوا أماكنهم ينتظرون الأمر من خيزران بالهجوم..

ارتبك عاصف وتردد ولكن ليس لأنه استشعر اقتراب موته وموت الذين معه، بل لأنه لم يخطر في باله أبدًا أن نهايته ستكون على يد أحد أكثر أصدقائه المقربين..

قالت العرّافة بغضب وتوتر:

- إذا كانت هذه مُزحة يا خيزران فأريد أن أخبركِ بأنها سخيفة جدًّا، وإذا كنتِ جادة فيما تفعلينه ولا تمزحين فعليكِ لعائن السماوات والأرض..

قال صوت متمرد خرج من بين حشد الشياطين المسعورة:

- هذه ليست مُزحة أيتها العرّافة..

لقد ميَّز عاصف الصوت وعرف هوية المتكلم: **إنه طاغين..**

وهنا أدركت العرّافة الحقيقة كاملة:

لم يكن قدوم خيزران للكوخ واستدراجهم لهذه المنطقة إلا تنفيذًا خطة كلفها بها طاغين..

سُندس ليست من خان خطة الملك بل كانت الوزيرة خيزران..

إعطاء الفيلق الثاني أمرًا بالانسحاب من الشاطئ والتحصن داخل أسوار القصر لم يكن خطأً عسكريًّا وقعت فيه الوزيرة، بل إنها فعلت ذلك عمدًا لتعطي فرصة لطاغين وقواته باجتياح الجزيرة واحتلال العرش..

**

كانت الشياطين تطبق عليهم الحصار من كُل الاتجاهات وكان الشيذمان ومحاربيه مستعدين للقتال ولكن لأن موقفهم هو الأضعف فإنهم لم يرغبوا أن يبدأوا شرارة المعركة..

تمتمت العرّافة متسائلة توجه حديثها لخيزران:

- لقد كان ولاؤكِ خالصًا للأباطرة، كيف أقنعكِ بخيانتهم والانظمام إليه؟!!

قال طاغين متدخلًا:

- **بالحُب..**

- ماذا تقصد عليك اللعنة؟!

في الحقيقة لم تكن العرّافة مهتمة بمعرفة تفاصيل الخيانة ولكنها أرادت فقط أن تشتري بعض الوقت ريثما تفكر بحل للخروج من تلك الورطة وكان طاغين في الجهة المقابلة يُدرك ذلك الأمر جيدًا إلا أنه قرر إخبارها بالتفاصيل من أجل سبب واحد:

- سأخبركِ بالقصة ولكنّي لا أفعل هذا من أجلك بل من أجل جبّار؛ فعندما أرسلكِ للجحيم بعد قليل وتلاقينه هناك أريدكِ أن تخبريه بكل شيء حتى يتضاعف عذابه ويزداد حُزنًا وقهرًا..

ثم بدأ يسرد الحكاية:

- أثناء ما كان الجميع منشغلِين بالمشاكل التي تحدث داخل القصر والفوضى التي انتشرت فوق أراضي أبابيل؛ استطعت التسلل ليلًا لجزيرة الأرباب دون أن يشعر بي أحد ثم توجهت مباشرة لكوخ خيزران وفتحتُ الباب..

في تلك الليلة وبينما الوزيرة تجلس في كوخها إذ فتح أحدهم عليها الباب فجأة، وحين التفتت نحو الباب شاهدت شبح رجل نحيل يقف أمامها:

- من أنت؟!!

دخل طاغين الكوخ ومع دخوله أُضيئت المصابيح.. نزع اللثمة عن وجهه ثم نظر إليها بصمت وتركيز كما ليقيس ردة فعلها.. كادت الوزيرة أن تستدعي الحراس له ولكنها حين فتحت فمها لتصرخ وجدت نفسها تقول بهدوء وحذر:

- ما الذي جاء بك؟!

قال وهو يُطيل النظر بشهوة لما تحت لباسها الشفاف القصير:

- مضى زمن بعيد لم أركِ فيه ولم تزدكِ الأيام إلا جمالًا..

لم تتضايق من نظراته تلك لكنها قالت بجفاء:

- لا أظنك غامرت بحياتك وقطعت كُل هذه المسافة لتقول لي هذا الكلام، قُل ما الذي جاء بك؟!

قال لها:

- مهمة بسيطة تؤدينها لي، مقابل أن أجعلكِ الملكة..

- لقد مضى زمن طويل فعلًا، ويبدو أن الأيام لم تزدك إلا خرفًا..

وهو يحاول امتصاص غضبها: لماذا تقولين هذا؟!

- لأنك لا تستطيع عقد صفقة مثل هذه..

- بل هناك طريقة..

ارتسمت في حدقتيّ عينيها نظرة اهتمام، فأكمل قائلًا:

- **ساعديني أن أصبح الملك، فأتزوجكِ وأجعلكِ الملكة..**

لقد أغراها عرض الزواج أكثر من عرض أن تكون ملكة؛ وذلك لأن خيزران في الحقيقة كانت هي فتاة القصر السرية التي أحبها طاغين في تلك الفترة عندما وصل فيها مع الخمسة عشر عبدًا المرسولين ضمن هدايا مملكة النور..

وقد بادلته خيزران انذآك الحب أيضًا - دون أن تعلم شيئًا عن نواياه السيئة - وهي التي طلبت منه أن يُبقي على علاقته بها سرًّا لأنه لا يليق بوزيرة الملك أن تقع في حُب أحد عبيد القصر..

ولكن عندما غدر طاغين بعائلة الأباطرة تلك الأيام وانقلب عليهم فضلت الوزيرة خيزران أن تتبع ولاءها فلحقت بجبّار وتركت الحُب خلفها..

**

قال طاغين يُعيد عليها الصفقة:

- **ساعديني أن أصبح الملك، فأتزوجكِ وأجعلكِ الملكة**..

- ولكن جبّار آآ..

قاطعها قبل أن تُكمل: لقد مات يا خيزران.. جبّار مات

- لقد أوصى أن يُنصَّب حفيده ملكًا من بعده وأنا لا أستطيع مخالفة الوصيه..

هو يعلم أن خطة عودته للعرش لن تكتمل إلا إذا وافقت خيزران على أن تُساعده؛ لذلك فإنه قد حضّر جيدًا للقائه معها فقال يُعطيها ذريعة مناسبة لعدم تنفيذ الوصية:

- لقد أراد جبّار قبل موته أن يُكفر عن خطئه الذي اقترفه في الماضي عندما نفى ابنته جومانا من العائلة؛ لذلك جعل ابنها ملكًا ولكن في الحقيقة عاصف لا يصلح أن يكون الملك إنه متهور وطائش وقد يجلب الدمار لأبابيل وشعبها..

- سأكون معه وأساعده في إدارة مُلكه..

قال بتهديد موارب:

- ولكنكِ تعرفين القواعد جيدًا؛ فما أن يصل ملك جديد للعرش حتى يسارع بتغيير حاشية الملك الذي سبقه، وربما أيام أو شهور ويقوم بنفيك فتغادرين أسوار القصر..

- ...

- ثِقِي بي.

- كيف أثق بك وقد غدرت بي ذات مرة؟!

- لم أغدر بكِ يا خيزران، أنا لم أغدر بك.. فعندما وقعنا تلك الأيام في الحُب أخبرتكِ منذ البداية أنني أملك أسبابًا تجعلني يومًا أنسحب عنكِ.. أتذكرين ماذا قلتِ لي حينها؟!

تمتمت تتذكر إجابتها له آنذاك:

- لا تفكر بالغد، لنعش هذه اللحظة وكأنها الأخيرة..

تقدم طاغين في الكوخ خطوتين حتى أمسك يدها وقال يُطمئنها:

- ولكن هذه المرة لن أسمح للظروف بأن تفرق بيني وبينكِ، سأعيش معكِ للأبد..

وأضاف كما لو أنه يستعين بغرائزها الأمومية ليقنعها:

- وبعد أن نتخلص من عاصف سأتزوجكِ وأُعلنكِ الملكة وسننجب الكثير من الأمراء والأميرات الصغيرات.. هاه ماذا تقولين؟!..

في تلك اللحظة استشعر طاغين خطوات أقدام شخص تقترب من الكوخ فصمت وأومأ لخيزران بإشارة يطالبها فيها بالحذر..

طرق أحدهم الباب، فتبادل الاثنان نظرات القلق قبل أن تهمس له خيزران:

- أتعتقد أنهم عرفوا أنك هنا؟!

- أتعتقدين أنهم سيطلبون الإذن في الدخول لو عرفوا أني هنا؟!.. اذهبي وافتحي الباب وتصرفي بشكل هادئ..

حين فتحت خيزران آنذاك الباب وجدت أمامها أمين سر القصر أيوب، اختبأ طاغين خلف الباب بحذر وجعل يُنصت للكلام الذي يدور بينها وبينه..

وهذا ما سمعه حينها:

"ماذا هناك؟!"

"الملك"

"ما به؟!"

"يطلب رؤيتكِ"..

"ألم يخبرك عن السبب؟!"

"اتجهي لباحة القصر، وهُناك ستعرفين"

"وأنت أين ستذهب؟!"

سمع طاغين حينها صوت أيوب وهو يقول مبتعدًا:

"لاستدعاء البقية"

عادت خيزران لداخل الكوخ بعد ذهاب أمين السر فسألها طاغين:

- هل تثقين بي؟!

فكرت خيزران قليلًا ووجدت أنها لا تضمن عاصف وتهوره وطيشه، وأن مستقبلها سوف يكون أكثر ضمانًا واستقرارًا مع طاغين فقالت:

- سأثق بك، ولكن يجب ألّا تخذلني..

- أعدكِ ألّا أخذلك..

قال ذلك ثم أعطاها الأمر الأول:

- والآن اذهبي وانظري ماذا يريد عاصف منكم بهذا الاجتماع وأخبريني بكل خطوة يخطوها..

وهكذا كان طاغين قادرًا من خلال الوزيرة خيزران أن يعرف جميع تحركات عاصف خطوة بخطوة وأن يضع لها خططًا مضادة..

**

حين انتهى طاغين من سرد حكايته قال يوجه كلماته للعرّافة:

- لقد قتل ابنكِ والدي ووالدتي، وهذا أقل ما يستحق..

قالت العرّافة:

- لقد أسس والدك مُنظمة لسرقة الشعب ونال جزاءه، ووالدتك هاجمت جنود الملك فنالت جزاءها أيضًا..

صرخ طاغين:

- هُراء!!

وأضاف بصوت أهدأ ولكنه حاد الطبقة:

- لو أن ابنكِ كان يراعي أحوال شعبه لما اضطر والدي للسرقة من أجل أن يُطعم أطفاله!!

- الملوك تنتهي مهمتهم عند توفير الحياة الآمنة والفرص العادلة لشعوبها.. والشعوب في المقابل عليها العمل والاجتهاد لتحصيل الرزق.. ولكني أعذر جهلك في هذه الأمور فأنت في نهاية المطاف سارق ابن سارق ولا تفقه في أموز الحكم شيئًا..

- والدي كان مظلومًا..

قالت ببرود:

- إذا كان والدك كسولًا ولا يملك شغف العمل بشرف فهذا لا يعني أنه مظلوم..

كان كلامها ذاك بمثابة الصفعة على وجهه؛ لذلك ولكي يرد عليها صفعتها قرر أن يكشف عن الحقيقة التي لا أحد ممن كان خاضرًا يعلمها غيره:

- كُلكم تعتقدون أن جبّار مات بسبب الرُّمح المسحور الذي اخترق ظهره ولكنكم لا تعرفون الحقيقة - ثم أضاف يقول:

- جبّار مات لأن أطباء الجن عندما كانوا يتظاهرون أمامكم أنهم يُعالجونه كانوا في الحقيقة يعملون لمصلحتي.. لقد كانت أمامه فرصة لأن يتعالج من طعنة الرمح المسحور ذاك ويعيش، ولكني أنا من دسّ السُّم في جرحه وقتله..

وأردف صارخًا وهو ينظر إليها:

- قولي هذا لابنك حين تلاقينه فإذا كان يظن نفسه بطلًا فليأتِ من الموت ويواجهني!!

فقدت العرَّافة صوابها بعد أن عرفت أن ابنها كان من الممكن أن يُشفى من أثر ذلك الرمح ويعيش ولكنه مات مقتولًا.. فاختفت من مكانها وقد تجاوزت مستعينة بوقود الغضب كُل الشياطين المسعورة والدفاعات المشددة التي كان طاغين يُحاوط نفسه بها وظهرت أمامه مباشرة ثم سددت له لطمة شديدة القوة..

كانت تريد أن تكيل له مزيدًا من اللطمات حتى تقتله ولكن حفنة من شياطينه المساعير كانوا قد طوقوه ليحموه ثم أخذوه بعيدًا من هناك..

بقيت العرّافة وسط الأمواج الهائجة للشياطين تصد ضرباتهم السريعة الخاطفة وتفعل كُل ما تستطيعه للخروج من هُناك والتراجع للنقطة الآمنة التي يقف فيها أصدقاؤها ولكن دون فائدة فقد كان الشياطين يُطبقون عليها الحصار من كُل اتجاه ولا يتركون لها مجالًا للانسحاب..

وكادت أن تلاقي حتفها لولا أن عاصف تهور واندفع نحوها مستخدمًا طاقته الجديدة حتى وصل إليها وانتشلها من بينهم في الوقت المناسب وتراجع بها للخلف..

وهكذا بدأت المعركة بينهم واستمر القتال طويلًا.. وكان ميزان النصر في كُل جولة يرجح لمصلحة خيزران وشياطينها..

وما زاد عاصف وأصدقاءه ضعفًا هو عندما صرخ أحد المُستذّئِبين قائلًا:

- أنقذوا الشيذمان إنهم يقتلونه!!!!

حاول عاصف أن يُنقذه لكنه حين وصل إليه كان قد تأخر أكثر مما ينبغي، فقد استطاع ثلاثة من الشياطين الأقوياء أن يلتفوا حول الشيذمان ويقطعوا رأسه..

تضاعف الغضب داخل نفسه حين أدرك أنهم قتلوا الشيذمان واستطاع في أقل من لحظة أن يُمزق اولئك الشياطين الثلاثة بشعلة لهب كوّنها في يده وحولهم بها لكومة رماد..

مع مقتل الشيذمان انهارت الروح القتالية للكثير من المُستذّئِبين مما جعلهم فرائس سهلة لبقية الشياطين؛ فجعلوا يتساقطون أرضًا واحدًا تلو الآخر..

وبعد ساعات قليلة كان الألف محارب من قبيلة المُستذّئِبين قد قُتلوا جميعًا ولم يتبقَّ فوق ميدان المعركة غير عاصف والعرّافة فقط.. فحاوطتهما الشياطين في المنتصف وانتظروا الأمر الأخير بالهجوم..

كان عاصف يقف ظهرًا بظهر مع العرّافة وقد استشعر خطورة المأزق الكبير الذي وجد نفسه فيه..

صحيح أن أعداد الشياطين قد انخفضت لقرابة التسعمئة.. إلا أنه مُرهق ولن يستطيع هو والعرّافة التغلب على كُل أولئك الشياطين دون مساعدة خارجية:

- يبدو أنها النهاية أيتها العرّافة..

- دعنا إذًا نقتل منهم أكبر عدد ممكن..

قالت ذلك ثم انطلقت تُقاتل، وانطلق عاصف خلفها..

**

كانت العرّافة أكبر سنًّا من أن تتوفر معها اللياقة الكافية للقتال بالكفاءة ذاتها لمدة أطول؛ فأصبحت حركتها مع الوقت أقل سرعة وبدأ تركيزها ينخفض شيئًا فشيئًا..

انتبهت خيزران لذلك الأمر فاقتربت منها بسرعة خاطفة ثم ضربتها بكل قوة في ظهرها فاخترقت الضربة جدار الظهر ونفذت من الجهة الأخرى كشعاع الضوء حين يخترق قطعة زجاج شفافه..

حين استشعر عاصف ما حدث فإنه ترك كُل شيء من يده، وانطلق نحو العرّافة يُسندها بين ذراعيه تاركًا جسده أعزلًا دون حماية..

كان من السهل على أحد الشياطين اقتناص تلك الفرصة الثمينة وقتله ولكن خيزران قررت بدافع الصداقة القديمة بينهما أن تمنحه فرصة للقائه الأخير فأمرت شياطينها:

- تراجعوا للوراء..

تراجعت الشياطين للوراء ولكنها بقيت تطوق عاصف والعرّافة من جميع الجهات..

أسندها عاصف برفق ومسح عن وجهها الدم والعرق والغبار:

- لا تقلقِي سأستدعي الحكيم ليُعاين جُرحك..

قال ذلك ثم مد يده للجراب الذي كان يحفظ فيه رُقعة الاتجاه خاصته ليستدعي أصدقاءه، ولكنها أمسكت يده قبل أن يفعل وقالت:

- لا داعي لأن تعرضهم للخطر؛ سيُقتلون لو جاؤوا..

ثم رفعت يدها ومسَّت وجهه الباكي الحزين وكأنها تؤدي له تلويحة الوداع وتمتمت وهي تنظر للسماء.. وكأن السماء كانت تعطيها النبوءة الأخيرة:

"ستحاول كثيرًا يا ولدي وسوف تبوء كُل محاولاتك
بالفشل سوف تعود ابنتك يومًا وتُعيد العرش للأباطرة..
من يملك ابنة يا ولدي لا يُهزم أبدًا..
لا يُهزم"

سألها بلهفة:

- هل ابنتي بخير أيتها العرّافة، هل ستعود لي يومًا؟!

فتحت فمها لتُجيب لكن الموت أسكتها..

تلمّس وجهها بيده كما لو أنه كان يرد لها تلويحة وداعها.. طبع قبلة على جبينها الذي كانت ترتسم عليه شامة تُشبه القمر ثم أغلق عينيها ومددها على الأرض بلطف وهمس بغصّة:

"وداعًا أيتها العرّافة"

لم يقف بعدها بل ظل جالسًا بجوارها وكأنما حين رحلت عنه كانت قد أخذت روحه معها..

***

اقتربت منه خيزران بخطوات جنائزية حتى أصبحت تقف إلى جواره مباشرة، وضعت يدها على كتفه وقالت شيئًا غريبًا:

- ما زلت صغيرًا يا عاصف وتستطيع أن تستمتع بحياتك القادمة، وأنا أستطيع أن أجعلك تذهب من هنا دون أن يمسك شر أو يطالك الأذى..

كان يعلم أنها تقول ذلك تمهيدًا لكلام آخر ستقوله، أكملت خيزران قائلة:

- ولكن بشرط.. أن تعدني بأن ترحل بعيدًا عن مملكة أبابيل وتقطع لي وعدًا غليظًا بعدم الرجوع إليها مرة أخرى، وعدم مطالبتك بالثأر أو العرش..

وأضافت بعد لحظات من الصمت:

- اقطع لي هذا الوعد يا عاصف وأدعك تذهب الآن، ما رأيك هل أنت موافق؟!

نهض عاصف واقفًا..

كان غاضبًا ولكنه لم يبدُ عليه أنه ينوي الإقدام على أي مغامرة متهورة، إنه وحيد ولا يستطيع أن يواجه خيزران ومعها كُل أولئك الشياطين وحده..

كان بوسعه اختيار السلامة فيقطع لها الوعد الذي طلبته ويرحل دون أن يطاله الأذى.. ولكنه اختار أن يكون شجاعًا ويموت مرة واحدة فالجبناء وإن امتدت أعمارهم طويلًا إلا أنهم يموتون في اليوم أكثر من مرة..

قال:

- لقد ارتكبتِ ذنوبًا أكبر بكثير من قدرتي على المغفرة؛ لقد خُنتِ ثقتي وآذيتِ أصدقائي، ولأجل هذا سأظل أُطاردكِ طوال ما تبقى من حياتي القادمة.. فإذا كنتِ تريدين النجاة من العذاب أنصحكِ أن تقتليني الآن وفي هذه اللحظة..

إنها لا تريد قتله ولكنها تُدرك بأنه سوف يسبب لها الكثير من المتاعب لو أنها تركته يذهب؛ لذلك أمرت بعضَ شياطينها فقيدوا يديه خلف ظهره وجعلوه يجثو على ركبتيه..

اقتربت منه وقالت:

- ألديك شيء أخير تود قوله؟!

قال كلامه الأخير:

- **لقد تألمتُ كثيرًا في هذه الحياة ولكن لا شيء يُشبه ألم غدر الصديق بصديقه، وقد عشتُ ما يكفي من الخيبات لأدرك ألّا شيء في هذه الحياة يستحق أن نخون الآخرين من أجله..**

اقتربت من عند أذنه لتقول له شيئًا أخيرًا كان في نفسها:

- عندما تقابل جدك جبّار قُل له إني لم أكن أعلم بشأن السم الذي دسَّه له طاغين في جرحه..

ثم أمسكته من شعره الطويل الكثيف وشدته بقوة للخلف؛ لكي يسهل عليها قطع عُنقه بضربة واحدة وقالت:

- وداعًا..

عندما اقترب منه الموت شاهد في ظلام عينيه فتاة لها وجه أبيض جميل مرقط بحبات نمش خفيفة وعينان بُندقيتا اللون ويفوح من جسدها رائحة الياسمين..

ورغم خطورة الموقف واقتراب نهايته إلا أنه ابتسم حين شاهدها، وكيف لا يبتسم وهو يرى في ظلام عينيه طيف أمه جومانا..

هوت خيزران بيدها على عُنق عاصف..

ثم تبللت الأرض بالدماء..

النهاية . .

١

الساحرة السُفلية

زالت رائحة الياسمين.. وانتشرت في الهواء رائحة الدماء ولكن الغريب في الأمر هو أن عاصف كان لا يزال يستطيع الشعور بكل شيء حوله..

ورغم إدراكه بأنه لم يمت وأنه ما زال حيًّا إلا أنه راح يتلَمَّس رأسه وعنقه بيديه الاثنتين كما ليتأكد أكثر من أن كُل شيء كان في مكانه الصحيح..

استشعر أجساد الشياطين من حوله فوجدهم ماتوا كلهم واستشعر أيضًا جسد خيزران وأدرك أنها ماتت مقتولة عند قدميه.. واستطاع وهو في غمرة ذهوله وتساؤلاته العديدة أن يستشعر وجود ثلاثة أشخاص يقفون على ظهور أحصنتهم بالقرب منه وأدرك في نفسه أنهم من أنقذوه في اللحظة الأخيرة..

ترّجل أحد أولئك الأشخاص عن ظهر حصانه واقترب.. وحين بات يقف بالقرب منه عرف من خلال هالتها القوية جدًّا أنها "**فتاة ساحرة**"..

هو لم يكن واثقًا من هوية الفتاة الساحرة ولكنه كان يعرف هدير تلك الأنفاس جيدًا، فزادت نبضات قلبه دقًّا وقرعًا وهزًّا وكأن الروح لتوها قد عادت إليه..

أراد أن يسألها عن هويتها ولكنه تردد للحظة؛ لقد خاف أن يسأل فتكذب إجابتها ذلك الوهم اللذيذ في قلبه ولكنه بعد لحظات تشجع وسأل:

- من أنتِ؟!

- **غيمتُك المُمطرة عندما تجف كُل بحور الأرض، ويهلك جميع من في العالم عطشًا..**

همست له بذلك ثم وفاء لوعدها حين قالت له ذات مرة: "**إن عدت سأعطيك قبلة**".. فإنها أمسكت وجهه الذابل المُرهق المذهول بيديها ووضعت شفتيها على شفتيه وجعلت تُقبله بكل شغف كما لو أن الأشباح كانت تطاردها وكانت تلك القُبلة هي قِبلتها وأمان قَلبها وقُبتها وملاذها الأخيرة للنجاة..

**

وحين أنهت القُبلة وتراجعت عنه خطوة للوراء، حدث له شيء غريب جدًّا لقد: **زال عن عينيه الكفاف وارتد إليه بصره..**

فنظر أمامه بدهشة لا نهائية..

لم يكن مدهوشًا لأنه أصبح يرى بل لأنه رأى أمامه تلك الفتاة..

كانت زاهية ومشعة ومتوهَّجة كأول يوم قال فيه الرب للشمس كوني، فتكوَّنت وتوّلد ضوئها ثم أشرقت تطرد عن الأرض بردها وظلامها وضباب موتها وتغرس فيها الدفء والنور وشتلات الحياة..

تمتم قائلًا بعدم تصديق:

- سرابي؟!!!

الرواية تستمر في الجزء الثالث من سلسلة **أبابيل**

المؤلف:

أحمد آل حمدان ..